السنة السادسة

الجديد

فـكر حـر وإبداع جـديد

aljadeedmagazine.com

ثقافية عربية جامعة تصدر من لندن ● مارس/ آذار 2020 العدد 62

هذا الجسر لي

قصائد من "ساحة التحرير" في بغداد

التبرع بالخصوصية

هل أصبح الاستعراض الرقمي حصان طروادة العصر؟

ISSN 2057-6005

الجديد
aljadeedmagazine.com

مؤسسها وناشرها
هيثم الزبيدي

رئيس التحرير
نوري الجراح

مستشارو التحرير
أزراج عمر، أحمد برقاوي
عبد الرحمن بسيسو، خلدون الشمعة،
خطار أبو دياب، أبو بكر العيادي
ابراهيم الجبين، رشيد الخيون، هيثم حسين
أمير العمري، مفيد نجم، عواد علي

التصميم والإخراج والتنفيذ
ناصر بخيت

رسامو العدد:
إبراهيم الحسون، حسين جمعان
شفيق اشتي، محمد اسياخم
ريم يسوف، ساشا أبو خليل
محمود الداود، عبد الرزاق شبلوط
شادي أبو سعدة، جمال الجراح
ماريا كازنوفا

التدقيق اللغوي:
عمارة محمد الرحيلي

الموقع على الإنترنت:
www.aljadeedmagazine.com

الكتابات التي ترسل إلى «الجديد» تكتب خصيصاً لها
لا تدخل المجلة في مراسلات حول ما تعتذر عن نشره.

تصدر عن
Al Arab Publishing Centre
المكتب الرئيسي (لندن) UK
1st Floor
The Quadrant
177 - 179 Hammersmith Road
London
W6 8BS
Dalia Dergham
Al-Arab Media Group

للاعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

لمراسلة التحرير
editor@aljadeedmagazine.com

الاشتراك السنوي
للافراد: 60 دولارا. للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها
تضاف إليها أجور البريد.

ISSN 2057- 6005

هذا العدد

يحتوي هذا العدد على ملفين أحدهما رئيسي والآخر فرعي، الأول ثقافي عام يتصل بقضية القضايا الشاغلة لأهل القلم والفكر في كل ناحية من نواحي هذا الكوكب ونعني بها قضية الخصوصية ومصائرها في العصر الرقمي وفي زمن الانتشار الأخطبوطي لوسائل التواصل الاجتماعي على الشبكة العنكبوتية. عنوان الملف "التبرع بالخصوصية" وقد شاركت فيه نخبة من الباحثين الأكاديميين والأدباء والمفكرين العرب الذين يسعون للكشف عن طبيعة هذه الظاهرة المواكبة لظهور وسائل التواصل الاجتماعي كالفيسبوك وتويتر وإنستغرام وغيرها من المواقع والبرامج والتطبيقات التي أتاحت للأفراد التعبير عن أنفسهم والتواصل في ما بينهم وعرض ما لديهم من صور وكتابات وتداولها.

الملف يتناول هذه الظاهرة من زوايا فكرية وسوسيوثقافية، ويقرأ الظواهر الناجمة عنها على غير مستوى من مستويات القراءة والبحث والتحليل.

الملف الثاني في العدد يحتفي بشعراء ساحات التحرير الشباب من خلال القصائد الشعرية التي كتبوها خلال التظاهرات التي شاركوا فيها في بغداد خصوصا، وكانوا مع البعض منهم محرّكين لها ومشاركين، بالتالي في التعبير عن ذواتهم المتمردة كشعراء، وعن الذات المجتمعية الثائرة على الفساد والميليشيات والتدخلات الأجنبية في وطنهم.

إلى جانب هذين الملفين هناك مقالات وقصص وعروض كتب ورسائل ثقافية.

حوار العدد مع الروائي السوري خيري الذهبي، وفيه جولة واسعة مع رؤيته الشخصية للكتابة الروائية ونظرته الأدبية وتطلعاته المستقبلية ككاتب روائي.

بهذا العدد تمضي الجديد في مغامرتها النقدية والجمالية مستقطبة الأصوات الجديدة إلى جانب الأصوات الراسخة والاقلام المبدعة الباحثة عن الابتكار في الأدب، إلى جانب الأقلام الفكرية ذات التطلع النقدي في الأدب والفن والثقافة والاجتماع ■

المحرر

ماريا كازنوفا

■ الغلاف: غرافيك الجديد

المحتويات

العدد 62 - مارس/ آذار 2020

كلمة

4 **ما بعد الخصوصية**
المواطن الكوني في مملكة العالم الافتراضي
نوري الجراح

مقالات

8 **كيف تمنح الروايات الجوائز؟**
وليد علاءالدين

12 **حال الشعر العربي الآن**
فخري صالح

14 **في البدء كان الارتحال**
رَحّالة ليبية منسية
فاطمة غندور

قص

20 **أين البرتقالة**
ست قصص موريتانية
مريم حمود

64 **الموتى لا يملّون الانتظار**
فصل من رواية
محمد حيّاوي

حوار

26 **خيري الذهبي**
حكاية دِمشق

36 **ملف/ هذا الجسر لي**
قصائد من "ساحة التحرير" في بغداد

منار المدني، وائل سلطان، نور مهند، نور درويش
علي سرمد، علي ضياء، سما حسين، صالح رحيم
وسام الموسوي، إحسان المدني، أحمد ضياء

66 **ملف/ التبرع بالخصوصية**
هل أصبح الاستعراض الرقمي حصان طروادة العصر

68 **من سطوة الأخ إلى نقد الصديق**
سميّة عزّام

72 **ما الذي سيراقبه الأخ الأكبر الآن؟**
مبارك حسني

76 **المجتمعات الافتراضية**
عمار يزلي

80 **وماذا بعد أن يصبح الإنسان مشاعًا؟**
غيضان السيد علي

84 **انتحار الخصوصيّة**
محمد صابر عبيد

88 **شهوة الحضور وانفجار المكبوت**
أحمد برقاوي

92 **أخلاقيات العالم الرقمي**
أحمد بلخيري

96 **هل يمكن صون حياتنا الخاصة في عصرنا الرقمي؟**
حميد زناز

98 **الإثم والمنافع**
رشيد حمليل

102 **حدود الخصوصية اليوم**
بهاء درويش

106 **الأخ الأكبر حي فينا**
محمد الحجيري

110 **الْعَارِي لَا يُعَرَّى**
عبد الرّحمن بسيسو

116 **قبائل ثقافية في العصر الرقمي**
طاهر علوان

120 **عصر الشركات العملاقة**
وجدي الأهدل

122 **حربٌ من أجل استقلال الذات**
محمود الرحبي

124 **صناعة الاعتراف**
شرف الدين ماجدولين

128 **"مَشْيَخة" الميديا الجديدة**
بومدين بوزيد

132 **المراقبة وسيلة للتآخي الكوني**
أبوبكر العيادي

استطلاع

136 **التبرع بالخصوصية**
يعيد رسم مهام الأخ الأكبر
مصطفى عبيد

كتب

144 **من يحكمنا الآن؟**
انكشاف الذات في الثقافة الرقمية
ممدوح فرّاج النّابي

المختصر

150 كمال بستاني

رسالة باريس

154 **جدل فرنسي متجدد في المسألة العرقية**
أبو بكر العيادي

الأخيرة

160 **الذات الخارجية أم ثرثرة بصرية**
هيثم الزبيدي

غلاف العدد الماضي فبراير/شباط 2020

كلمة

ما بعد الخصوصية
المواطن الكوني في مملكة العالم الافتراضي

فرضت خبرات العلم والمعرفة والاكتشافات المتسارعة على الأفراد والمجتمعات وعياً بالزمن أكثر تركيبا وحذاقة، وانعكس هذا على شتى المجالات وطال علاقة البشر بالفن والفكر والأدب وقد أدرك الملهمون في المجالات العلمية والأدبية ما لفكرة السيطرة على الزمن من أهمية قصوى في ظل تسابق محموم للمجتمعات على مصادر الثروة والقوة والغلبة في عالم تحكمه رأسمالية السوق وقد توحشت إلى أبعد الحدود، وصار لها، فضلاً عن حضورها الواقعي، واقعها الافتراضي المهيمن ورموزياتها الأيقونية.

وفي ظل انهيار المنظومات الأيديولوجية التي حكمت الدول والمجتمعات طوال القرن العشرين، وولادة العصر الرقمي وعالم "المابعد" حيث لم يعد اليسار يسارا خالصا، ولا اليمين يمينا خالصا، وتحوّل الدين إلى فولكلور بوجهين: مسالم وإرهابي، باتت "الأسواق" التي افتتحتها الشركات الكبرى المنتجة والمسوقة (وعلى رأسها التكنولوجية) مصنعا للمعتقدات والتصورات والأفكار والظواهر والموضات، وكل ما من شأنه أن يشكّل شبكة التعارف والتواصل بين البشر. انقسم العالم إلى مبتكر ومستهلك. فالمبتكر يمكن أن يبني بفعل ابتكاره المرتبط، غالباً، بشبكة التواصل الإلكتروني الفعال والمدهش، إمبراطورية (غوغل -فيسبوك - تويتر- إنستغرام..) تتفوّق، في قدرتها على الإخضاع والاستثمار والثراء، على أعتى الإمبراطوريات العسكرية. وها نحن في خضم لحظة إنسانية تخلو فيها العلاقات بين المبتكرين والمستهلكين من كل رادع أخلاقي. وبات الإنسان ضعيف الحيلة أمام غوايات السوق إلى درجة الهزال التام وانعدام المقاومة.

***

في ظل العلاقات الجديدة للاستهلاك باتت شجرة المعارف نفسها، تستبدل أوراقها من قبل حتى أن تصفرّ بأوراق أكثر خضرة، وثمارها التي ألفت بثمار لم تألف. فالعصر الرقمي يضرب لك يوميا مثالا يجدد لهاث البشر على الأشياء الجديدة، فالشركات التي ابتكرت تلك العلبة السحرية التي غيرت العالم إلى غير رجعة، وجعلت من البشر أدوات وموضوعات لها، لا تني هذه الشركات العملاقة الأكول تخرج على المستهلكين بأجيال جديدة من هذه العلبة الساحرة بميزات غير متوقعة، ووظائف تخطف العقول والأبصار، في لعبة تُسابق الزمن والإنسان معاً.

لن أمضي في استعراض أوجه ما أتاحته التكنولوجيا الرقمية للإنسان، فهي أكثر من أن تحصى لكونها تشمل مستويات لا حصر لها من أوجه النشاط الإنساني والتواصل بين الناس. بل إن كل ما هو كائن في الواقع بات له نظير ومثال وصورة على الشبكة العنكبوتية. هناك من بين بني البشر، لاسيما من ينتمي منهم إلى مجتمعات لم يكن لها سهم في التطور العلمي، من يعتبر منافسة العالم الافتراضي للعالم الواقعي ضربا من الخير الممزوج بالشر، ولا بد منه، ومنهم من يعتبره شراً محضاً، فيهجوه وهو عاجز عن مقاومته. وفي كلتا الحالتين نحن إزاء نموذج من البشر المنفعلين بالعالم، العاجزين عن الفعل فيه. فما من بديل لهذا الوحش الإلكتروني وعوالمه الافتراضية، بل لا مناص من الاستسلام، وغالباً الانغماس في هذا العالم، فمن لا موطئ قدم له على هذه الأرض الزائغة لا موطئ قدم له في الأرض الصلبة.

***

مئات المقالات وعشرات الكتب حُبّرت بالأسئلة الحائرة عن مستقبل السلوك والتفكير البشريين في ظل الثورة التكنولوجية المذهلة التي عصفت بالعالم، وبدّلت في السلوك اليومي للبشر على نحو فارق، وشملت بذلك سائر سكان الكوكب، فقراء وأغنياء، قرويين ومدينيين، متعلمين ومحدودي التحصيل العلمي. بل إن الثورة التكنولوجية ساهمت في ردم الفوارق بين الفئات المختلفة، ومكّنت الأفراد من الوصول المتساوي إلى مصادر المعرفة. وأتاحت لهم جميعاً فرص التعبير عن الذات على نحو غير مسبوق، والتواصل في ما بينهم وبين من يرغبون في التواصل معهم أكانوا قريبين منهم جغرافياً أو هم في أقاصي الأرض، وقتما يشاؤون.

***

شيء مذهل حقاً، ما وقع من تغيير ليس فقط في السلوك اليومي للناس، في علاقات العمل والصداقة، والعلاقات بين الجنسين، وبين أفراد الأسرة الواحدة، وبين الأسر المختلفة. بل إن ما حدث من تطور تكنولوجي وهيمنة لمفردات الأخطبوط الرقمي أصاب عمق البنية الذهنية للناس، وهو في سبيله إلى خلق حقائق يومية قاهرة من شأنها أن تملي نفسها على الأفكار والمفاهيم والعادات والتقاليد، وتعيد تعريف الأشياء؛ كل الأشياء، وصولا إلى تغيير قواعد السلوك، وإلى ما يمكن أن نعتبره اختراقاً لقلعة المفاهيم الأخلاقية التي بناها البشر وطوّروها عبر ثوراتهم المتعاقبة

واجتهاداتهم الفكرية، وأغنوها بمفاهيم جديدة أعادت مراراً تعريف فكرة الأخلاق بالمعنى الفلسفي للكلمة، والمنظومة الأخلاقية بالمعنى الاجتماعي.

على أن التطورات الجارية في العالم على الصعيد الذي نتكلم فيه ليست إلا عتبة في رحلة خارقة للعادة يخوضها البشر مع التطور التكنولوجي، في ظلّ ما اصطلحوا على تسميته بـ"العصر الرقمي". ولا شيء يمنع إطلاقاً من أننا نتجه نحو مفترق طرق غير مسبوق، معرّضين لعواصف من شأنها أن تعرّي الكائن البشري من كل ما ستر به عريه من قيم ومفاهيم وأخلاقيات، لطالما تشكلت بأثر من التجارب التي خاضها البشر وبفعل الخلاصات التي توصّل إليها الوعي الاجتماعي للإنسان عبر رحلته المديدة منذ أن اكتشف النار وغادر ظلام الكهف إلى نور المعرفة.

***

قدر لا دافع له.

لكنّ ثمة وعيا آخر، لدى أناس ينتمون إلى الأجيال الجديدة غالباً، يرى أن العالم تغير بلا رجعة، وكلنا جزء من هذا التغيّر الذي أدخلنا فيه العصر الرقمي. ما من كائن مهما كان مستقلا ومقتدرا يمكنه أن يقيّم زمنه الخاص بمنأى عن المجرى العام للزمن. والسؤال الأوجب في حال كهذه هو كيف نتصرف بإزاء اللغة الجديدة التي يبتكرها لنا العصر الرقمي. هل نتعلم هذه اللغة ونصبح مواطنين كونيين في كوكب متصل الأجزاء يتبادل ناسه على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم وأحوالهم، الخبرات والتجارب والعلوم والمعارف، أم ينخرط البعض وينكص البعض الآخر، فتتضاعف الفوارق بين الجهات والجماعات، وتنشأ أسوار بين ثقافات وثقافات، ويدخل البشر في طور من التفاوت لا صلاح له؟

قد يبدو السؤال هنا مبسّطاً، في ظل التعقيد الهائل الذي يحكم الجغرافيات والدول والجماعات الثقافية المختلفة. مادام التفاوت واقعا لا حلول له بين أمم قوية منتجة وأخرى ناكصة مستضعفة، أمم غنية وأخرى فقيرة أو مستفقرة، نظم متقدمة وأخرى متخلفة، وثمة شركات عملاقة تطحن الحجر والبشر وتقيم في العالم أسواق الاستهلاك، وغالباً ما تقع الحلقات الأضعف في هذه المعادلة ضحية استنزاف لا نهاية له.

ومن المفارقات التي تحتاج إلى درس، على خلفية هذه اللوحة، أن أفراداً في أفقر المجتمعات اليوم يملكون أجهزة إلكترونية نظير تلك التي تتوفر للأفراد في أغنى المجتمعات، وهذه واحدة من مفارقات العصر الرقمي. وهو ما يدخل البشر في مخاض معرفي سينتج كائنات تختلف في وعيها للعالم وطرائق تلقّيها الاشياء، وتعاملها مع الظواهر أطوارا جديدة كلية. فثمة أبواب للفرص لدى الجميع أيّا كانوا، ومهما تفاوتت أحوالهم الاقتصادية، أو اختلفت أفكارهم، أو افترقت بهم سبل التعبير عن أنفسهم.

***

قبل أن أمضي في طرح الأسئلة المتصلة بالموضوعات الأكثر خصوصية وحميمية في حياة الأشخاص وطبيعة حضورها عبر الشبكة العنكبوتية، أود أن أشير هنا إلى أنني أستبعد الحديث في سلبيات الشبكة العنكبوتية، من دون أن أستبعد التفكير فيها أو أن أنفي وجودها، تاركاً لغيري مثل هذ الاهتمام. فما يهم، بالنسبة

إليّ، هو المشاركة في قراءة بعض أوجه الظواهر الناجمة عن السلوك التواصلي والسلوك الاستعراضي عبر شبكة الإنترنت.

***

في هذا السياق تتبادر إلى الذهن تلك الصور التي يتبرع بها سكان الكوكب في نشاطهم الافتراضي المحموم على مواقع التواصل الاجتماعي، وعبر التطبيقات المختلفة المتاحة عبر جهاز الموبايل وكذا عبر شاشة الكومبيوتر. ثمّة من يتبرّع بجلسته العائلية، ومن يتبرّع بوقائع رحلته في الطبيعة والمدينة، ومن يستعرض ملابسَه وصحنَ طعامه وكتاباً يقرؤه، وقطعة موسيقية أو أغنية، أو نعي أب أو أمّ أو صديق، أو صورته في مشفى بقدم مكسورة، وهناك السيلفي لوجه شوّهته اللقطة ومن ورائه جماعة أو لوحة أو حافلة أو سهل أو حيوان. أو قطار محطم أو طائرة تحترق أو أشخاص توزعوا الشاطئ شبه عراة. وهناك البيان، الشخص ضد شخص أو جماعة أو حاكم، وتعبير عن الانتماء إلى فكرة.. وهناك الجالسة إلى المرآة وفي وجهها المساحيق، ولكن الباكية الشاتمة شريكا كفّ عن أن يكون وفيا.

تبرّعٌ بوصف الحال وتصوير لانشغالاتها وإعلان عن انتماء أيديولوجي أو ديني، وأخبار عن أشخاص قد يسعدهم حضورهم، أو يغضبهم هذا الاختراق لنواح حميمية من حياتهم وليست للتداول العام.

استعراض الذات، في شبكة تزخر بالفضوليين المستمتعين الصارفين الوقت في متابعة الشارد والوارد وكذا السقطات التي تصدر عن هذا وذاك وتلك.

والسؤال الآن، ما الذي يجعل أولئك "النرسيسات" الليليين الهاربين من الواقع كائنات غارقة في زرقة الشاشة لولا استغراقهم في ذوات تائهة وقلقة، وربما معذّبة اجتماعيا، تبحث لوجوهها عن مرايا، نرسيسات بوجوه شتّى ولها طلب مشترك ولكنها على شيء من التناقض مع بطل الأسطورة القديمة عاشق ذاته، فالنرسيس كما قدمته الأسطورة الإغريقية، واستقر في علم النفس الفرويدي هو طالب اتصال مع الجمال لا يتحقق له وجود إلا في التماهي بصورته، والغياب في تلك الصورة. بينما نرسيس الإنترنت طالب حضور لدى الآخر أبرز ما في طبعه الاستعراض، أو هو فضولي تنعشه الصور الشخصية لعارضين تبرعوا بأنفسهم في دورة استعراض وتلقّ تقيم بين الطرفين علاقة إشباع مرضية لا حرج فيها لأيّ من الطرفين مادامت تجري في عالم افتراضي وبين كائنات تسكن في عزلات محصنة من الاتصال المباشر. يجمع ما بينها وبين نرسيس القديم عشق الصور، وغالبا على حساب المعنى العميق للكلمة والمعنى الأسمى للوجود ■

نوري الجراح

لندن- مارس/آذار 2020

إبراهيم الصوص

مقال

كيف تمنح الروايات الجوائز؟

الرواية تُقرأ بالذوق وتُحكَّم بالخبرة

وليد علاءالدين

إذا عرضنا طعامًا مكسيكيًا بمكوّنات حرّيفة على امرأة عربية اعتادت أكلات مطبخها المنزلي ولا تحب النكهات الحارة؛ فيمكننا بالطبع - بنسبة نجاح كبيرة - التكهن بأن تقييمها لهذا الطبق سيكون سلبيًا. وهو ما لا يمكن لخبير أطعمة أن يقرّه بشأن الطبق نفسه، حتى وإن لم يوافق ذوقَه الخاص.

في هذه المساحة شديدة الحساسية، بين الذوق الخاص، والتقييم وفق معايير صالحة للنقاش، علينا أن نتحدث باستفاضة حول الأدب لننتهي من أزمة حيرتنا بين ذوق القراء وتقييم لجان الجوائز، الحيرة التي تتجدد مع كل إعلان نتائج جوائز مسابقات الأدب العربي، خاصة في "الرواية" التي اتسع تعريفُها ليشمل تقريبًا كلَّ فنون الكتابة.

الهدف إيضاح الفروق الضرورية بين الذوق القرائي من ناحية، ومعايير الحكم على رواية لتنال جائزة محددة من ناحية أخرى؛ إذ أن الأمر الأخير - في ظني - معطل إلى حد ملحوظ في منظومة جوائزنا العربية، ربما لأنه في الأساس غائب عن ثقافتنا نفسها.

في ثقافتنا، يجد كل فرد في نفسه الثقة والمقدرة على إطلاق حكم قيمة، أو حكم جمالي متدنّ على كل عمل لا يناسب ذوقه (لن أستخدم "يفهمه" وإن كانت صحيحة؛ فاللغات لا يمكن التواصل معها من دون فهم، وكما أن عدم فهم لغة من اللغات ليس حكمًا سلبيًا على من لا يفهمها، فالأحرى ألاّ يكون عدم فهم شخص لغة ما حكمًا سلبيًا عليها، والفنون والآداب لغات تحتاج إلى فهم).

في ثقافتنا من السهل إطلاق حكم قيمة سلبي على ما لا نفهمه، لمجرد أننا لم نفهمه، حتى ولو جاء الحكم من باب المزاح والاستخفاف "هذه الأشياء ليست لنا" مثلًا. وهو حكم سلبي مهما تغّلف بالسُّخرية من النفس في مقارنتها بمن يفهمون "هذه الأشياء".

أمام الإبداع، بوصفه لغة، تجب التفرقة فيه بين موقفين: الموقف الأول موقف القارئ الذي يحق له أن يحب أو يكره، يفضل أو لا يفضل، يرتاح أو يستاء، وفق معايير ذاتية (من دون مطالبته عادة بتفسير الأمر، أو تحليل دوافعه، أو إيضاح معاييره). والموقف الآخر موقف المحكِّم - وهو أدق من موقف الناقد بمراحل - فالتحكيم احتكام إلى معايير أفرزتها خبرة عامة تتعلق بالمجال أو بالفن أو بالصنعة أو بالمهنة، بشكل يُضيّق مجال الخلاف إلى أضيق حدود ممكنة. فلا يصح أن يرتبط التحكيم بذائقة شخصية أو حتى بذائقة نقدية (مزيج من الذوق والثقافة الشخصيين ومدارس النقد).

لا أستسيغ تقريب الأمر بمثال ميزان الذهب الذي يشاع اللجوء إليه تعبيرًا عن منتهى الدقة، فالذهب لا نكهة له ولا روح، وقيمته في قدرته العملية على حفظ القيمة المادية. والأمر مع الأدب - مهما حاولنا موضعته - لن يغادر مساحة الذائقة، فقط نريدها ذائقة منضبطة بمعايير، هذه المعايير صالحة للتغيير والتطور والاتساع والتقلص، لكن وجودها في حد ذاته ضرورة لا غنى عنها لضبط العملية كلها.

لا أجد مثالًا أقرب لما أريده، أكثر من دور الذواقة الخبير المحكّم الذي تعرفه صناعات ضخمة وعريقة في العالم مثل صناعات النبيذ والشاي. إذا احتكم ذوّاقة الشاي مثلًا في تصنيف الجودة إلى ذوقه الشخصي - المحكوم بتفضيلاته الثقافية والعاطفية - لما استحق أن يكون ذواقة محكمًا.

من الطبيعي والمقبول أن يختلف الناس - بعد انتهائهم من التحكيم والتصنيف - حول ما قاموا بتصنيفه، كل واحد حسب ذوقه الشخصي وارتباطاته الثقافية، ولكن هذا الخلاف والاختلاف مهما زاد لا يؤثر شيئًا في مواضع ما يروقهم شخصيًا من أصناف الشاي على جدول التصنيف الذي انتهى إليه الخبير.

ستجد البعض يفضلون صنف الشاي "درجة أربعة" على صنف الشاي "درجة واحد"، فهو بالنسبة إليهم فقط "درجة واحد"، ولكن هذا التفضيل لن يغير من درجة الشاي في جدول التقييم - حسب مواصفاته الفنية والكيميائية والفيزيائية.. إلخ- مقدار شعرة.

قد يكون للمحكّم نفسه ذوقه الشخصي في الشاي الذي يفضّله، ربما هو مرتبط عاطفيًا بالشاي المصنف على "درجة خمسة" من جدوله نفسه، ولكنه يظل في الدرجة الخامسة من دون أدنى تأثير على قراره المهني. يجوز لجماعة من محكّمي الشاي أو من

إبراهيم الحسون

غيرهم - من باب الافتراض - أن يضعوا جداول تقييم أخرى، وفق معايير مختلفة مثل: الشاي الأكثر مبيعًا في بقعة جغرافية معينة، أو الشاي المفضل لسكان الجزء الجنوبي من الدنيا، أو الشاي المفضل للنساء، أو للرجال، أو لذوي البشرة الغامقة.. إلى آخر ذلك من تصنيفات، على أسس مواصفات المشترين، أو مواصفات الشاي الطبية أو اللونية، أو وفق أيّ تفضيلات تخص شرائح من المجتمع، أو على أسس اقتصادية أو كيمياوية أو صحية، لكن يبقى جدول تصنيف الشاي الأساسي قائمًا إذا قصدنا "الشاي" في نوعه، بلا أيّ ارتباطات خارج النوع.

وجه التشابه بين الأدب والشاي، أن الشاي ارتبط منذ أزمنة طويلة بذائقة البشر، ومع ذلك فإنه يظل أكثر مادية من الأدب والفن، فيسهل توصيفه وتصنيفه، أما الفن والأدب فلا يمكن التعامل معهما من هذه الزاوية بتلك السهولة. إلا أن حديثنا لحسن الحظ ليس عن الشاي، ولا عن الأدب بقدر ما، إنما عن دور ذواقة الشاي ومحكّمه، وكيف لا يستحق هذا الوصف إن هو أخضع حكمه لذوقه - مهما ارتقى - خارج إطار معايير التحكيم المتفق عليها.

يجوز لك إذن أن تفضل الشاي (درجة عشرة) على الشاي (درجة واحد)، وأنت تشربه في بلكونة بيتك. كما يجوز لك أن ترى الرواية "س" بديعة عندما تقرأها مسترخيًا على كرسي مكتبك، أو على كنبة الصالة. ولكن هل هي بالفعل "بديعة" داخل إطار معايير هذا النوع؟ هذا هو السؤال الأكثر صعوبة، الذي يتهرّب كثيرون من الإجابة عنه، لأن المعايير بالفعل شديدة التعقيد، إلا أنها عقدة - في ظني - تنفك تمامًا بمجرد أن يحدد المرء موقعَه من الرواية: قارئ يستمتع حسب تفضيلاته الشخصية وذائقته المرتبطة بثقافته "فقط"! أم ناقد يمزج - بما تيسر له من مهارة - بين ذائقته وثقافته ومدارس النقد ليقول لماذا هذه الرواية بديعة وما الذي ينقصها لتصبح أبدع؟ أم أنه "حكم" يستخرج الرواية من بين عشرات لتنال جائزةً ما وفق معايير ما، عليه أن يكون قادرًا على شرح كيف استوفت هذه المعايير أو فاقتها فاستحقت الفوز؟ هنا المدخل الوحيد - كما أراه - للإجابة عن هذا السؤال المعقد.

العقدة تنفكّ حين تتعامل مع الأدب كخبير، أي أن تُنحّي إلى أبعد حد ممكن ميولك وتفضيلاتك الشخصية، إلا ما تَلاقى منها بطبيعته مع حدود معايير الحُكم. وحدود الحكم على الأدب بلا شك لن تكون في وضوح حدود تقييم أنواع الشاي وصراحتها، ودعك من بديهيات القواعد اللغوية والنحوية، أو حزمة الصواب والخطأ التي لا خلاف عليها إلاّ اجتهادًا؛ فهي أمور ليست في حاجة لكثير نقاش. ولكن هل يجوز - مثلا - الحكم على رواية بالأفضلية من دون اعتبار المنجز السابق عليها، أو المعاصر لها، في نوعها وطرحها وتوجهها؟

هل يجوز الحكم على رواية بالأفضلية من دون اعتبار أحد أهم مكوناتها، وهو الخيال، ومدى ما قدمته فيه من ابتكار وبراعة في استخدامه؟

هل يجوز الحكم على رواية بالأفضلية من دون اعتبار الحقول المعرفية أو العلمية التي رسم الروائي حكايته وأحداثه فيها؟ يعني هل كان بالفعل على دراية بها أم أنه طعنها من الخلف؟ يعني هل نُفضل رواية طعنت التاريخ من أجل التخييل أم رواية نجحت في التخييل بالإضافة إلى احترام مناهج البحث في التاريخ، أو على الأقل من دون المساس بحدوده العلمية؟ أو هل نفضل رواية طعنت علوم الكيمياء أو الفيزياء - على سبيل المثال - تحت بند الخيال العلمي أم رواية صنعت خيالًا علميًا مبتكرًا عبر معرفة صحيحة بالعلوم التي صنعت بواسطتها الخيال؟

هي مجرد تساؤلات - يمكن توسيعها - من أجل بيان أن إيجاد معايير تحكيم موضوعية للأدب عندما يتعلق الأمر بمنحه جائزة، أمر ممكن ومعقول، بل مطلوب ولا غنى عنه. يمكنكم غزل الكثير من المعايير بالمنطق نفسه، ووضع عشرات الأسئلة التي تصنع إطارً موضوعيًا للتحكيم ومعايير واضحة للتفضيل تتجاوز الذائقة الشخصية، وتحترم مهمة الذواقة والخبير المحكّم، وترسخ قيم احترام مناهج العلم، والإضافة إلى المنجز السابق، وتعلي من شأن الخيال والابتكار والتسلية والتشويق والإمتاع وغيرها من صفات ضرورية في العمل الروائي بوصفه فنًّا، أي وسيلة تواصل تتوسل بالجمال من أجل الوصول.

شاعر وكاتب مصري مقيم في الإمارات

مقال

حال الشعر العربي الآن

مساهمة في السجال المفتوح في "الجديد" عن أسئلة الشعر

فخري صالح

علينا أن نعترف أن الشعر العربي يمر في المرحلة الراهنة بأزمة عميقة، سواءٌ فيما يتعلق بالعناصر الشكلية والتجربة الوجودية، أو ما يتعلق بطرق استقباله لدى المجموعات القرائية التي مازالت تؤمن بأن الشعر يمثل نوعاً أدبياً بالغ الأهمية للتعبير عن تجارب الوجود التي ينخرط فيها العرب المعاصرون.

إلى أين تتجه قاطرة الشعر العربي المعاصر في زمن صار فيه الأدب أقلَّ أهمية بالنسبة إلى القراء، كما صارت الرواية، دون الأشكال الأدبية جميعها، تترتَّع على سدة اهتمام القراء وتسبق الشعر بخطوات واسعة من حيث أرقام التوزيع وتركيز ضوء النقد والدراسة على هذا الشكل الذي يبدو أقرب إلى نثر الحياة اليومية وتفاصيلها؟ هل مازال الشعر ديوان العرب، أم أننا نعيش حنيناً مريضاً إلى ماضٍ مضى ولن يعود؟

أسئلة حائرة يفرضها واقع تراجع الكتابة الشعرية على صعيد الاهتمام والنشر والتوزيع، وازورار الناشرين، كبيرهم وصغيرهم، عن نشر الشعر حتى لكبار الشعراء العرب ممن أصبحوا جزءاً من المدونة الشعرية العربية المعاصرة، تُكتب عنهم الكتب والرسائل الجامعية وتُقرَّر قصائدهم في المناهج الدراسية.

***

لا شك أن طبيعة العصر تفرض نفسها، وغلبة الفنون السردية والحكائية وهيمنة النثر، بأشكاله كافة، على الفنون وأشكال التواصل الجماهيري، روايةً وسينما ودراما تلفزيونية وصحافة إبداعية تعتمد القالب القصصي، هي العواملُ الأساسية التي تدحر الشعر وتُحِلّه مكانةً أدنى في سلّم الأنواع الأدبية. هذا ليس شأن العرب وحدهم، بل هو شأن الشعوب والثقافات جميعاً بدءاً من النصف الثاني من القرن العشرين الذي شهد ولادة التلفزيون وأشكال التواصل الجماهيري التي تقلّص حدود الخيال وتجعل الصور والاستعارات والمجازات اللغوية فقيرة بالقياس إلى قوة الصورة، الثابتة أو المتحركة، وفوريّتها وقدرتها على صدم القارئ أو المشاهد الذي صار في إمكانه أن يتابع ما يحدث في كل ركن من أركان هذا العالم في اللحظة والتوّ. لقد أصبحت اللغة الشعرية عاجزة وأشبه باللعثمة أمام هذا الفيض الهائل من الصور وأشكال التعبير المدهشة.

شعراء نهاية القرن

اللافت أن الشعر العربي خلال العقود القليلة الماضية لم يستطع أن يلتقط هذه اللحظة التاريخية الفارقة في انقلاب تراتبية الأنواع، وأصرّ أن يبقى نوعاً مجازياً بامتياز، ولم يستفد كثيراً من الأنواع والأشكال الفنية المجاورة، إلا على نحو ضيق وفقير بالقياس إلى ما فعله الشعر في ثقافات أخرى.

لكن الشيء المثير للانتباه الذي فعله هذا الشعر، بتأثير بعض الترجمات لعدد من شعراء القرن العشرين البارزين في العالم، أنه حاول خفضَ نبرته وتقليص استعاراته. لم يستفد هذا الشعر كثيراً من عالم المسرح والسينما، ولكنه استفاد من عالم السرد وذهب بعيداً في نثر شكله ولغته، كما حدث في قصيدة النثر وتحولاتها خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمان.

لكن ما هو جدير بالاهتمام خلال العقدين الأخيرين هو عودة كثير من الشعراء، ومن ضمنهم شعراء شباب طالعون ومتحمسون، إلى الشكل التقليدي للقصيدة العربية، لا إلى الشعر العمودي فقط بل إلى جزالة اللغة وقوة الإيقاع وطاقة الصورة المجازية وعلوّ النبرة. بعضهم يعود إلى العمود الشعري، والبعض الآخر يمزج العمود بقصيدة التفعيلة، أو أنه يزاوج بين العمود والتفعيلة والنثر لينتج نصاً مركباً يعيدنا إلى تجريبية أدونيس الذي اشتغل مبكراً على اختبار طاقة الأشكال وقدرتها على مدّ الشعر العربي المعاصر بأسباب جديدة للحياة والإدهاش. هذه الانعطافة التي يتّخذها الشعر العربي المعاصر باتجاه القديم تشير إلى أشياء عديدة من بينها: وهنُ الشكلَيْن التفعيليّ والنثريّ، وقوةُ الماضي التي تتجلى في الحياة السياسية واليومية كما تتجلى في الشعر، ويأتي على رأس ذلك كله قوةُ الأنساق الثقافية التقليدية التي تعكس تقليديةَ السلطة والمناهج والتعليم، كما تعكس مقاومةً شديدة للحداثة والتحديث من قبل الدولة العربية التي تكره التغيير وترهن وجودها ببقاء العتيق والتقليدي والبنى المتكلّسة التي تديم حضورها.

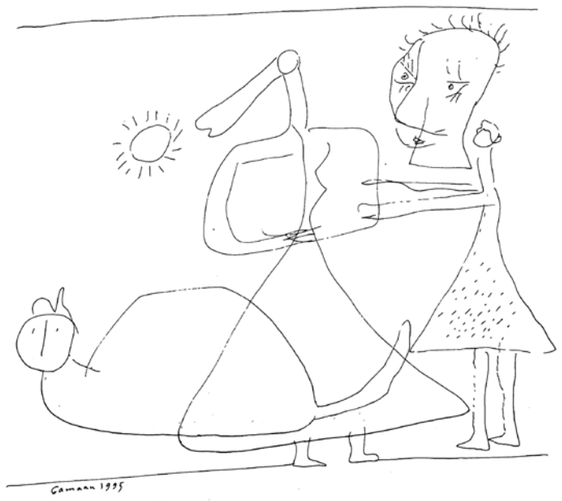

حسين جمعان

العلاقة المعقدة

الوجه المهم الآخر في معضلة الشعر العربي في الوقت الراهن هو علاقته المعقدة بالقراء. وباستثناء عدد قليل من الشعراء، يعدّون على أصابع اليد الواحدة، ليس للشعر سوق رائجة. واللافت للانتباه هو أنه على الرغم من التحوّلات العميقة التي مرّ بها الشعر العربي، إلا أن الرؤية الجمالية التي تحكم ذائقة العرب للشعر مازالت هي هي لم تتبدل ولم يمسسها سحر التغير الذي طرأ في حقل الكتابة الشعرية نفسها.

لقد ظل القراء في واد ومنتجو الشعر في واد آخر. أقلُّ ما يمكن أن يقال هو أن الشعراء، ونقاد الشعر، خلال النصف الثاني من القرن العشرين وفي العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، بقوا سائرين في درب نخبوي، غير منتبهين إلى ابتعاد القراء يوماً بعد يوم عن عالم الشعر والشعراء.

تلك رؤية متشائمة، ولكن هناك الكثير من الأدلة التي تسندها: فعلى صعيد استقبال الشعر، فإن الأمسيات الشعرية لم تعد تستقطب جماهير المستمعين، وبات الحضور هم من أصدقاء الشاعر أو أهله أو من المهتمّين الذين قد لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة؛ وعلى صعيد نقد الشعر، إذ تناقصَ عدد النقاد والمنظرين العرب الذين يهتمون بالشعر في كتاباتهم، وتحوَّل عدد كبير منهم إلى نقد الرواية التي أصبحت النوع الأدبي الأكثر مقروئية والأكثر رواجاً والأكثر استقطاباً للجوائز الكبيرة التي تثير الضجيج وتجذب فَراشَ الإعلام المكتوب والمرئي والمسموع، كما تثير الصخبَ على صفحات المدونات.

لقد خبا ضوء الشعر، رغم أنه الشكل الأكثر كثافةً في التعبير عن قضايا الإنسان الكبرى وعن تجربته الوجودية العميقة. كما أن هذا الشكل الذي يلتصق بالتجارب الأولى لتعبير الإنسان عن نفسه، والتأتأة الأولى التي انبثقت منها اللغات البشرية، بدأ يتوارى في العالم كله لصالح أشكال تعبيرية منها الرواية، والسينما والفيديو كليب، وكل ما يعرض على شاشات التلفزيون، وما يبتكره البشر، من جهات الأرض جميعاً، ويسبح على شاشات الحاسوب ويظهر كلما أبحرنا في مياه الشبكة العنكبوتية المزدحمة بالأشكال والمعارف جميعها، الغثّ والسمينِ منها.

ما يهمني أن أشير إليه، هو أنه رغم هذه التحولات، على صعيد الكتابة الشعرية، والتحولات النظرية الخاصة بتعريف مفهوم الشعر، وغزو أشكال التعبير الأخرى من سينما ومسرح وفيديو للكتابة الشعرية في الوقت الراهن، إلا أن القارئ العربي مازال يقيم في زمان سابق مؤمناً بأن الشعر إيقاع صاخب مقعقع، وأنه مجرد صور تتوالى. يعود ذلك إلى غلبة الرؤية الكلاسيكية للشعر في ما يقرؤه الطلبة في المدارس والجامعات، حتى لو كانت بعض نصوص بدر شاكر السياب وعبدالوهاب البياتي وصلاح عبدالصبور ومحمود درويش قد تسلّلت إلى مقررات الدراسة.

إن المدرس مازال يقول للطالب إن الشعر الحقيقي هو شعر زهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وأبي تمام والمتنبي، فكيف يقتنع الطالب المسكين بأن محمد الماغوط شاعرٌ يعبّر عن زمانه العربي الراهن ويخترق حجب الأزمنة كما فعل المتنبي وامرؤ القيس؟

المشكلة كامنة في تربية الذائقة، في توجيهها وجهةً محددة وإرغامها على رفض الجديد وعدم الدخول في الزمان الجديد. لكن هذا التوجيه المعاكس لرياح العصر، الذي يجعل الشباب في حيرة من أمرهم عندما يشاهدون كل هذه التحولات في العلم والمعرفة والتكنولوجيا وطرائق العيش، في الوقت الذي يطلب منهم أن يتجمدوا عند ما أنجزه الأسلاف من شعر. إن الحل الأسهل بالنسبة إليهم هو أن يديروا ظهورهم للشعر كله، ما داموا لم يعطوا مفاتيح قراءته.

ناقد ومترجم أردني

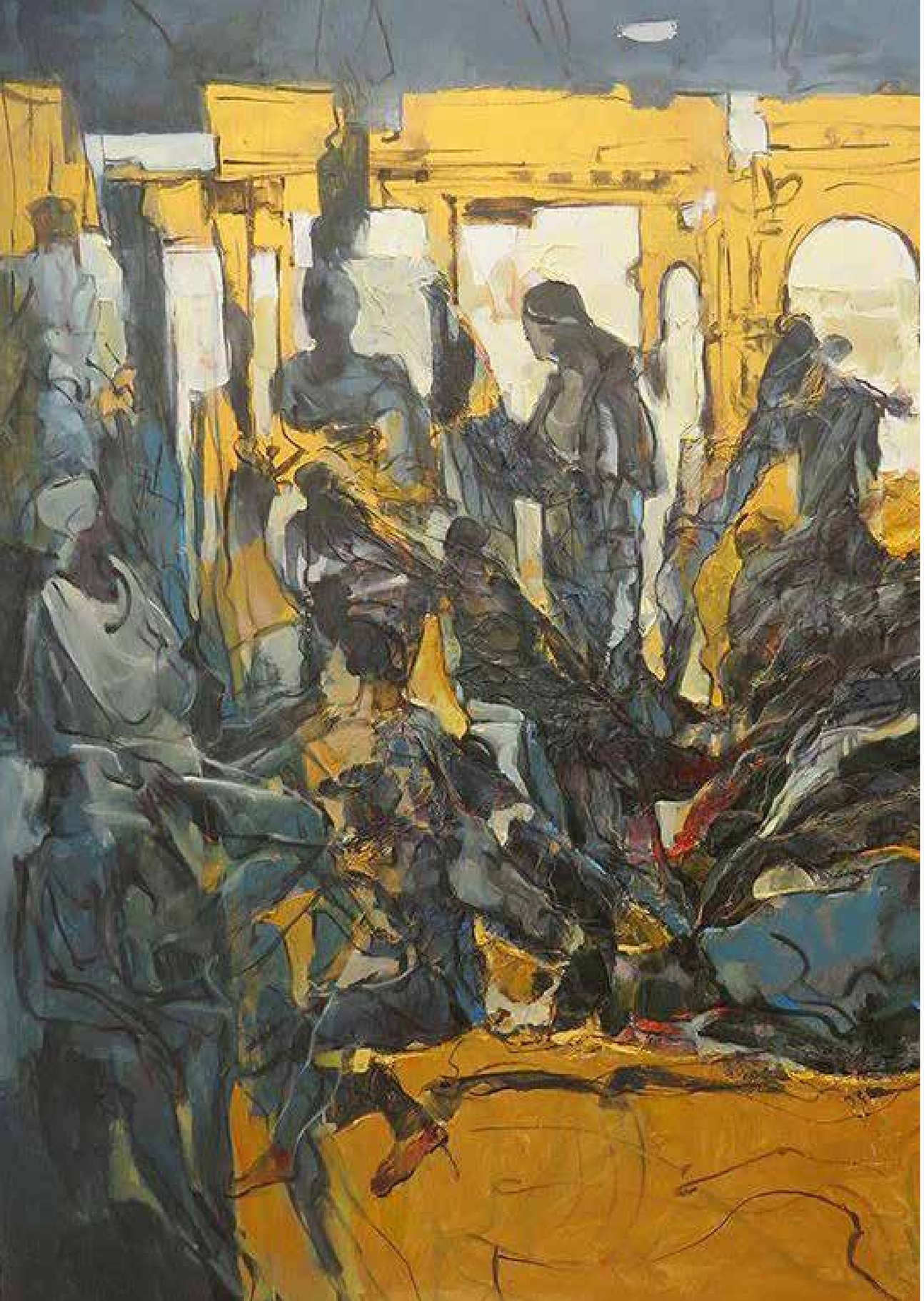

شفق العبّي

مقال

في البدء كان الارتحال

رحالة ليبية منسية

فاطمة غندور

لم يكف منظرو الفلسفة والاجتماع متأملين في مقاربة "الإنسان" وتقابله مع من قاسمه العيش المشترك ومن محيطه الأقرب، فوفق معطيات وتعليلات، تبريرية مُقرنة، جرى وصف أنه حيوان ناطق / مكاني / اجتماعي/ سياسي (أرسطو)، حيوان رامز (كاسيرار)، وحيوان مدني بالطبع (ابن خلدون)، حيوان أيدولوجي (نيتشه)، حيوان ميتافيزيقي (شوبنهاور)، فهل يُجاز لنا أن نضيف (حيوان رحلي)، كون الخصيصة البشرية في التنقل من مكان إلى آخر كانت عنوانه وديدن عيشه الحياة، توازى الإنسان مع الحيوان مرتحلا بحثا عمّا يسد رمقه كلأ ومرعى، فهل كان الإنسان حيوانا مرتحلا قبل أن يصير الناطق، الاجتماعي، الرامز، المدني، الأيديولوجي، وغير ذلك. وهل لنا نفي أنه في ترحاله القريب والبعيد شكل خبراته، وتكشف معارفه، ووجهها كلما أشبع حواسه بما حوله من الطبيعة، وتواصل مع صنوه الإنسان تارة صديقا، وتارة عدوا يصارعه على المرعى، والأنثى.

التدوين، فصل ذلك "الترحال" العام، عن الترحال الخاص، العام مبتدأ فعل البشرية، الخاص الذي هو قرار بمحض الإرادة للمرتحل / الرحالة، في إحالة لما سيسمى تصنيفا أدب رحلات، وهو أيضا سيشهد تصنيفا أو تمييزا نوعيا، كأن نشير بتوصيف السندباد للرحالة (الأسطوري) شاهد الأعاجيب والخوارق الطالع من سيرة ألف ليلة وليلة، كما من فم المارد، والحوت الأزرق، فيما يصير توصيف ابن بطوطة (المغربي) لرأي العين، والانطباعات ذات الموثوقية، حتى وإن أخطأت تأويل مشاهداتها، ابن بطوطة من سيكتب أن زوجته الهندية رفضت الرحلة معه فطلقها بعد عِشرة ثماني سنوات في بلدها، لكنهُ يحيطها ويحيطنا بزوجات مرتحلات لا يفارقن أزواجهن عند السفر.

الرّحالة المشافهة

عني التراث العربي والعالمي بأدبيات الرحلة والرحالة، وهيمنت مدونات الرحالة الرجل، وغابت الرّحالة، فيما جرى تعليله بأن الأنثى / المرأة كائن ينحو الى الاستقرار، وهي الأصل في ذلك مع مبتدأ مجتمعات رعوية وزراعية، هو يرحل، وهي تستقر، ووسمت بالأرض، والوطن، والبذرة والحاضنة، وأنها الأصل في خلق ودوام الحياة بالمكان، غير أن ما يلفت الانتباه، ويطرح السؤال، لما أشيع أن المرتحل ذكر منفرد دوما؟ ألم ترافقه امرأته؟ على ذلك هي قسيمه في رحله أينما حل، الانتقال من مكان إلى آخر ظاهرة حياتية ظلت عنوانا لمجتمع البداوة، فهل انحازت هي للشفاهي فكانت الساردة (الراوية)، وصار هو المدون، فحفظت لنا تلك المخطوطات والرقن، وذرت الرياح ما باحت به شفاهن، أليست شهرزاد الحكاية مرتحلة ببقاع بغداد، والهند، ومصر، وتجيد وصف أناسها كما ميزاتها عمرانا وثراء وأعاجيب للناظر، هو إذن في جانب منه صراع الشفاهي (الأنوثة)، مع الكتابي (الذكورة)، إلى أن يحط على الورق كضمان ومصداقية لأيّ أرث يتوارث، المرتحل الذي يدخل إضبارة التاريخ وذاكرته، من يدون ويُعلم الآخرين، ومن ارتحل وسكن لن يُعترف برحله، النساء ضمن هذه المعايرة والقياس.

ولعل الباحث في مدونة الرحلات لن يعدم بالقطع وجود المرأة في مدونات الرحالة خاصة ما تعلق بأدائها شعائر الحج كسيرة رحلة السيدة عائشة ورفيقاتها، أو رحل المهمة والدور السياسي كالحاكمة قوت القلوب، وهي تغادر مصر إلى بغداد، وفي العصر الحديث تبرز سالمة بنت سعيد بن سلطان الأميرة (البرنسيس إميلي روث) التي تزوجت ألمانيا، وكتبت "مذكرات أميرة عربية" في عرض ليوميات ترحالها من زنجبار، إلى إسبانيا، ثم ألمانيا ولندن.

تاء التأنيث تجوبُ ليبيا

في المدونة الرحلية عن ليبيا تحضر الرّحالات في زمن بين قرنين، ولعل اللافت فيما أتيح مما ترجم ولم يترجم، أنهن رحالات مُرافقات أو قريبات، ممن عملوا بسلك دبلوماسي سياسي، نموذجهن أقدمه، وأشهره أيضا، كمرجعية عن جغرافيا محددة هي مدينة طرابلس وضواحيها، "مس توللي" وهي شقيقة القنصل الإنجليزي ريتشارد توللي الذي مارس عمله في ولاية طرابلس، كتابها «عشر سنوات في إيالة طرابلس 1773 - 1783»، بمتنه الذي يقارب الخمسمئة صفحة، يمثل مخزونا أنثربولوجيا، سوسيولوجيا، وكشفا

شفيق اشتي

لمسكوت عنه، إذ وثّقت لأحداث ووقائع هي تفاصيل حكايا صراع بلاط القصر للأسرة القرهمانلي، الولاة من حكموا على التوالي حسن، أحمد، يوسف ووالدتهم للآحلومة، وعلاقتهم بزوجاتهم، وعالم الجواري وخدورهن، "توللي" عايشت عادات وتقاليد، ومناسبات المكان أفراحا وأحزانا، وسجلت رصدها لأمراض أضرت الحرث والنسل، وسلوكيات أفراد السلطة، ورجل الشارع، ونساء المدينة القديمة.

أما مدونة رحلة الهولندية السيدة فان فرجيل "ست سنوات في طرابلس على الساحل المغاربي (1827 - 1833) فسيتكفل زوج ابنتها القس بيرك بجمع ونشر ما وثقته في إقامتها رفقة زوجها الدبلوماسي، القنصل الهولندي بطرابلس كليفورد كوك بروجيل، يوميات الأحداث الموصوفة بقلمها تدور نهاية العهد القرهمانلي، وبداية العهد العثماني الثاني، وما تضيفه فإن الهولندية عن مس توللي الإنجليزية، نشرها لتفاصيل العلاقة السياسية بين القناصل الأوروبيين والقصر الحاكم، وأدوار سفارات الدول وتنافسها في مسار تلك العلاقات، ولعل ذلك بسبب مقاربتها لوقائع مست سياسات المرحلة الانتقالية بين عهدين.

رحالة الصحراء الأولى أوروبيا كامرأة، الكاتبة الإنجليزية روزيتا فوربس (1890 - 1967) والتي حظي كتابها الأول "سر الصحراء الكبرى: الكفرة " جنوب شرق ليبيا (1920 - 1921) بأكثر من ترجمة، كان أول رَحْلِها مع زوجها الى الهند وأستراليا، وبعد انفصالها عنه (1917) خططت للسفر على ظهر جمل، فاتحة عينها على وجهة أخرى الصحراء الكبرى، مرافقة للرحالة المصري أحمد حسانين باشا، وهي من شهدت أن لأهل الصحراء كرما مفارقا، نموذج ذلك ما درجه ساكنوها على منح فراش النوم، رفقة الطعام، والشاي، لكل ضيف عابر أو مقيم، ستعتني روزيتا بتدوين العادات والتقاليد، والأطعمة، والملابس التي ستنتقي زيا منها، وتصير أشهر صورها التي تُعرّف العالمَ بها لتبدو كامرأة عربية، وفي صورها ما يدلل على اندماجها في المحيط، وعيشها الواقع بما هو عليه، فما أعجبها أولا مفردات تعلمت نطقها وحفظتها وردتها: تفضل، وكيف حالك، طيب،.. روزيتا ستنطلق مرتحلة وكأنها تحقق مشروع حياتها كرحالة في بلدان أفريقية، وآسيوية وأميركية، وستتوالى كتبها مضمنة سيرة رحلاتها تباعا، وستنجز كتابا مختصا عن قصص نساء قابلتهن في مجموع رحلاتها، وستعنونه " نساء يُدعين جامحات"، وفي أثرها معادل لهن.

وكنت في دراسة أنثربولوجية عن واحة صحراوية بجنوب ليبيا (براك / الشاطي) طالعتُ كتابا بالإيطالية (إلى فزّان) صدر عام 1932 م، لرحالة جابت واحات متعددة والتقطت صورا مثلت نوادر ما التقط لتلك الجغرافيا، بل وتتفوق بكادرها، عنايةً مشهديةً فرجوية قياسا برحالة عبروا ليبيا مع مبتدأ القرن العشرين لم يهتموا كثيرا بالصورة، وثقت ذلك الإيطالية أونورينا بتروتشي زوجة الضباط الإيطالي الموظف بالقلعة العسكرية الجنوبية إبّان الاستعمار الإيطالي، ستنزل معه بقلعة براك / الشاطئ المركز الإداري لشريط واحات الجنوب، ثم تركب حصانها وتسوح الواحات (صحراء جنوب غرب) واحةً واحة، ومنها: آقار، برقن، براك، أدري، وما ميز كتابها والذي لم يترجم إلى العربية إلى يومنا هذا، هو كمّ الصور التي حفظت لأجيال لاحقة مناظر لم يعد لها أثر، ورحل معاصروها، كعيون الماء الجوفية

وكثافة غابات النخيل وأماكن تعليم الأطفال وهي غرفة ملاصقة للجامع، كما أظهرت نساء خرجن مترافقات يحملن حطبا على رؤوسهن يتحركن بحرية في مساحة واسعة من المكان، وصورهن تظهر ملامحهن بوضوح، حين قمت بترجمة بعض من صفحات الكتاب، لفتتني الكتابة الشاعرية التي وصفت بها ليل الواحة وخرير المياه العذبة، بل إنها كتبت عن اكتشافها لما لم تعرفه قبلا "أن للضفادع إذا ما تجمعت معزوفتها التي تؤنس وحدة قمر ليل الواحة"!.

رحلات الرائدات الليبيات

مفردة الهجرة رحلة وعودة، خصيصةٌ ستجعل من المهاجرات الليبيات رفقة عوائلهن هربا من الفاشية الإيطالية مع مطلع القرن العشرين، علامة تاريخية فارقة لمن برزن كفاعلات في تاريخ نهضة النساء، إذ سيرجعن مؤهلات بالشهادات المتوسطة والعليا من بلدان أتيحت فيها فرص التعلم عندما كانت ليبيا ترزح تحت احتلال إيطالي في العقد الأول من القرن العشرين، جغرافيتها ساحة معتقلات، وإعدام صوري جماعي، ونفي إلى جزر إيطالية وقد مات أغلبهم في البحر، المرتحلات العائدات، الرائدات، كنّ مؤسسات وداعيات لولوج أبواب العلم والمعرفة، والعمل المتخصص، والمجتمع الأهلي والمدني، المعلمة جميلة الأزمرلي، والممثلة المسرحية سعاد الحداد عادتا من دمشق، صالحة ظافر من المدينة المنورة، ثم روما، تسنى السفر أيضا لبعض من الليبيات في مدن المراكز للدراسة والعمل، ففي عام 1912 كانت الشابة حميدة العنيزي قد التحقت من بنغازي بمعهد المعلمات المسلمات بتركيا قاطعة رحلة مخرت عباب البحر مع والدها، لكن سفرها اللاحق مترددة على مصر في الأربعينات ستقطعه وحيدة، وفي إحداها ستجلب معلمات لأول مدرسة رسمية للبنات عقب الحرب العالمية الثانية (1946م)، وفي ذات هذا العقد ستقفل فتحية عاشور عائدة من جامعة القاهرة بشهادة في اللغة والأدب الإنجليزي ما سيؤهلها بجدارة لتصير أول مديرة لمدرسة بقلب مدينة درنة (شرق ليبيا)، والتي سيذكرها المؤرخ اللبناني نقولا زيادة في رسائل لزوجته مضمنة بكتابه "رسائل من برقة" (برقة الولاية التي عمل بها نائب مدير المعارف). ولن ننسى رباب أدهم، وماجدة المبروك اللتين كانت وجهتهما الجامعة الأميركية في بيروت (1958، 1959م)، وستدون رباب سيرتها ورحلها التعليمي والحياتي في كتابها (دروب في الحياة - 2012) فهي ابنة المرتحلين أبا عن جد، ولها منه نصيب ولادة، ونشأة، وسني شبابها، من إسطنبول إلى سوريا، ثم الأردن، فبيروت، فمصر وإيطاليا.

رحالة منسية

لكن الرحالة المدونة منتصف القرن المنصرم "خديجة عبد القادر الشريف"، أصيلة طرابلس القديمة، الشابة العشرينية، من ستركب طائرة إلى القاهرة مفردة في أول ترحالها عام 1956م، كان محيطها ينظر للمرأة بعين الريبة وكيل التهم، فمع أول عقد استقلال البلاد بجهود واعتراف دوليين، ومعافرة آباء مؤسسين، بأن لا رجعة دون وطن موحد الولايات، ومتخلص من هيمنة إدارية استعمارية، حاذتها أوضاع مخلخلة هشة هي ارتدادات، نتاجها شعب تقاذفه المرض والجوع والفقر والأمية، وفي رصد لعدد المتعلمين من الذكور في خمسينات أول الاستقلال (1951) عُدوا بضعة عشرات نتاج مدارس محلية وتعليم إيطالي، ولن تعرف ليبيا مؤسسة "الجامعة" حتى مضيّ سنوات من استقلالها.

خديجة ولدت عام 1938م ببيت كان يقطنه وال عثماني قبل قرن من ولادتها فيه برحاب المدينة القديمة، والدها التاجر عبدالقادر الشريف، ووالدتها "فاطمة "، تيمة أشعار ابنها الشاعر المجدد الحداثوي الموسوم في مدونة بيبلوغرافيا الشعراء الليبيين، بشاعر الحب، والشباب، والوردة الحمراء، علي صدقي (اسمه مركب)، المناضل والمحامي، وشخصيته كما شعره أثارا جدلا فهو من حاملي مشعل الخلود وأن لا فناء لشاعر، وهو الذي بدعمه ودفعه بل إيمانه بقضية تحرر المرأة من ربقة التقاليد والعزلة سيجعل من أختيه (زينب، وخديجة)، ثم ابنتيه (أحلام، وتماضر) نماذج ريادية في مجالات العلم والأدب والعمل المدني.

إلى المنوفية مع الفلاحات

تقدم خديجة مسرودها عن رحلتها التعليمية الأولى إلى مصر، في كتابها "المرأة والريف في ليبيا"، وقد جاءت مقدمة الكتاب إهداء من مدير المعهد مصطفى سعيد قدري الذي سينوه فيه بشخصيتها المجدة والمثابرة، كما وسيثني على جعل أطروحتها كتابا بكرا في بلدها حول تنمية المجتمع متخصصة في أوضاع المرأة الريفية. وفي خارطة الكتاب أنه فصلان، الفصل الأول سيحوي سيرة الرحلة الدراسية التي أوفدت لها خديجة المعلمة التي تواصل دراستها العليا، أول الصفحة ستحكي لنا عن هواجسها أول ركوبها الطائرة وحيدة، وما يدور في رأسها من أفكار، وما يعتمل في نفسها من رهبة وتردد، لكنها تستقر على أمرها خارقة كل الحواجز النفسية كونها صاحبة مشروع ورائدة فيه، ولن تخيب أمل طالبات علمتهن في المدرسة الابتدائية، ولا من جالستهن في المكتبة حين أدارتها، فتكتب "سمعتها تهيب بي بحرارة، طالبة مني أن أردد صوتها، وأروي قصتها وأتحدث عن قضيتها.. لذلك اتخذتُ من رسالتي هذه صدى لصوتها ومن حقها عليّ، وهي أختي أن أجعل من رسالتها رسالتي"، ستجعل أطروحتها عن نساء مهمّشات، وقد أُتيح لها وضمن ما كان مقرراً من منهج نظري في معهد تنمية المجتمع، وتطبيقي تمثل في الزيارات المُكثفة داخل مصر، والتي شملت القرى الفلاحية النموذجية، ومقاربة لعلاقة الفلاحات بالأرض، ومستخدمة مفردات المكان في كتابها تشير الى الترعة والجاموسة وأكواز القصب، كما وتعرض مشاريع الحكومة المصرية لمساعدتهن وكيفية العناية بحقوقهن كمنتجات يتقاسمن ظروف العمل مع أزواجهن وأبنائهن، وتشير خديجة إلى أن الدروس العلمية العملية تطلبت السفر بحراً إلى بلاد مختلفة، فقد زارت اليونان ويوغسلافيا وإيطاليا، ولامست عن قرب تنوع تلك المجتمعات جغرافياً وأثنيا، وقد سجلت معايشتها المقتضبة لكثير من الأحداث والمواقف المتنوعة بل والمتناقضة أحياناً!

خديجة في بلاد العجائب

إلى إنجلترا ستشد الرحال في اغترابها الثاني (1961 - 1962)، وستدونها تحت عنوان "انطباعات ليبية في بلاد التقاليد والثلج والضباب"، في سلسلة مقالات نشرتها فور عودتها من لندن بالجريدة اليومية طرابلس الغرب. لا تتمركز عين خديجة فقط في المكان والمعالم التي زارتها من كنائس ومتاحف وميادين ومسارح وسينما وحدائق شهيرة ومدينة شكسبير(سترات فوردان أفن) أو كما اعتدنا في مدون الرّحل، بل تقارب شخصيات تتعاطى معها في يومها وتصف سلوكها أو علاقتها معها، من بائع الجريدة في الكشك حين تنزل من سكنها، إلى بيت الطالبات وزميلاتها تشكيلة من جنسيات العالم الملايو وأندونيسيا وإيران وتركيا وأميركا، وتسرد لنا حكاية تعرّفها على الأميرة عائشة ابنة ملك المغرب الراحل محمد الخامس بالمركز الثقافي الإسلامي بلندن في التجمع العربي الإسلامي في حفل عيد الفطر.

وتخفف من دسامة معروضها عن معالم المكان بطرائف تلتقطها مُذ نزلت أول يوم لها ببيت الأسرة التي ستقيم عندها في "أكسترا"، إذ حدثتها ربة البيت عن كلبها الذي مات وخصاله النادرة التي لم تجتمع في كلب غيره - كما تقول - وأنه ينحدر من أسلافه المعروفين العريقين في النسب، وتجمع لنا طرائف متبادلة بين الإنجليز والأسكتلنديين والفرنسيين.

ومن ضمن يومياتها خروجها إلى "الميدان الأغر" متتبعة مسيرة شعبية يتقدمها الفيلسوف المفكر "برتراند راسل" في دعوته وأنصاره من الطبقات الشعبية إلى السلام ووقف الحروب، وتضع عنوانا "بريطانيا تسجن السلام حين تعاقب راسل"، ومما كتبت "...وسجنت بريطانيا السلام، ووجد الفيلسوف نفسه في سجنه حراً، كما لم يكن حراً من قبل، واتسعت جدرانه، لتحتضن كلمات الناس الطيبين الذين انهالت برقياتهم عليه، بعد أن أذابت أقفال الحديد والأسوار العالية، لتستقر بين يديه كحكايات حرة تتحدى أسوار السجن والسجان".

وتصف بإعجاب تقسيم الوقت عند المرأة الإنجليزية بين عملها وبيتها ونصيبها في المطالعة والدرس من أجل الثقافة العامة، وهي لا تنسي أيضا الترفيه عن نفسها. لكن خديجة تنتقد نظرة شمولية حملها الإنجليز والغرب عموما عن البلاد العربية جازمين أنها صحراوية لا تنبت شيئا، "تتجول النمور والأسود والفيلة في مدنها، وتعيش مع الإنسان العربي بموجب معاهدة غير مكتوبة، وأن العرب أميون!".

ومن حديقة الهايد بارك تنقل لنا قصص عدة، حيث الخطباء والفرق الموسيقية والمشاهد الغريبة والرقصات والأغنيات الفولكلورية، منهم حملة الرأي الصادحون بمسكوتهم أحد كل أسبوع، المنتقدون للحكومة ووزرائها، وعندها أن لندن عاصمة المفارقات التي تمد لسانها بوجهها الساخر، ففي الجريدة اليومية تقابلها صفحة إعلان لحانوتي يبيع توابيت الموتى وبجانبه صورة عارضة أزياء تعلن عن أجمل فستان لعروس الموسم تشق حياة جديدة به.

عامها في لندن جعلها تنخرط في نظام الطوابير من محطات الباص وأمام بوابات المحلات العامة في تحضيرات حفل رأس السنة، وتعلمت أن تنتظر دورها من غير ضجر أو تبرم، على أن تصحب كتاباً أو صحيفة أثناء انتظار دورها، فلا مفر الطابور هو كل شيء في حياة الإنجليز، وما تفتأ تشير إلى مدلولات الثلج والضباب والتقاليد من جمود وصلادة في مجتمع الإنجليز، كونهم على استعداد لأن يخالفوا العالم كله في أي نظام إن وجدوه يغير من عاداتهم وتقاليدهم.

المطالع ليوميات ليبية في بلاد الإنجليز لا يعدم الانتباه إلى وعي خديجة بالمسألة النسوية، فهي تحمل هموم المرأة منشغلة بقضاياها، بقلب لندن ستحاضر عن المرأة ودورها في ليبيا في جمعية التاج النسائية، وقد منحتها مسؤولة الجمعية توسيما كعضو شرف، وقد علموا بنشاطاتها النسوية في طرابلس، وستجري معها مقابلة محطتا "بي بي سي" العربية والإنجليزية، وحوارا مع جريدة صن داي، وعن بروز وعيها وموقفها القومي ما عبرت عنه حين دعت صديقتها الإنجليزية لمرافقتها إلى المؤتمر العربي المنعقد في 13- 5 - 1962م بمدينة لندن من أجل فلسطين، والذي شارك فيه الطلاب العرب وسفراء الدول العربية في بريطانيا والجاليات العربية والإسلامية هناك، كما حضره مناصرو القضية الفلسطينية من الإنجليز وغيرهم. وتستوقفها ظاهرة سنوية وهي هدية شجرة عيد الميلاد من الدنمارك الى إنجلترا، ما يجعلها تدعو إلى ما أسمته تبادل "الرمز الأخضر" كعربون وعنوان سلام بين البلدان العربية، مقترحة أن يكون حفنة تراب من بقعة معركة ونضال، أو شجرة يجري غرسها، أو أثر تاريخي.

***

في كتابها "السير الذاتية النسائية في الأدب المعاصر" تضع الباحثة السعودية أمل التميمي هامشا تشير فيه الى خديجة عبدالقادر، وعن مطالعتها ليوميات ليبية في بلاد الإنجليز في كتاب "رحلة القلم النسائي الليبي" للباحثة الأديبة والأستاذة الجامعية شريفة القيادي، وكنت أثناء انشغالي بجمع حلقات يومياتها ببريطانيا من جريدة طرابلس الغرب، لإصدارها في كتاب كأول أدب رحلات تنتجه كاتبة ليبية، اتفقتْ مع إشارتها، أن في منتج خديجة ملامح من سيرة ذاتية إذ تكتب ذاتها الناهضة، ورأيها في قضايا بلادها بعامة والمرأة بخاصة.

كاتبة وباحثة ليبي

محمد اسباعم

قص

أين البرتقالة

ست قصص موريتانية

مريم حمود

مسرحيّة بالمجّان

لا أعرف إن كانوا يدركون حقيقتهم بشكل تام أو لا، إذ يبدو ارتباطهم مع هذا العالم موؤودًا، مثل حبال مهترئة، ولا أعرف أيضًا متى سينظرون إلى الأعلى ليعوا حقيقة ما تبقّى لهم من وقت.

سرياليّون إلى أبعد حد، أرقبهم في الصّباح الباكر من شرفتي حين يمشون، يبدو بعضهم كمن سُرقت أقدامه، بعضهم الآخر فُقدت آذانه، في حين يملك آخرون بدلًا من الأذن الواحدة والقدمين الاثنتين، ثلاثًا وأربعًا وخمسًا.

البعض رأسه يتخذ شكلًا مخيفًا كما أفكاره، آخرون تعوزهم الملامح أو تتضاعف فيهم، دواخلهم تسيل.. تتجاوزهم وتتجاوز الواقع كلّه معهم. قد لا أملك تفسيرًا لكنّي مع ذلك أستلطف الأمر حين أفكر في أنّه لا يجاوز مسرحيّةً أحضرها دون أن أدفع ولا حتّى قرشًا واحدًا.

أجلس هنا في هذا الركن منذ سنين، بينما ينبح كلب غريب في الجوار؛ لا يلبث أن يرد عليه آخر في الركن المقابل، ليستمرا بشكل أبدي.

في الآن ذاته تمر جماعة من ذلك الصّنف الأوّل، مآقيهم تملؤها الشمس حرارةً، خطواتهم دافئة وأيديهم ترتعد، بوجوههم النحيلة يلوّحون للريح كمن يأبى أو يرفض، لكنه يخشى شبحًا سيخرج من العدم في كلّ لحظة، عيونهم باردة مملوءة بشظايا ندمٍ يلتمع، يسابقون بعضهم بانتظام لا يلبث أن يتزعزع لأنّ يدًا ما تمطّ ثياب أحدهم، وهذا الأخير يلتفت نحو المسكين وراءه.. أراه إذ يلكمه، إنّه لا يبدي أيّ ردةِ فعل، لا يعلّق، بل يستمر في مشيته الموبوءة، كما يفعل الكلبان اللّذان يتبعانهم.

في لحظات غير معلنة، تظهر الشمس مجدّدًا، ليخترق شعاعها أبصار الجميع سواي، فما زلت هنا، في ركني البعيد، أطالعهم.. بينما أقشّر برتقالةً وأبتسم، لكنّه الصوت ذاته، يأتي مجدّدًا، يزمجر خلفنا، بيد أنّي لا أبالي، ثمة ما يعنيني أمره أكثر؛ البرتقالة.

ينطلق ذوو الوجوه النحيلة بسرعة أكبر، يحجّون لا يقصدون سوى الفرار، (أينُهم) هارب.. ويسيل لعابهم، يسيل.. ها قد بلغت البرتقالة فمي، لكنّ يدًا أخرى تمتدّ. إصبع رخوة دبقة تدقّ كتفي اليسرى لتخبرني أنها اللحظة: لالتقاط هذه الاستعارة.

أين البرتقالة؟

محاولة

أصابتنا السيول، اقتلعت قطعَ الصفيح والكرتون التي يسميها بيتًا ولم يبرح مكانه، جاء الصيف، ولم يتحرك شبرًا، الجراد اكتسح الأرض وما زال ساكنًا متخشبًا حيث هو، ريح هوجاء، عواصف وبرد قارس، كل ذلك لم يدفعه للتّحرك ولو شبرًا واحدًا.

غيث، الذي لم يجد أحدًا يغيثه، مغترب بين أهله، انقسم ساكنو البلدة بين مدّع أنه مجنون فاقد لصوابه، ومؤمن أنه نصاب محتال يبحث عن طريقة لتأمين قوته.

لم أكن مؤمنًا بأيّ من تفسيراتهم، وما كان من شأني أن أؤمن، وما كان إيماني هذا ليشكل أيّ فرق في حياة غيث، أنا فقط كنت موقنًا أن له قصته وتفسيره، له دوافعه التي ليس من شأن أيّ كان سؤاله عنها، وليس هو بمطالب أن يثبتها.

قبل أسبوع مررت به كما في كل يوم، كان جالسًا في زقاقه قرب الرصيف المجاور لبيتنا، صحنٌ وبعض القطع النقدية على جانبه، لم يكن غيث ذاك الذي عرفته، كان غيثًا جديدًا، وكأن الكون محشور في عينيه. عينان شاخصتان تسعان كل ضالة، كان وجهه رهابًا يستفرغ الحشود. وقفت وخيّل إليّ في لحظة أن عزرائيل كان فوق رأسه، غادرني الصمت، ولأول مرة أشعر بأن الكلمات تغريني، فقلت له بتوجُّس مر:

- هل أنت بخير؟
- من أنت ومن خير!
- أعني أتحتاج شيئًا؟
- وهل للميت حاجة!
- طبعًا!
- وما حاجته؟
- أن يدفن مثلًا.

- إذن افعلها.

الحق أني لا أعرف ما كان القصد من أسئلته، ولا حتى ما كان معنى أجوبتي، كنت أبتذلها، محاولًا حثه على استكمال الحديث، فقد بدت لي طريقة كلامه ميتة غريبة، ولا أنكر أني أصبت بالفضول.

أكملت طريقي وصدى كلماته يتعاقب مترددًا ألوف المرات في جمجمتي، وطوال أربعة أيام متتالية وأنا أكرر السؤال نفسه ضمنيًّا كل صباح "هل تحتاج شيئًا؟ بمَ أساعدك! هل يسعني أن أخدمك؟ أمن شيءٍ تحتاجه؟" ويأتيني الرد نفسه، "وهل للميت حاجة! وهل للميت حاجة! وهل للميت حاجة! وهل للميت حاجة!"

فكرت طويلًا وأيقنت، غيث إنسان ملَّ من حياته، يريد الموت ولا يجرؤ عليه، وأنا إنسان يتمنى أن ينجز شيئًا في مسيرته، أعني أننا نكمل بعضنا، ولم لا؟ أحقق له حلمه، أريحه من عيشه الذي صار ثقيلًا عليه، وأريح فكري من منظر عينيه الشاخصتين كل صباح، أقتل حشدًا كاملًا بقتل فرد، وبهذا أنقذه وأنقذ الحشد.

في اليوم السادس وبعد أن أنهيت عملي توجهت عصرًا إلى محل الأثاث الخاص بجاري، اشتريت منه قطعة خشب ومطرقةً ومفكًا، على اتفاق أن أدفع له الشهر المقبل - والحق أني لن أفعل - كان عندي المال، لكني لم أشأ أن أدفع له، فالخشبة ليست لي.

استعرت مجرفة من عند جاري الثاني - لا بد أن أستغل هذا الجوار - عندما انتصف الليل كنت قد أنهيت حفر القبر، وبالمطرقة والمفك نحتُّ على الخشبة "وهل للميت حاجة؟" وضعتها هناك عند مقدم القبر لتكون شاهدًا، ثم نقلت غيثًا إلى قبره، كان الأمر أيسر مما ظننت، وقد ساعدني هيكله الضئيل في تلك المهمة.

الآن غيث في قبره، بدأت أهيل التراب عليه، لم يرف له جفن، ألقيت بها بيديَّ، كتجربة، حفنة، حفنتان، ثلاث، ثم أمسكت بالمجرفة وبدأت مواراته في التراب، كنت أحسب عدد المرات التي أرمي فيها بالتراب عليه، في المرة الرابعة التي حركت فيها المجرفة سمعته يعطس، ثم يكح، تابعت إلقاء التراب، وفي لحظة أحسست أن وجهي مُسَّ بسقر، كانت كفه قد انطبعت على وجهي، ثم بدأ يركض متخبطًا بعد أن قفز خارجًا من قبره، أكمل يركض، يعطس ويكح، يكح ويعطس، ثم اختفى في آخر الزقاق. ناديته فلم يجب، كرّرت ندائي مرّاتٍ ومرّات، دون جدوى، بينما ظلَّ القبر أمامي مرحِّبًا.. فاغرًا فاه مثل حوتٍ.

ما زال يركض

لم يكن عاديًا كان مختلفًا جدًا؛ إذ لم يسبق أن مشى في الطريق، الطريق كان يمشي به، يأخذه حيث يريد أو يرغب. ظله كان دائمًا سابقًا له بخطوة، وقد كان هذا أمرًا جيدًا، فهو درعه الحافظة الأمينة، يحميه من فاجعة الأوان، أو الوقوع في هوة المستقبل.

كان حذرًا جدًا، وهو أمر لم يكن ليفيده أبدًا، فقد استيقظ اليوم ليجد المأساة ملتصقةً بوجهه، صرخ، لكنه لم يسمع لصراخه أيّ صوت، صرخ مرارًا لكنْ دون صوت ودون فائدة.

تساءل كثيرًا في نفسه عن الذي يحدث؟ رغب في أن يشارك الأمر مع أحد، أمسك بالهاتف، ضغط الأرقام، وأرسل الخط، رن مرتين، فقطعه! استدرك أن أحدًا لا يفهمه.

أحدٌ لم يفهمه عندما كان طبيعيًا ويشتكي أمورًا تحدث مع الجميع، فكيف إذا اشتكى مما يصنف خارجًا عن العادة والمألوف!

تساءل في نفسه، هل ضاقت الأرض بالمأساة لتلتصق بوجهه؟ لماذا لم تختبئ في داخله، قد يبدو الأمر منطقيًا نوعًا ما، لكن ليس بوجهه!

كان متوجسًا، وبدأ دفق الأسئلة يزلزل ما بقي ساكنًا من ذهن يفترض أن جمجمته تحتويه:

- ما به وجهك؟
- تبدو غريبًا جدًا اليوم!
- هل نمت البارحة؟
- أنت لم تتناول إفطارك؟
- هل حرارتك مرتفعة!
- من ضربك؟

لم يرغب في سماع أسئلتهم، لقد ملّ الكذب، بودّه لو يخبرهم أنها المأساة جاثمة تسكن وجهه، لكنه موقن أنهم سيجتمعون على جنونه.

استخدم الماء البارد ثم الساخن، أضاف الملح فرك وجهه بالمنشفة، حاول أن يجتثها بيديه. كلّ ذلك دون جدوى.. وهكذا قرر نسيان الأمر، بل والتعامل معه كأن لم يكن، ارتدى ثيابه، وانطلق خارجًا لا يعلم إلى أين، إنما إلى الخارج، أليس هو الذي يمشي به الطريق؟

وقف عند باب المنزل لكنَّ الطريق لم يتحرك به، مشى خطوتين ليصبح في منتصف الشارع ولم يحدث شيء، غير أن سيارةً كادت تدهسه، أيعقل أنه صار عاديًا؟ نظر نحو ظله فوجد أنه منه بمسافة عادية كالمسافة التي يظهر عندها الظل في تمام السابعة صباحًا، والشمس لتوّها منذ دقائق قد أشرقت، أي أن ظله لم يعد سابقًا له "يا للخيبة" قال في نفسه، امتلأت عيانه ألماً، ومضى ماشيًا نحو اللّاتّجاه، كم كانت روحه موجوعةً حينها، حاول مرة ثانية أن يصرخ لكن مجددًا دون فائدة.

سمع صوتًا أشبه بالركض، اتجه بوجهه نحو مصدر الصوت، كان عند ظهره، هناك رأى ظله يركض بعيدًا، ولا إراديًا بدأ بالركض خلفه والصراخ، لكنّ ذلك ما كان ليجدي!

حين يتركك ظلك لا تفكر في أنه سيعود، وحين ينساك صوتك لا تحاول استعادته، هي الأشياء هكذا تحدث. في لحظةٍ ما تستقلّ، وهو أمر يجعلها ليست من شأنك، وإن كان قد حدث أن كانت كذلك.

إنه يركض.. ما زال يركض.

وداعًا

لقد قتلوني منذ يومين، لكن ما زال بوسعي أن أتحدث.

قبل شهر بالتمام جاء مالك البناية التي أسكن فيها، طرق الباب مرتين، وحين نظرت من العين الصغيرة علمت أنه هو، لم أشأ أن أفتح له؛ لعلمي المسبق بالنهيق الذي سيتفضَّل به، لكن شاء الجدار أن أفعل، فحين أقفلتُ راجعًا إلى الأريكة التي كنت مستلقيًا عليها، تعمَّدَتْ حاشية الجدار أن تصطدم بقدمي، سَقَطْتُ جراء ذلك وبات واضحًا جدًا وجود شخص ما في الداخل، ومن غيري سيكون! فالكل يعرف، مورينو لا أصحاب له، ولا أهل، ولا حتى كلب.

"افتح الباب يا مورينو، لا يجب أن تضطرني لفعلٍ تندم عليه."

كنت مجبرًا كعادتي طبعًا، فمنذ ولدت وأنا مجبر، مجبر على وجودي، على عائلتي الفقيرة القبيحة، مجبر على بيت الصفيح في حي الخدم - سابقًا - مجبر على العمل مع تاجر المخدرات برونتو، مجبر على خيانة الإنسانية، وكسر القوانين، والأسوأ من هذا كلّه أني مجبر على فتح الباب لهذا الطويل الأصلع، ذي الكرش المترهل، حتى أذناي لم تسلما، فهما أول المجبرين.

فتحت الباب.

وبدأ هو:

"مورينو لقد طال الانتظار، أنت تسرقني كل يوم، وكل ساعة، منذ ثلاثة أسابيع وأنا أنتظر تسديد المبلغ المُستحق عليك، وهذه أطول مدة صبرتها على أحدهم من قبل، لديك مهلة أربع وعشرين ساعة، بعدها لا تسأل عن رأسك أين هو. أربع وعشرون ساعة فقط، ولا حتى ثانية إضافية."

أشاح بوجهه ثم كنت أرى ظهره، اختفى إلى اليسار، ثم سمعت صوت المصعد.

فورًا اتجهت نحو الحمام وغسلت أذنيَّ، رنَّ هاتفي، كان برونتو يتحدث:

"صفقة كبيرة تعال إلى الزقاق خلف المدرسة الابتدائية."

بسرعة شهاب ساقط - وأنا ساقط بطبعي - ارتديت سترتي البنية، أخرجت مسدسي من تحت الغسالة في المطبخ، دسسته في طرف بنطالي، صببت لي كوبًا من عصير البرتقال، الوصية الوحيدة من وصايا أمي التي التزمت بها، فقد كانت تقول إنّه مفيد جدًا ويُكسب الطاقة.

فور وصولي للزقاق كانت الأصفاد تجمع يديَّ لتعانقا بعضهما، المسدس الذي دسسته في طرف بنطالي هو الآخر صار في منتصف رأسي، على الأقل ما زال هناك شيء ممتع في الأمر، تحقق حلم طفولتي، أن تطاردني الشرطة وتمسك بي.

تسعةٌ وعشرون يومًا وأنا بين أربعة جدران، ثلاثة من طين، أما الرابع فمجموعة من القضبان، المكان مضاء بإنارة بيضاء تجعل الوقت كله واحدًا، لا نهار ولا ليل، بين فينة وأخرى أسمع ضحكات السقف، تذمر فتحة التهوية، صراخ حواشي البلاط، بكاء السرير، وشخير رخام المغسلة.

لم يتطلب الأمر كثيرًا، أيامٌ إضافيَّة أخرى وكنت مورينو مختلفًا وجديدًا، أقسمت على نفسي أن أسدد الدَّين لصاحب الشقة الذي أستأجر منه، أقسمت ألَّا أبيع المخدرات مجددًا أو أشتريها، أقسمت ألَّا أدخن، وألَّا أهزأ بالمتشردين الذين يقطنون الأزقة والأرصفة، عاهدت نفسي أن أصبح إنسانًا، أن أزرع شتلةً كل يوم، أن أزور قبر أمي شهريًا، وأن أبحث عن عمل شرعي.

لكن فات كل شيء، إنها اللحظة التي تسلك فيها الطريق الصحيح، بعد أن أصلحت فكرك، ورتبت هندامك، لكنَّ قطارًا من غمٍّ ينحرف عن مساره، فيدخل في طريقك الصحيح، متجهًا عكس سيرك ليصطدم بأمنياتك التي تركض قبلك، بأحلامك التي تتبعها، ثم بك أنت، تاركًا إياها وأنت في حالة من سكْرٍ فاتن، لا أنت ميت فتنعدم آلامك، ولا حتى حيٌّ فتعي واقعك.

بعد عشرين يومًا جاءني رجل ضخم الجثة، وجهه أحمر كمن صُفع لتوه، قال إن أمامي عشرة أيام، أكتب فيها وصيتي لأن حكم الشنق كُتب بحقي.

لم أعرف ما أصنع وإذ تخشبت لم يكن بوسع الأيام أن تفعل، لم أشعر بالزمان ومضيِّه لكنه كان يمضي.. تسعة أيامٍ من التجمد، يحضرون لي شيئًا يسمونه طعامًا فإذا عادوا وجدوه كما هو، يكلمونني فألتفت أنظر إلى رقابهم، لا أنظر في وجوههم، بعينين ذاهلتين أنظر! وصورة رأسي زائغًا، وعيناي معصوبتان، وجسدي المتدلي من أعلى تحكم كل تفكيري، أهز رأسي يسارًا، يمينًا، يسارًا يمينًا، ثم أصرخ، استمررت على هذه الحال حتى اليوم الثامن.

قبل موتي دخل أحدهم الزنزانة التي كنت فيها، تحدَّث تحدَّث، وتحدَّث، كنت ما زلت أهز رأسي، أهزه، أهزه، يسارًا، يمينًا، يسارًا، يمينًا، ثم وجدت يدي ملتصقة بصدغه، ويدي الأخرى تضغط على رقبته.

ضجة مرعبة! فُتحت الزنزانة، وضعوا أصفادًا في يديَّ، وقدميَّ، واقتادوني نحو الظلام.

ساحة كبيرة في صمت الليل، وهمس النجوم كنا نسمع أصوات صهيل الخيول تأتي متهدِّجةً من البعيد.. رأيت رافعة تهبط يدُها، فيها حبل يشبه حبل الغسيل في بيتنا القديم، رُبط مثل سلسلة.. فُكَّت أصفادي، ثم بلا وعي كان الحبل ملتصقًا برقبتي، وقد صار إدراكي متقطِّعًا.. ابتسمت حينها، وإذ نظرت للأعلى رأيت الحياة.

تجرّدتُ منهم.

صوتي

استيقظت اليوم ولم أجد صوتي، ولأنني إنسان متسامحٌ، ناهيك عن كوني مللت الركض خلف الأشياء، قررت أنَّ من لا يريدني لا أريده،

محمد اسباخم

وقد وجدت هذا أمرًا منطقيًا بما يكفي.
أن لا يريدني صوتي هو أمر طبيعي، وحق مكفول له، كل شيء يقرر مصيره، وصوتي شيءٌ في حد ذاته له مشيئته الخاصة، أضف إلى ما سبق، أن صوتي أجش، قبيح جدًا، ولن يستقبله أحد مهما حدث، باستثناء حنجرتي الدخانية ولذا فحتمًا سيعود.
قضيت نصف ساعة بعد استيقاظي جالسًا على حافة السرير، أنهيت فيها علبة سجائر كاملة، افتتاحية جيدة لصباح مبشر.
أنا إنسان إيجابي، ما زال هناك شيء جيد في غياب صوتي، أن أدخن علبةً كاملة قبل عودته - إن قرر العودة طبعًا - لا علاقة حقيقية بين الأمرين، لكن عليّ أن أذكر هذا.
أنا شخص لا يحب الاعتياد، ويفضل الاستمرار في عدم استيعابه، وأحيانًا أفضل الهذيان على جميع الخيارات، تلك المحدودة طول الوقت. في اللحظة التي هممت فيها بالقيام من على السرير طرق أحدهم الباب، اتجهت نحوه، ودون تردد أو تفكير فتحته، كان رئيسي في العمل، مدّ يده لمصافحتي، لكنني استمررت مذهولًا، كنت أنظر إليه بدهشة مزجت بين رعب ساذج وبرود غير مسبوق:
منذ أسبوع لم تأتِ، ولست تجيب لا على هاتفك ولا حتى بريدك الإلكتروني.
أدخل يده في جيبه، ثم مدّ لي ظرفًا مطويًا أربع مرات.
مفصول من العمل، أمر من الإدارة العليا، بذلت ما باستطاعتي لكن لم أنجح في تلافي هذه النتيجة.
كنت أرغب بشدة أن أجيبه، لكني لم أتمكّن، والذي زاد ذهولي وصدمتي هو أنه كان يتحدث بصوتي.
أعندك ما تقوله؟ حسنًا تبدو مصدومًا وفزعًا، أنا آسف جدًا لأجلك، لكن عليّ المغادرة، بالتأكيد سنلتقي، أنت ستمر لتستلم أوراقك سأراك فيما بعد، إلى اللقاء، خالص مواساتي.
تركت الباب مفتوحًا وأقفلت راجعًا، جلست على حافة السرير مرة أخرى، واستلمت علبة سجائر ثانية.
إذن منذ أسبوع لم أفق، صوتي ليس هنا، رئيسي في العمل سرقه، ووظيفتي أُعفيت منها، ربَّتُّ على كتفي بيدي وقلت - في محاولة فاشلة للتخفيف عني - لا بأس.
أنهيت علبة السجائر، أي أنه بإمكاني أن أباشر فعاليات يومي، استنزفت ساعةً كاملة في الاستحمام، ارتداء ملابسي، وترتيب أوراقي، ثم خرجت دون أن آخذها، فقد تذكّرت أني قد أُعفيت من عملي ولا حاجة لي بها، وحرصت على ترك الباب مفتوحًا، فقد يعود صوتي.
اتجهت إلى يمين البناية، قاصدًا موقف الحافلات، لكن الطريق استمر في الاعوجاج، كنت أمشي في رصيف مستقيم، لكنه استمر في الميلان مشكلًا طريقًا أعوج، ثم بدأ بالانحدار، وأصبحت أمضي بسرعة رهيبة، حاولت أن أصرخ، مع علمي المسبق بأن صوتي ليس متوفرًا لكنني حاولت - يقولون أن المحاولة أمر جيد - كان الفراغ في حنجرتي يأكلني، شعرت به يبتلع روحي، الأرض كانت تجذبني، كنت أنحرف، والطريق يزيد في ميلانه، فجأةً ما عدت أرى سوى نقاط مبعثرة، الأشياء أصبحت نقاطًا، وقد سمعت صوتي يصرخ، يستغيث يطلب النجدة، لم أعره أي اهتمام، بدا لي الأمر ضربًا من دناءة فذة، سلمت نفسي للانحدار والاعوجاج.
أرى النقاط بشرًا الآن..
كلهم أصبحوا من الماضي..
وأنا أهوي في داخلي، روحي تأكلني، وروحي تأكلها الهوة.

عِداء

بحلول الليل يبدأ بتفقد كل شيء، يرفع الأغطية - ربما يجد الحنين أسفلها - يتفقد الخزائن، ربما تسلل أحدهم عبر ذاكرته فاختبأ هناك، يصعد إلى العلية يبحث بين الفراغات عن أجزاء جديدة ربما تكون للتوّ ظهرت لتنبئ بشيء عن أيامه المقبلة - ولو أنه يعرف قلة جدوى الأنباء كلها - ينظر نحو المدى فلا يرى غير الغول الذي خبره منذ طفولته، ما زال يخطو مقبلًا لا يصل.
يهبط نازلًا نحو القبو، يتفقد الماضي، صورة صورة، يمسح الغبار عن الرسائل، يحرق بعضها - تلك التي لم تعد تعنيه - أو يلغي بعض الكلمات - المزعجة منها، أو التي صارت حميمية حتى لم تعد تطاق - يعود إلى غرفة نومه، وقبل أن ينام، يُخرج قلبه ليتفقده؛ يتأمله، ثم يبدأ العمل: ينتشل كل الأجزاء الميتة، يضبط عواطفه مثلما يضبط ساعة المنبه، يرمي ببعض الشظايا - حدث انفجار هنا - يفتش عن أشخاص لا يعنيهم أمره يلتقطهم بإصبعيه ملقيًا بهم نحو الخارج، ينظر إليهم بنصف عين وكأنهم خطيئته الأكثر خصوصية، وحالما يرى ظهورهم تتضاءل تسكنه الطمأنينة.
يقلّبه... يتأمله مجددًا ثم يقرر أن عليه تحديد وقتٍ يوقف بعده عمل ذلك الجزء الذي طالما كان مفرطًا في حساسيته، منحازًا إلى القلق، يتأكد من وجود ما يكفيه من ساعات، وقد يحدث أن يتبرع ببعضها..
هكذا ببساطة "الدنيا صعبة" يقول، "وهذه فائضة عن حاجتي" يفتح النافذة.. يخطو خطوتين إلى الأمام يتوقَّف، ثم يمدُّ يديه ليكبِّها نحو بيت جاره، حتى إنه لفرط بهجته يلقي بالبرميل الذي وضعها فيه، وينشقُّ فمه عن ابتسامة توحي بارتباك واهٍ، إذا سمعه وقد اصطدم بالبراميل الأخرى في الأسفل، تلك التي يضعها جاره لالتقاط هذه الساعات التي لا يعرف كم كارثةً تحمل، "غبي!" يقول، ثم يصوِّب عينيه مثل أيّ مسدس آخر ليراها؛ ساعات عمره تتلوّى! الآن فقط يعرف من أين كان يأتيه كل ذلك الخوف.
يقفل عائدًا إلى الفراش، وقبل أن يتمدَّد، تدقُّ الساعة، اللعنة التي يفترض أنها لم تعد تعنيه، يلتفت نحوها ثم يلتفت إلى نفسه، وهكذا.. حتى ينقضي الليل.

كاتبة موريتانية مقيمة في الإمارات

خيري الذهبي

حكاية دِمشق

ما بين حضارةٍ عريقة ووقائع راهنة دامية يُمكن للعمل السردي أن يضع تساؤلاته حول إشكالية التحولات والتبدّلات، عن أزمة النكوص الحضاري والفكري، تصير الرواية حينئذٍ ضميرًا يُلهبه سؤال المصير والمآل بعدما تشرُع في دراسة وفحص التاريخ بُغية استنطاقه عن المآلات الراهنة وسؤاله عن آفاق مستقبل غائم، تستطيع الرواية آنذاك أن تُشكّل مشروعًا فكريًا متكامل الأركان لاسيّما حينما يمتلك كاتبها ذلك الوعي الفني والفكري، وتلك التجربة الإبداعية الراسخة، وهو ما استطاع الروائي السوري خيري الذهبي تحقيقه عبر رحلة روائية امتدت لما يربو عن نصف قرن.

منذ روايته الأولى "ملكوت البسطاء" التي نُشِرت في السبعينات وحتى اللحظة الراهنة، يُقدِّم الذهبي عبر أعماله الروائية فضلًا عن الأعمال الدرامية البارزة التي كتب لها السيناريو، بانوراما لبلده سوريا وتحوّلاتها ومُشكلاتها المُستعصيّة، ورغم رفضه المُستمِر والمتكرّر من أن تُوصف رواياته بأنها "تاريخية"، فقد تمكّن الذهبي عبر تنقيبه في التاريخ السوري واستيعابه لمُعطيات الواقع الراهن من أن يُقدِّم حكاية دمشق خلال قرن من الزمان، لاسيّما في ثلاثية "التحولات"، وفي خِضم الحكاية السوريّة يحضر البحث عن الهُوية المُستلبة والحضارة المنهوبة والسؤال عن الخنوع للاستبداد والارتكان للضعف، تساؤلات عدة قدّمها الذهبي عبر أعماله الروائية التي جاء أحدثها بعنوان "المكتبة السريّة والجنرال" ليُقدم فيها رؤيته لما حدث في وطنه سوريا خلال السنوات العشر الأخيرة.

تلك المسيرة الروائية الثريّة بما تطرحه من إشكاليات وقضايا على المستوى الفكري والفني كانت محورًا لهذا الحوار مع الذهبي في "الجديد" لاسيّما بعد أن نال مؤخرًا جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلات عن كتابه "من دمشق إلى حيفا.. 300 يوم في الأسر الإسرائيلي" الذي كتبه بعد فوات ما يقرب من نصف قرن على تجربته في السجون الإسرائيلية، والذي يُقدِّم من خلاله صورة للفِكر الإسرائيلي أثناء الحرب الحاسمة بين العرب وإسرائيل؛ حرب أكتوبر/ تشرين الأول.

الجديد: تحمل العديد من أعمالك همًّا وسؤالًا حول علاقة المثقف والثقافة بالسلطة، في "المكتبة السريّة والجنرال" تُبنى الحبكة حول محاولات السُلطة استلاب الذاكرة والثقافة الأصيلة للشعب، وفي "صبوات ياسين" يأتي البطل المُثقف مشتتًا بين الإخلاص لمبادئه أو الاستجابة للسلطة، وفي "ليال عربية" هناك المثقف المنعزل والمهزوم.. كيف تشكّل لديك هذا الهم؟

خيري الذهبي: المثقف لا نيّة لديه مطلقاً إلا أن يكون مرآة لشعبه وهموم شعبه، نجد ذلك جلياً في كتابات الكُتّاب الأوروبيين واللاتينيين والسوفييت... إلخ، فالمناخ العام الذي يعيش فيه الكاتب هو الذي يحدد قضاياه المُلِحّة والمصيرية في الكتابة. في "بلدان الموز العربية" أيّ شخص يفكر أكثر مما ينبغي خارج إطار كلمة "نعم" سيصطدم بقوة بجدار هيمنة الدولة الشمولية، سواء كان أستاذ جامعة أو عالما أو طبيبا أو لاعب كرة قدم، فما بالك بمثقف يقرأ معطيات التاريخ ويحلل الواقع ويبحث في آليات إنقاذ شعبه مما وقع فيه، الكاتب بشكل أو بآخر شاهد على عصره، ينقل نبض الناس وانكسارات الأمة ويُفلسِف وجهة نظره لتصبح وجهة نظر جمعية، وليست فردية، لذلك لا يمكن أن يكون الكاتب منفصلاً عن الأزمة الأولية التي يصاب بها وهي وعي المثقف وعجزه أمام السلطة، لاحظي تجارب الكتاب السوفييت وتجارب الكتاب الأميركيين في نفس الفترة التاريخية، سنجد اختلافاً هائلاً في المواضيع والهموم، فحين نرى رواية "المعلم ومارغريتا" لبولغاكوف المترعة بالرمزية ومناهضة القمع والاستبداد، سنرى مسرح آرثر ميلر وكتابات وليم فولكنر الغارقة في الواقعية الاجتماعية.

في بلداننا أتمنّى لو كنت أكتب عن مجتمع صحيح ومعافى وعن قضايا واقعية ذات تخييل كبير، ولكن كتب علينا تحرير المثقف قبل تحرير كتاباته، لذلك كان التركيز على المثقف كرافعة للعمل الإبداعي قبل إكمال التجربة في الأعمال اللاحقة في تعرية مشاكل المجتمع والأمة.

الحضارة السورية

الجديد: تُرسِّخ كتاباتك لتحولات وطنك سورية خلال خمسين

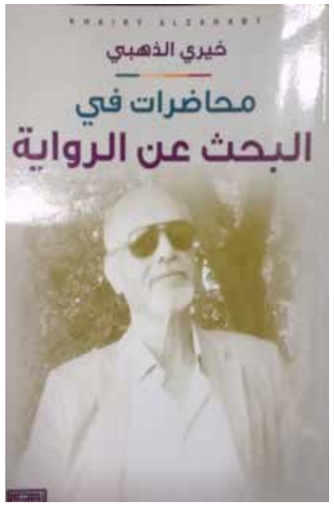

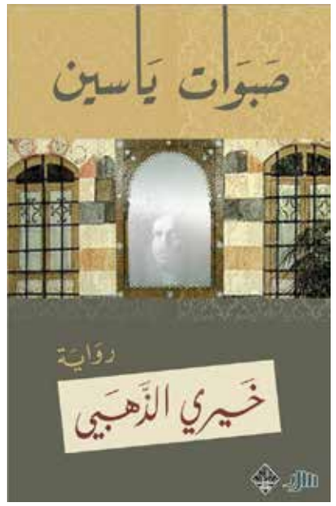

عامًا لاسيّما في رواية "لو لم يكن اسمها فاطمة"، أيضًا ثلاثية التحولات: "حسيبة"، "فياض"، "هشام" نجد السؤال المؤرق عن تلك الحضارة القديمة التي انزوت وتوقفت عن العطاء.. ما الإشكالية الرئيسة برأيك التي تحكم الأزمة السورية تاريخيًا وحتى اللحظة الراهنة؟ كيف يمكن إعادة تلك الحضارة الأصيلة إلى رونقها من جديد؟

خيري الذهبي: مشكلة سوريا الطبيعية، أو بلاد الشام عموماً، والتي ورثتها بعد تقسيم سايكس بيكو، ما سميت لاحقاً بالجمهورية السورية، هي أنها كانت ممراً لصراع الأمم التي تعيش في شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، سوريا الطبيعية بلد أنجب حضارات للعالم، أمّة كانت ممن أسهم في تكوين البشرية الأول، ولكن موقعها الجيوسياسي جعلها ساحة للصراع بين الفرس والروم والأناضول ومصر، ولعل تجربة دولة تدمر تدلل الكثير عن الحلم السوري، ولكن الأمة السورية لا تملك من مقومات الأمة/الدولة شيئاً، حدودها غير مُدرَكة مثل مصر أو الجزيرة العربية أو فارس، فيها تعدد عرقي ولغوي وثقافي وديني هائل، لذلك كانت كل تجارب الدول التي نهضت فيها تنتهي على يد الغزاة من جيرانها فيهدمون كل ما بناه السوريون، ولعل الصراع هذا يمتد حتى يومنا، ولا حل لتلك الأزمة إلا بالمواطنة والديمقراطية التي ستحمي حقوق الإنسان السوري وتشجعه على أن يسهم في بناء بلده بعد عقود من التهميش باسم القومية وشعارات لا دخل للسوريين بها، مغامرات القادة السياسيين الذين أودت بالبلاد إلى المجهول.

في رواية التحولات تحدثت عن ثيمة أساسية، ثيمة فلسفية وفكرية كانت نتاج تأمل وتمحيص في الحال السوري، فنحن في سوريا نعيش في مدن الواحات، أي تلك المدن التي نقضي عمرنا في الارتحال إليها وما هي إلا سراب، مدائن متفرقة متباعدة، ولننتبه إلى أن اسم الثلاثية الأساسي هو التحولات، تلك الكلمة المنحولة من الكلمة الإغريقية "ميتامورفوسيس" أي التناسخات، ببساطة الحضارة العربية المحلية كانت تتناسخ من بعضها البعض دون أيّ تجديد، أو تقدّم أو ولادة حقيقية جديدة، فأوروبا خرجت من الحضارة الإغريقية ومن الرومانية ومن العصور الوسطى الدينية ودخلت في ثورة حقوق الإنسان ومن ثم الثورة الصناعية والتكنولوجية وانتقلت إلى مرحلة جديدة بظهور أميركا، أما الحضارة العربية فقد دخلت المجمدة العثمانية، وبقيت هناك دون أيّ حراك مئات السنين، وأنا هنا ألوم شعوبنا على سلبيتهم، وعدم إدراكهم لأهمية الزمن والبقاء في خزائن التاريخ.

أمّتنا لن تتقدم إلا حينما ننسى أننا أبناء حضارة عريقة ونقف أمام مستقبلنا بكل وضوح، كفانا تباهيا بتاريخ أجدادنا ولنحاول لمرة واحد صناعة مستقبلنا ومواجهة حاضرنا، ولن يتحقّق ذلك برأيي إلا بدولة المواطنة المدنية التي تفصل الدين عن الدولة وتنتج تلقائياً ديمقراطية تحمي الناس وطموحات الناس، في رواية "لو لم يكن اسمها فاطمة" كانت فكرة المدن الميتة التي هي عليها بلادنا، المدن الميتة التي مر عليها غزاة الشرق والغرب، لن تنتهي هذه الفكرة إلا بقيامة بلادنا بقوانينها التي تحمي الإنسان أولاً وأخيراً.

سؤال الهوية

الجديد: تنشغل الرواية العربية منذ عقود بسؤال الهوية، وهو سؤال مُلِحّ لديك أيضًا، كيف يمكن أن تُفهم الهوية العربية في الوقت الراهن؟ وإلى أيّ مدى يُمكن التحكم في طبيعة العلاقة مع الآخر والانتقال من موقف الاستلاب والتبعية العمياء التي نخضع لها منذ عقود طويلة؟

خيري الذهبي: الهوية هي سؤال الرواية في العالم أجمعه، الرواية هي الفن الوحيد الذي يقف في وجه العولمة التي نعيشها اليوم، هي ببساطة محاولة لرواية تاريخ الشعوب وتاريخ البشر للآخر، الرواية المعاصرة هي تاريخ المهزومين، هي ذلك الفن الذي أتاح للمهزوم أن يكتب تاريخاً بديلاً، حقيقة أخرى، عالما آخر، أقل وطأة وأقل قسوة من الواقع الذي نعيش فيه، الرواية هي هوية المرأة المهمّشة في العالم، وهي صوت الضعفاء، من هنا تكمن أهمية إيجاد هوية حقيقية للرواية العربية، لولا روايات كتاب أميركا اللاتينية لما عرف العالم بهوية سكان البلاد الأصليين وقصصهم وأساطيرهم وهمومهم، ولما وصلنا على الأغلب سوى صدى العولمة الأميركية لديهم، كتّابهم أنفسهم يقاومون في سبيل تثبيت هوية تنجرف يومياً، جوزيه ساراماغو هو مسمار قوي أراد تثبيت هوية آيبيريا على حائط العالم، كذلك كتّاب الهند واليابان وتركيا وروسيا وأوروبا، وحتى كتّاب أميركا العظماء مثل وليم فولكنر وسالنجر، حاولوا إضفاء صفة إنسانية على بلادهم، صفة تنبض بالحياة بعيداً عن صورة الكولونيالية والعولمة الحديثة، وهنا تكمن أهمية الروائي، الذي يتقاطع مع المؤرخ في تلك الصفة التي ذكرتها، أي كتابة التاريخ البديل عن الرواية الرسمية.

في رواياتي ستجدين حكاية دمشق خلال مائة عام، وحتى آخر القرن العشرين، متجسدة في رواية "التحولات" مثلاً، وما حصل في سوريا خلال العقد الأخير ستجدينه في رواية "المكتبة السرية والجنرال"، وقبلها ستجدين التاريخ البديل لبيروت الحرب الأهلية اللبنانية في رواية "ليال عربية" والتاريخ البديل لمدينة مثل الرقة مثلاً في "المدينة الأخرى"، ستعرفين أكثر عن فترة إبراهيم باشا في رواية "الإصبع السادسة" ولكن من خلال تاريخ شعبي، جميع أعمالي هي عالم مواز للعالم الذي نعيشه، روايات تتدفق من نبع الموروث الشعبي الذي ينهل من هوية تقاوم من أجل وجودها.

> **أمّتنا لن تتقدم إلا حينما ننسى أننا أبناء حضارة عريقة ونقف أمام مستقبلنا بكل وضوح، كفانا تباهيا بتاريخ أجدادنا**

يوميات الأسر

الجديد: في كتابك "من دمشق إلى حيفا.. 300 يوم في الأسر الإسرائيلي" تسرد يومياتك في التنقل ما بين عدد من السجون الإسرائيلية.. كيف تعاطيت مع تلك الفترة من الأسر آنذاك لاسيّما وأنها كانت بعد فترة من الوهن والجرح النرجسي العربي؟

خيري الذهبي: أحداث كتاب "300 يوم في إسرائيل" جرت في العام 1974، أي تقريباً منذ 46 عاماً، وبقيت تلك التجربة أسيرة بداخلي، ولم أجعلها تسيطر على تفكيري ومحتواي الإبداعي، ولكن بعد نصف قرن تقريباً من الكتابة والعشرات من الكتب والعمل في الأدب والصحافة والدراما والمحاضرات، قررت أن أستعيد تلك التجربة لتكون الشهادة الأولى من كاتب سوري وأعتقد من كاتب عربي، على تجربة حرب تشرين، ولكن من دون عنتريات وأناشيد تجييشية وقومية، إنها شهادة من الداخل الإسرائيلي الذي يحتل الجولان وفلسطين، على ما جرى في تلك الحرب الحاسمة بين العرب وإسرائيل، هناك كان الواقع مختلفاً، حيث نبض الحرب يختلف عمن عايش الحرب في دمشق أو القاهرة أو باقي البلدان العربية، دون أناشيد حماسية وخطب رنانة وأكاذيب الإذاعات العربية.

هناك كنّا كأسرى نرى لأول مرة ما كنا نجهله عن "دولة إسرائيل" كنا نعتقد كما

علّمونا في المدارس والإعلام بأن اليهود كائنات شيطانية قادمة من الفضاء، وإذا بنا فجأة وجهاً لوجه مع الأعداء في الأسر، تعرفنا عليهم وعلى قسوتهم في التعامل مع العرب والأسرى عموماً، ولكننا شاهدنا تنظيمهم وعرفت حينها سبب هزيمتنا وسبب انتصارهم علينا، إن أردنا ألا نستمر في الكذب على أنفسنا وعلى الأمة فيجب علينا معرفة ذلك المحتل لأرضنا عن قرب، ونحدد نقاط قوته، ونعزّز ديمقراطيتنا التي ستمنحنا يوماً ما القدرة على الوقوف واستعادة ما فاتنا.

هناك في معتقلات حيفا ومجدو واللد، شاهدت الأسرى السوريين والمصريين واللبنانيين والفلسطينيين، وتعرفنا على اليهود العرب وأسباب تخليهم عن بلدانهم ولجوئهم إلى إسرائيل، تعرفت على فكرة التخطيط التي اشتغل عليها الإسرائيليون، وعلى مفكريهم السياسيين وعلى سؤالهم المُلحّ الدائم: كيف ترون دولة إسرائيل، وما هي مشاعركم تجاهها. اليوميات داخل المعتقلات الإسرائيلية مترعة بالتفاصيل اليومية التي تعكس كيف كنا نفكر، وربما ما نزال، وبين كيف كانوا هم يفكرون، وغالباً ما يزالون.. إن الصراع إذن هو صراع آليات التفكير بالدرجة الأولى.

حياة مُخططة

الجديد: كثيرًا ما يتحدث المُبدعون عن التأثير الطاغي لفترات الأسر والاعتقال على حياتهم بشكل كامل، إلى أيّ مدى أثّرت تجربة الأسر في السجون الإسرائيلية على توجهاتك وأفكارك ورؤيتك لحياتك المُقبِلة؟ هل غيّرتك أم عززت ووثقت ما رسمته لذاتك سلفًا؟

خيري الذهبي: على الإطلاق، لقد وضعت تجربة الأسر في إسرائيل والتي استمرت لمدة 300 يوم في صندوق رمادي، ودفنتها داخل أعماق صدري، وبدأت العمل على مشاريع روائية وأدبية وفكرية شغلتني في نصف القرن الممتد من الاعتقال وحتى اليوم، عملت على قضايا روائية غاية في الأهمية، كنت أؤرّخ روائياً لمدينة دمشق ومن ثم أرّخت لبلاد الشام والمنطقة روائياً، كتبت عن حياتي وعالمي الذي تربيت فيه، عن الناس وأحلامها وإحباطاتها وفرحها، ما قالوه وما لم يتسنّى لهم قوله، ومن ثم بدأت التنقيب في تاريخ المنطقة والبحث في الطبقات الجيوتاريخية التي شكّلت الإنسان العربي المقهور والمُعنّف حالياً، ووصلت لما وصلت إليه، ولو لم أقفل على تلك التجربة بالمفتاح، لكانت سيطرت عليّ بالكامل ولربما قضّيت عمري أسيراً لدى تلك التجربة، ولكنني صمّمت على تحرير نفسي من تلك التجربة تماماً حينما كنت أهبط سلّم الطائرة عائداً من حيفا إلى مطار المزّة العسكري، وحينما قلدت وسام الشجاعة من الجيش السوري وقتها، طلبوا مني الاستمرار في العمل في الجيش والترفيع العسكري، ولكنني رفضت رفضاً قاطعاً، كنت أريد بناء جدار بيني وبين تلك المرحلة التي فُرضت عليّ، وأعتقد أنني نجحت، رغم أن الكتاب حقق نجاحاً كبيراً حين صدوره بعد نصف قرن، ولكنني كنت مصمماً أن أقود حياتي كما خططت لها، وليس كما تريد الأهواء أن تتقاذفني.

فيروس الحكي

الجديد: بدأت الكتابة باكرًا في عقدك الثاني من العمر.. ما الدافع الذي قادك نحو كتابة الرواية؟ أيّ المحطات في حياتك كانت مؤسسة لحسّك الحكائي لاسيّما وأن شغفك بالعودة إلى التاريخ قد بدأ مع عملك الأول "ملكوت البسطاء"؟

خيري الذهبي: في بداياتي كنت أعلم أنني سأكون أحد الناطقين باسم هموم الناس وأحلامهم، ولكنني كنت أبحث عن شكل هذا التعبير، أو شكل الأداة التي ستنقل هذا التعبير، ذهبت لدراسة السينما في مصر، ولم أكمل، وذهبت لدراسة السينما في باريس ولم أكمل، وكتبت المسرحية ولم تشبع شغفي في التفاصيل، ومبكّراً تذكّرت أن "ألف ليلة وليلة" كانت وما تزال ديوان حكايا العرب، وتذكرت أن الرواية المعاصرة هي ديوان العالم الحديث وأن الفن هو الأكثر قدرة على تطويع الفنون في داخله، واحتواء الكون في جله بداخلها، كان هذا السقف المرتفع بالنسبة إلى شاب صغير مثلي حينها، مغرِ جداً، فكتبت الكثير من الروايات وأتلفت الكثير من الروايات التي لم تسمعوا عنها مطلقاً.

أؤكد مجدداً أنني لا أكتب الرواية التاريخية مطلقاً، فالرواية التاريخية هي مشابهة لأسلوب جورجي زيدان مثلاً، أما أنا فأكتب الرواية التي تكتب تاريخاً موازياً للتاريخ الحقيقي، أكتب رواية تستند على جزء من التاريخ المتعارف عليه لأبني لنفسي عالماً آخر، ولشخوص رواياتي حقيقة أخرى مدهشة تختلف عن التاريخ، لا يمكن مطلقاً أن تقرأ رواية "فخ الأسماء" وتعتبر أن هذا هو تاريخ المغول في الشرق، لكنها رؤيتي للمغول في شرقنا، ولا يمكن أن نعتبر أن قتل الأهالي لمن يملك إصبعاً سادساً في رواية "الإصبع السادسة" هو حقيقي بقدر ما هو مختلق وتخييلي.

يمكنني القول إن فن القص هو قدر من عاش قريباً من مقهى النوفرة في الخمسينات، لا يمكن لإنسان أن ينسى الدهشة والشغف والحب المرتسم على

> **كنت أعلم أنني سأكون أحد الناطقين باسم هموم الناس وأحلامهم، ولكنني كنت أبحث عن شكل هذا التعبير**

وجوه المستمعين للحكواتي في أزقة دمشق، أبوخليل القباني مثلاً هو حكّاء مدهش وروائي عظيم، اختلق القصص والروايات والحكايات ومسرحها، فهل نقول إن أبا خليل القباني ينتمي للمسرح التاريخي، الحكاية هي "DNA" متوارث في شوارع دمشق، وقد التقطت هذا الفيروس مبكراً، ربما هو الفيروس ذاته الذي أصاب أبا خليل القباني وحكواتية الشام عموماً.

توظيف التاريخ

الجديد: تؤكد دومًا أنك لا تكتب الرواية التاريخية لكنك توظف التاريخ روائيًا.. لمَ جاء هذا الخيار الدقيق في كتاباتك؟ هل هو محاولة لتجنب المُباشرة والمُحاسبة على دقة العمل من منظور تاريخي أم رغبة في مزج الواقعي بالخيالي تحقيقًا لقدر أكبر من الحرية لك ككاتب؟ وما رأيك في ذلك التوجه الكثيف من قِبل روائيين عرب نحو كتابة الرواية التاريخية خاصة بعد الثورات العربية؟

خيري الذهبي: التأمل في قصص الناس في المجتمع أمر مستمر، ولا يقتصر على الواقع، لكل حكاية وشخصية روائية بعد ملحمي، ألحّ في البحث عنه والتقصي فيه، من أجل هذا أعود إلى الأصول الحكائية، إلى جذر القضايا الاجتماعية التي أعمل عليها، في "صبوات ياسين" رجعت إلى جذر الطاغية المحلي، وحللت أصل مشكلة التبعية للمستبد، البعض يسمّي هذا غوصاً في التاريخ وأسميه عودة إلى الأصول من أجل إيجاد النبع الذي شربت منه كل الشخصيات التي أودّ الحديث عنها، السرد فعل عجيب، فما إن يفتح باب السرد حتى تتدفق قصص مترابطة عجيبة، هو مثل المشهد العجائبي في رواية "الدوران في المكان" حينما يفتح هشام الغطاء الحجري عن الفتحة في أرض المطبخ، ويشد الأوساخ فتخرج سلاسل غير منتهية من تاريخ الأجداد، حكاياهم، سيئاتهم وحسناتهم، إنه تراكم يجب على أحد ما أن يفض تشابكه في كهوف نفوسنا، نحن مشبعون بالتاريخ، نحن شعوب تتفاخر بشجرة العائلة، وهذا تاريخ شخصي، وهناك من يتفاخر بالأنساب وهو تاريخ جمعي، التاريخ يتشعب ليصبح روايات متضاربة، أنا أسرد روايتي عن تلك الأحداث، لذلك هي ليست رواية تاريخية بالمعنى التقني، بل رواية تستند إلى تاريخ ما.

أما الحديث عن كتبة روايات تاريخية، فلا أعتقد أن هنالك من يكتب رواية تاريخية، لأن الرواية التاريخية انتهت مع جورجي زيدان وجيله، أما من يكتب عن حادثة تاريخية ويحلق في التخييل فيها فلا مجال أن نسمي منجزه بالرواية التاريخية.

كتاب نقدي

الجديد: هل يمكن اعتبار كتابك "محاضرات في البحث عن الرواية" في الجانب الأكبر منه محاولة لرصد تجربتك الإبداعية في كتابة الرواية في مسيرة امتدت لما يقرب من خمسة عقود؟ أهي تجربتك الذاتية أم أنه عمل نقدي تنظيري؟

خيري الذهبي: كتاب "محاضرات في البحث عن الرواية" هو مجموعة من المحاضرات كنت قد ألقيتها في عدد من الدول في العالم، هي تجارب مختبرية كان يمكن لها أن تكون روايات عظيمة ولكن لم يقدّر لي أن أكتبها وأستكملها، مثلاً محاضرة "سيد حامد أبوزيد" الأسير المرافق لسيرفانتس في سجنه في الجزائر، هي رواية مكتملة الأركان، شخصيات مركبة وتملك فرادة عجيبة، هي رواية بديلة عن رواية سيرفانتس، رواية الشرق لذات القصة، لم أنجزها كعمل روائي، بل تركتها في مختبري المفتوح أمام الراغبين في معرفة آليات عملي الروائي، وتفكيري في صناعة الرواية، يجب على شخصيات الرواية أن تكون ذات همّ حقيقي.

البحث عن الرواية هو فعل سيزيفي، ننجزه كروائيين في كل مرة وكل رواية، نرفع فيها الصخرة للأعلى ونعيد رميها للأسفل من جديد، بحث عبثي عن فن عبثي، لكن بالطبع كتاب "المحاضرات" هو كتاب نقدي تنظيري، يبحث في الأصول الحضارية لفن الرواية، يبحث في مأزق الرواية العربية، ومكامن ضعفها، نقاط قوتها وأصولها، محاضرة "الأمبوبايا" مثلاً هي نموذج في البحث عن الهوية كما تفضلتِ، وهي تسلسل بحثي يصف الرّوي في بلاد الشام مثلاً.. وبالمناسبة الجزء الثاني من كتاب المحاضرات بات جاهزاً تقريباً.

الشكل الفني

الجديد: مثلما نجد الاعتناء بالمضمون الروائي في كتاباتك، فثمة اهتمام مماثل بالشكل ممثلا في الاهتمام بتقنيات السرد وطرائقه سواء ما شاع منها غربيًا في البداية كتعدد الأصوات وتداعي الذاكرة أو الاهتمام بالتراث العربي في السرد والتأثر به بدرجة ما.. كيف تشكّل لديك هذا الوعي؟ هل جاء قصديًا أم نتاج تواشج غير واعٍ بين روافدك المعرفية المتعددة؟

> **في كل مرة وكل رواية، نرفع فيها الصخرة للأعلى ونعيد رميها للأسفل من جديد، بحث عبثي**

خيري الذهبي: المعمار الروائي أمر معقد وتفصيلي، وكما تولد الرواية يولد شكلها المعماري السردي، وتموضع

الشخصيات. أنا أُقسّم تجربتي الروائية إلى أربعة أقسام: في المرحلة الأولى جربت رواية الأصوات وتعددها: كما في "ملكوت البسطاء" و"طائر الأيام العجيبة" و"ليال عربية"، وغيرها. في المرحلة الثانية، جربت بالفعل تداعي الذاكرة والتدفق الأوتوماتيكي للحكاية الحدث، الزمن المتصل فنياً للقصة، كما في "حسيبة" و"فياض" و"الدوران في المكان". في المرحلة الثالثة بدأت العمل على المونتاج الفني للزمن وعلى بنية الزمن المعقدة وتحقيق قفزات زمانية فنية في الحدث من أجل كسر إيهام القصة وفتح باب التأمل في الحدث واللغة قدر الإمكان بدلًا من انتظار التشويق والحبكة كما في "رقصة البهلون الأخيرة" و"فخ الأسماء". أما في المرحلة الرابعة في الروايات المتأخرة عملت على الزمن الحلزوني المُعقد الذي قد يصل إلى نهاية وقد لا يصل إلى نتيجة متوقعة، بت أبحث عن معمار روائي يُلبي تعقيدات البنية السردية والتخييل، امتزجت الواقعية السحرية بالموروث الشعبي والقصصي كما في "صبوات ياسين" و"المكتبة السرية والجنرال" و"لو لم يكن اسمها فاطمة".

أصف معماري الروائي حتى اليوم بالتجريبي، أحياناً أبني رواية بشكل هندسي بحت، متناظر ومتواز أدخل شخوصي من باب وأخرجها من باب آخر، وأحياناً أبني معماراً مشوهاً ولكنه متين، متناسب مع حدث القصة وحبكتها، ربما كان بالإمكان استنساخ معمار رواية سابقة لي، ولكن عشق التجريب يجعلني أبحث في كل مرة عن شكل جديد جداً علي، هنالك روائيون يعتمدون شكلاً روائياً واحداً ويسحبونه على مجمل أعمالهم، فيمكنك من خلالها معرفة اسم الكاتب من بداية الرواية، أما أنا فلا يمكنني أن أستنسخ نفسي مطلقاً في شكل الرواية، ولكنكم إن دخلتم إلى عالم روايات خيري الذهبي، ستجدون عمارات غير متناسقة منها المدبب ومنها المستطيل ومنها المدور، في تشكيل فني مدهش، ربما في عوالم روائيين آخرين، ستجدون أحياء سوفيتية مُسبقة الصنع متشابهة حد الملل.

قصدية الرواية

الجديد: في كتاب "التدريب على الرعب" تحدثت عن إنكار كثير من الكُتاب لمسألة القصدية في كتابة الرواية أو التخطيط المُسبق.. برأيك، ما السبب وراء كل هذا الفزع والإنكار الذي يمارسه معظم الكتاب في التعامل مع قصدية الكتابة؟

خيري الذهبي: في بلادنا كان وما يزال الفن الأكثر قرباً وسهولة من الراغبين في أن يكونوا كُتّاباً هو الشعر، وإذا ما فتّدنا أسماء الكثير من الكتاب وجدناهم بدأوا بكتابة الشعر ومن ثم انتقلوا إلى الرواية في مرحلة مُتقدمة، ربما هي الرهبة من دخول معمار هائل ومُنظّم هو الرواية، وربما كانت الرغبة في ألا يتلقوا نتيجة ما فعلوا إن هم اقتحموا عوالم الرواية، بالقول إنّ ما كنا نكتبه هو "نص مفتوح" أو تجربة روائية، الرواية فن بسيط يمكن لأيّ كان أن ينجزه، فتكون النتيجة بيتا بطابق واحد ونافذتين، كما في الأغاني الرعوية، ولربما وضع المتشبهون بالغرب فوقها قرميداً فأصبح بيتا مربعا بنافذتين، وفوقه مثلث أحمر اللون، فيكون بيتا، ببساطة روائية، مثل الرواية البسيطة، ولكن من الممكن أن تصبح الرواية معماراً عظيماً، ناطحة للسحاب مثلاً كأعمال بول أوستر، أو هرماً كما هي أعمال نجيب محفوظ، أو هرماً مدرجاً كأعمال ماركيز... إلخ، من هنا يكمن الاعتراف بقصدية البناء، حسب النتيجة، أفق التوقع غالباً ما يكون أكبر من الرواية نفسها.

القدر الروائي

الجديد: إلى أي مدى من الممكن أن يتغير المعمار الروائي المُتخيل لديك قبل الكتابة لاحقًا؟ هل هو تغيير في التفاصيل أم من الممكن أن تتغير الأسس ذاتها المُخطط لها مُستقبلا؟

خيري الذهبي: غالباً لا تقود الرواية نفسها لديّ. في أعمالي كل شيء مُقدّر ومُنسّق قبل الكتابة، أنا أمشي كثيراً، وكل من يعرفني يعرف أنّي مشّاء صبور، وفي أثناء المشي أبني العمل الروائي، أفكر فيه طويلاً، أفكر في شخصياته ودوافعها وأماكنها وحظوظها وإحباطاتها، أبني كل شيء، لا يمكن أن يحيد النص عمّا رسمت له، ربما قليلاً في النهايات أتفاوض مع الشخصيات على مصائرها، ولكنني في النهاية، آخذها حيث قدّر لها خالقها أن تكون، وخالقها الذي هو أنا، يعرف بالضبط في كتاباته أين ستنتهي، رغم محاولات تلك الشخصيات التفلّت والتمرد ولكن القدر الروائي أكبر من طموحات شخصية منفعلة.

> في أثناء المشي أبني العمل الروائي، أفكر فيه طويلاً، أفكر في شخصياته ودوافعها وأماكنها وحظوظها وإحباطاتها

القارئ الواعي

الجديد: ما هو الشكل الذي يربطك بقارئ أعمالك؟ إلى أيّ مدى يشغل حيزًا من تفكيرك أثناء الكتابة؟ وما طبيعة التلقي الذي تنتظره لأعمالك؟

خيري الذهبي: أنا كاتب أُفكر بالقارئ في كل سطر أنهيه، القارئ الحقيقي، هو القارئ الذي أتوجّه إليه، لا أتوجه إلى قُراء الجوائز مثلاً، ولا يهمّني قُراء الكتب الأكثر مبيعاً، أنا أكتب لقارئ متأمل لديه وقت ليعيش معي رحلة فكرية سردية، ستأخذه بعيداً عن مجلسه، ولكن ما يشغلني على الدوام هو القارئ الذي ينتمي لجيل أحفادي، وأسعى بشكل حثيث لتطويع كتابتي كي أجذبهم، لرغبة متبادلة لدينا في الإفادة والاستفادة، لأن نصوصي تنتمي لسنوات قادمة وليست لأحداث آنية، تسعدني جداً الطفرة البسيطة في عدد القرّاء مؤخراً في العالم العربي، ويسعدني انبثاق عدد من دور النشر في سوريا ومصر وأوروبا، ممن يمشون ضد التيار ويسعون لتقديم كتاب بديل، حتى ولو كان صعباً، يسعدني إيمان بعض الناشرين بالرواية العربية وبأنها ليست أقل أهمية من الرواية الأوروبية على سبيل المثال، هذا الأمر مشجع، ولكن قلة دور النشر وقلة عدد الكتب المنشورة في العالم العربي أمر يخيفني، هنالك مليارات تُصرف على الجيوش في جميع البلدان العربية، بينما مدن قائمة بأكملها تعيش من دون مكتبات، ومن دون نشر حرّ مدعوم من الدولة، يجب على القمم العربية مثلاً، أو القمة الخليجية دعم الكتاب العربي، ما الضير في طباعة مليون كتاب عربي خلال عشر سنوات، هل تعجز الدول العربية مجتمعة أن تموّل مشروع نشر مليون كتاب عربي في عشر سنوات. إنها صرخة ربيب مكتبات عاش بين الكتب لنصف قرن.

قِبلة العرب

الجديد: تلقيت تعليمك الجامعي في مصر خلال فترة الخمسينيات.. لم جاء هذا الاختيار؟ وكيف أثرت تلك الفترة على تكوينك الفكري والثقافي خاصة وأنها كانت من الفترات التي شهدت ازدهارًا جليًا في الثقافة المصرية؟

خيري الذهبي: في بداية الستينات كانت مصر قِبلة للعرب أجمعين، كانت تشهد في تلك الأيام ثورة ثقافية عارمة، أركانها عمالقة في البحث والاستقصاء، ثورة ثقافية مكتملة الأركان في المسرح والسينما والأدب والبحث والعمل الجامعي، والرواية والشعر والقصة القصيرة والأغاني، بينما كنا غارقين في انقلابات عسكرية لا تتيح للمجتمع أن يهدأ ويلملم نفسه حتى يعاود العسكر نسف كل شيء والبدء في بناء مجتمعهم من جديد، من اليمين إلى اليسار، ومن الرأسمالية إلى الاشتراكية، ضاعت الأجيال، دون أن يتسنّى للمدارس الأدبية أن تأخذ وقتها بالتشكل والازدهار، تجارب مسرحية هامة في المسرح الشعبي أجهضت، وأسماء هجرت من البلد، ومنع العمل في السينما إلا بأطر الدولة، والكُتّاب احتجزوا داخل نقابة وضع على رأسها ضابط مخابرات، وكذلك في كل الاتجاهات الثقافية، بينما في مصر تلك الأيام كانت قوة الدفع المنطلقة من الفترة الملكية ما تزال تدفع الحركة الفنية نحو الأمام بشكل قوي جداً.

كنا كطلاب أمام أسماء من كبار مثقفي العالم حينها، طه حسين اسم كبير جداً في البحث الفكري والأدبي، لا يقل أبداً عن جان بول سارتر وأندريه جيد، زكي نجيب محمود ونجيب محفوظ ومحمود تيمور والعشرات من المفكرين المصريين كانوا ينشرون الوعي في كل أرجاء الحياة الثقافية المصرية، وكنت هناك ألتقط ما استطعت التقاطه من أفكار للكبار ومن كتب على الرصيف، بأسعار لا تذكر، بينما كنا في سوريا والعراق أمام مفكرين سياسيين، ما زالوا يبحثون عن شكل سياسي للبلد، ميشيل عفلق وصلاح البيطار والسباعي وأنطون سعادة وآخرين كانوا هم واجهة الفكر والعمل الجمعي، حينها لم تغرني السياسة أبداً، بل اجتذبتني الثقافة مثل فراشة تسير سيراً حثيثاً نحو النور.

تحولات دامية

الجديد: كيف تنظر إلى الوضع السوري راهنًا بعد ما يقرب من تسعة عقود من الثورة؟ ما المصير المُنتظر مُستقبلا برأيك في ظل تلك التحولات الدامية؟ وأيّ دور يُمكن أن يضطلع به المُثقف في تلك الأزمة؟

خيري الذهبي: لا مناص في المسألة السورية، سوى الديمقراطية، هي كلمة واحدة سحرية ستحلّ كل مشاكل البلد، الديمقراطية، التي ستولّد مجتمعاً مدنياً غير ديني وغير استبدادي، سيحمي الجميع. أما عن المثقف فهو زرقاء اليمامة الذي يتحدث بما يتوقعه ويراه دون أن يلتفت إليه أحد.

موجة جارفة

الجديد: في السياق، هناك العديد من الأعمال الإبداعية التي اتخذت من الثورة والأحداث التالية لها موضوعًا روائيًا.. كيف قرأت تلك الأعمال التي كُتبت أثناء فورة الحدث وطُغيانه؟ وهل تُخطط للكتابة عن تلك الفترة في وقت لاحق؟

خيري الذهبي: كل الأعمال التي خرجت عن الثورة، هي أعمال تناولت جانباً من تلك الموجة الجارفة، لكن التحولات التي تحدث لم تنته وبالتالي لا يمكن الكتابة بشمولية عن أمر غير منته التحقق، كل كتابة الآن هي فعل منفعل منطلق من مشاعر غضب أو إحباط أو دعم عاطفي، أو قهر أو ظلم، الرواية لا يمكن أن تبنى

> لا يهمّني قُراء الكتب الأكثر مبيعاً، أنا أكتب لقارئ متأمل لديه وقت ليعيش معي رحلة فكرية سردية

ريم يسوف

إلا على إلا على العقل، والعقل مغيّب تحت طبقات الغضب حالياً.

كتابة السيناريو

الجديد: ما الذي أضافته الدراما إلى مسيرتك الإبداعية؟ وإلى أيّ مدى يمكن اعتبارها قد عززت تواصل المُتلقي العربي مع أعمالك الروائية؟

خيري الذهبي: السيناريو فن مختلف عن الرواية جملة وتفصيلاً، حاولت في البداية أن أصنع دراما روائية، ولكن التيار جرف الجميع نحو الإبهار والسرعة، نحن في عصر سريع جداً، لا يؤمن بطول البال والتأني، ولكن فيما يخص السيناريو، وأنا قد كتبت ما يزيد عن 15 عملاً بين التلفزيون والسينما، فإني أفتخر بما أنجزته في هذا المجال، لأنني جئت إلى هذا العالم كي أروي قصصاً وروايات للناس، عن الناس، ومن أجل الناس.

مسيرة روائية

الجديد: كيف تُحاكم مسيرتك الروائية حتى اللحظة الراهنة؟ ما الذي ندمت على فواته؟ وما الذي يُشكّل مصدر فخر بالنسبة إليك تعتز به دومًا؟

خيري الذهبي: لديّ رغبة أن أكتب عشرين كتابا في السنوات القادمة، أرجو أن يحالفني القدر والزمن والصحة في إنجاز ذلك، فأنا أملك العشرات من الروايات في عقلي والعشرات من الأبحاث والكتب في ذهني، لكنني فخور جداً بما أنجزت، لقد كتبت لنصف قرن، بين الرواية والقصة والصحافة والسيناريو والأبحاث ما يزيد عن وزني بضعفين من الورق، ولم أقل بعد نصف ما لديّ من حكايات.أعمل حالياً على كتابين "الجنة المفقودة" و"فانتازيا ما وراء الموت". وأعتقد أنهما سيجدان طريقهما إلى النشر في 2020.

حاورته: حنان عقيل

ملف

هذا الجسر لي

أحد عشر شاعراً عراقياً

وقصائد من "ساحة التحرير" في بغداد

شعريّة العائم
في مطر الدّخانيّات

مازال العراقيون مصرّين على إرجاع الحقوق التي نهبتها الأحزاب، والقضاء عليها، فللثورة بريق خاص هيمن على كافّة المفاصل العراقيّة، وما يزال للطلاب دور فاعل في استمرار هذه الثّورة، إذ عطّلوا الدّوام، واستطاعوا أن يكوّنوا رؤية جديدة في خارطة الجسد العراقي، وصاحب هذا الموضوع، ثورة بناء ورسم، وإعادة تعيين للكثير من المفاصل، والمباشرة بصبغ الجدران وما شكل ذلك الأمر من مفاتيح رئيسة أخرى. ولم تقتصر الثّورة على الرجال فقط، لا بل كانت النّساء ذات صوت صادح في محيط ساحة التّحرير وبقيّة السّاحات الأخرى. وخلال التّظاهرات السّلميّة تعرّض الشّباب العراقي المرابط في الساحة إلى عمليّة إبادة فقد سقط ما يقارب 1000 شهيد و40000 ألف جريح، من ضمنهم حالات ميؤوس منها.

كمأساة نظهر، والآن كفرحة نَنعَم ونَكبَر، هكذا أصف جيلاً هجوميّاً لا يستكين عند مرحلة معيّنة، همّه الوحيد إيجاد وطن آمن يعيش فيه، بعيداً عن الدّماء التي تهرق من أركانه في كلّ لحظة. لم يقف الشّعر موقف المتفرج بالنّسبة إلى شعراء العراق الجدد، بل كان مغامراً فاعلاً أمام إطلاقات الرّصاص في وجوه الشعراء، وأمام عفونة الميليشيات الإرهابيّة التي تختطف أبناء جلدتنا بين لحظة وأخرى، كنّا خرساناً نتحدث، الآن تلاشى الخوفُ، صرنا نصرخ في وجه الظالمين ونخبرهم عن قذارتهم.

حاول الشّعراء هنا في هذا الملف أن يكوّنوا صوتاً وصورة وملمحا من ملامح الثورة العراقيّة التي ظهرت في أكتوبر من عام 2019، المطالبة بدحر الفساد والخلاص من الميليشيات الحاكمة، لأنّها استطاعت نهب خيرات البلد، وقتل شعبه، وزرعت الضّغينة والبغضاء بين مكوّناته، حتّى أصبحت هذه الأمور شغلهم الشّاغل، الذي يشغلون به المواطن، ليُبعدوه عن التّفكير وعن إنتاج شيء لخدمة البلد.

اليوم يبّث العراق ثورته هذه لتكون ذات هدف ومفصل جديدين أمام العرب والعالم بشكل عام. ستكون هذه الساحات المستمرة إلى يومنا هذا مصدر فخر لكل مواطن شريف وغير متحزّب، يعبّر به عن رؤيته السّلميّة، إضافة إلى ذلك، فقد رأينا الشّباب يشّد على أيدي بعضه بعضا في السّراء والضّراء، ليكوّن رؤية انتقاليّة، فظهر فريق صائد الدّخانيّات وهو الفريق الأشد خطورة، لكونه يعرّض نفسه إلى مخاطر كبيرة في سبيل استمرار الثّورة وعدم تعريض الآخرين إلى مساوئ الغاز المسيل للدموع.

أحمد ضياء

ملف

بعد أن يغسل عمّال النظافة الدم

منار المدني

1

كل شيء سيمر بسرعة
ستعود باصات النقل إلى الساحة
يمر الموظفون والحمّالون صباحًا متذمرين من الزحام المروري، ستمحو الأمطار ما رسمه الحالمون على الجدران
وتقوم البلدية برفع الصور واللافتات،
ستُفتح الجسور على مصارعها من جديد
وعندما يعود كل شيء إلى مكانه على جانبي الطريق بعد أن يغسل عمّال النظافة الدم من الأرض، سيذهب الجميع
إلى التسوق
القتلة إلى محال المعدات العسكرية
الشهداء إلى عربات الملابس المستعملة
والأمهات الوحيدات
إلى المقابر.

2

إنهم يبحثون الآن
عمّن سيشكل موته قضية مؤثرة،
عن وجه طفولي جميل،
قد لا يكون مشهورًا بدرجة كبيرة
وليس من الضرورة أن يكون عنيفًا أو مشاكسًا،
إنهم يبحثون وحسب
وشيء ما سيدلهم عليه بالنهاية، على الأكثر
سيكون قلباً مكسوراً
لأمّ متعبة
أو حبيبة بعيدة.

3

لقد قتلوا البارحة
امرأة تشبهكِ إلى حد كبير
وتنحدر معكِ من ألم واحد
وربما من جذر واحد يمت إلى أعماق الأرض
ولا شكّ من بلاد واحدة
بلاد قاسية
لن تسمح أبداً أن أستند إليكِ الآن
وأبكيها.

عن الحبّ والوطن والثورة

وائل سلطان

يتساقطُ المطرُ خجولًا على وجهك الخمريّ
ويلمس الهواءُ شعرك بشفتيهِ
تمرّ الأغاني هادئة فيك، مثل وردةٍ ناعسةٍ في الليل..
وتبتسمين لي من العالم الاخر الذي تعيشين.
أردّ لكِ الابتسامة والنظرة الخارقة
أبتسم لكِ،
وتتساقطُ من وجهي شفَقة المتعبين من الحياة
شفقةُ الباحثين عن وطنٍ في أيّ شيء
ولم يجدوا غير قبورِ أصدقائهم تتسلى بهم
يحلقون بالأمل البطيء وبالأيام الحزينة الدافئة
التي كسّرت أجساد من عرفوها
وتركت أسماءهم منقوشةً بحجر المقابر وقلوب الأمهات.
أبتسمُ لكِ جيدًا،
أنا أفتشُ عن وطنٍ أيضًا
في ابتسامةٍ عابرة
في خصلةِ شعرٍ تقبلها رياحٌ عابرة
في شفقةِ المتعبين، وفي تساقط المطر الخجول.
تنطقين كلامَكِ بهدوء شجرةٍ خريفيّةٍ عرفتْ حكمة الانتظار
المرّ.
وأكلمكِ بصوتٍ مختنقٍ بالدخان والرصاص والجثث.
لا أملَ من أيّ شيءٍ،
هي الحياةُ الرديئةُ تبدل وجهها في كل حينٍ.. تقولين.
لا أملَ، أقولُ انا، ولكن ربّما.
تطبقين شفتيكِ، كمن انتهى من قبلةٍ هائلة قرب بحيرة
باردة.

وأفتحُ فمي فاغرًا، كمن لمس قنبلة الغاز في رأسهِ

وأصمتُ بعدها إلى الأبد..
وأظلّ أسألكِ بجمالك كلّه، أن تجدي لي معنىً لكلّ هذا
أن تلمسي حياتي
أو تمسحي بخصلةٍ شقراءَ منكِ
شفقةَ المتعبين عن وجهي
تبتسمين لي
أبتسمُ لكِ، مثل أيّ عراقيٍّ سيموتُ..

صورتي حين أموت

نور مهند

أنا لا أريد منكم
أن تحملوا صورتي حين اموت
في أزقة التظاهرات..
ولا أريد أن تلصقوا
وصمة مجهول الهوية
على جبيني
أنا لست سعيدا بموتي.
لا تجعلوهم يخبرونكم
أني الآن املك جناحين أو أغازل الحور العين..
إننا مازلنا واقفين هنا في ردهات الطوارئ
على أسرة العمليات
ننتظر الشهيد القادم
نسأل بلهفة ماذا حدث للثورة
لا أحد يفكر أن يسأل عن أطفاله
الساحات تبدو أكثر أهمية للنمو الآن.

***

أختي ابتلعت ساقها
في آخر مرة حاولت فيها
أن تجعل دورتها الشهرية
طفلا...

كان طفلها عنيدا وثوريا جدا
يرفس ويهتف بأعلى صوته
لن تستطيعوا إسكاتنا
كان والده يرش الخمر على ظهره
ويطفئ السجائر
محاولا أن تصل سيجارته
إلى رأس الطفل الثوري
كان يستريح قليلا
لاهثا
من دخان الحقد الذي يبتلعه والده
كلما صرخ فيه صاحب المعمل
لا تسترح أكمل عملك..
هكذا كانت تعبر العبودية على ظهر الرجل وأطفاله
الطفل الذي يجمع قشور الخيانة ويضعها على رأسه
تحسّبا ليوم ولادته عراقيا
هكذا سيستطيع استقبال قنبلة دخانية في رأسه

بدون أن يفقد شيئا من ذكرياته.

***

الجحيم يبصق على الأرض
فينبت أولئك التعساء الذين يغلفون أولادهم
ببقايا الجرائد
ويرسلوهم إلى ساحات التحرير
ليتناولهم القادة على الفطور مع قليل من الزبدة.

***

على الأرصفة تتوالد البائسات
تتقفى آثار المال ككلب جائع.
في الشوارع.. تختفي الإمكانيات
يسرع بهن المجاز نحو أصباغ صارخة

تصرخ في وجه المشاة: أنا جائعة
أنت فقط من تسد جوعهن
تَقوم بتقبيل الرغيف قبل أن تبدأ في احتضانهن

رائحة شفتيك ستكون عشاءا جيدا لأطفالهن.

,,,,,,,,

في المقبرة هناك قبر
يزهر كل حزيران زهرة عباد الشمس
الرجل الذي في داخل القبر
نسي أن يرسمها لابنه في دفتر المدرسة

***

تتدحرج الرؤوس
يلعب بها الملائكة البولنغ
الرأس الذي يُسقط حكومات أكثر هو الفائز

لذلك الرؤوس تتعمد أن تتدحرج نحو الشعوب
فقتلهم أقل خسارة.

هذا الجسر لي

نور درويش

لدينا جثث كثيرة
جثث في الثلاجة
جثث في الخزانة
جثث في الحقائب
جثث في الكلام
جثث في المنام
لدينا جثث في كل مكان
أكثر من الأمطار ومن الحيوانات المنوية
جثث.. جثث
أكثر من الرجال أكثر من النساء
جثث.. جثث
بفم واحد: فم مفتوح
جثث.. جثث
بعيون واحدة: عيون مغلقة
جثث تشبه الأحياء
المفقودين منهم
البعيدين..
جثث للعائلة
جثث للأصدقاء
جثث للمسافرين
جثث للعائدين
جثث للجيران
جثث للأطفال
تصلح دمى وعرائس
تصلح حلوى للعيد.
جثث بأحجام مختلفة، بأسعار مناسبة..
جثث في الليل جثث في النهار

جثث بلا رائحة
جثث هادئة
جثث لا تتحرك
جثث ثقيلة
جثث بملابس جميلة
جاهزة ومستعدة للتصوير في أيّ وقت.

***

بعد الآن الأمهات

سيُعلّمن الأبناء كيف يمضغون القنابل
أو يبلعونها،
كيف يفتحون العيون لدخانها.
الآباء سيوفرون كمية لا بأس بها من القنابل الدخانية في
البراد..
يوم الجمعة سيكون يوم ثقب رؤوس العائلة
تحسبا للقنبلة.

***

عيون صغيرة تتقيأ
وقوفا
على الوطن..
عيون صغيرة هاربة من رأس صغير..
تلتصق بفمي..
عيونهم في فمي، يا أمي..
عيونهم تلتصق بأحذية أخي الرياضية..
رؤوسهم صغيرة يا أمي، تكفيها نصف رصاصة
لتتفتت..
أنوفهم ناعمة ومحددة

سأعلقها على البراد..
وأنساهم..
أقدامهم نشطة لوحدها
تمشي في شارع يدخل المشافي القذرة بنصف
بنطال جديد.
أقدامهم تتقيأ على قميصي المبلل بالهتاف..
شعرهم اللامع يتقيأ على جدار مليء بالرسوم..
لهم أكتاف صغيرة
يا أمي..
أكتاف تأكل ظهرهم وهم يرقصون.

***

اششش..! أمة تتصل..

الوجه الذي ينبت في برتقالة
قد كنت ساذجة حين سكبت لهم
الوجوه دون عيونها في شاشة الهاتف المحمول
أمي تأكل الهاتف وتنسى ان تتصل..
تشتم القتلى..
أبي من قتلهم..
أبي من أدار وجوههم إلى جهة اليمين..
أنا رأيته..
يبلع أحجار الشارع العام

ويبصقها على الجسر
حيث أمي هناك تأكل الهاتف وتنسى أن تتصل..
على أطراف النهر يموت البرتقال
بالاختناق عوضا عن القتل..
على البرتقال أن يُقتل بقناصٍ حكومي
أمي تأكل الهاتف لا تأكل البرتقال!
فتش عيونهم التي على اليمين
أضاع الصوت امعائه هناك
أمي تأكل الهاتف ولا تأكل البرتقال!

***

بينما مُعد الأخبار في "العربية "
يُقدم خبر حرق الإطارات
على خبر قتل المتظاهرين..
من حوله كان الكل يصرخ:
(تصوب برأسه.. تصوب)!
بدأ صاحب الكاميرا بالبحث بينهم
لم يجد غيره..
جامدا تماما ومُغرياً لصورة
فجأة توقف فيه الألم.. ولم يتوقف في الصورة.
من بين أظافره،
من بين كل قمصانه المُعلقة بعناية،
من بين كل امرأة تسمّر أمام كسر في خدها
من بين كل العيون التي رأته ولم تنتبه
من بين كل ختم في رسالة لابن خلدون
من بين كل حيوانات كليلة ودمنة
من بين كل ضحكة صغيرة مزعجة
غالبا ما تكون بعد منتصف الليل
من بين كل بالون أحمر أو أبيض
مرسوم عليه أرنب
من بين كل الورق الذي يبرع بتقيؤ الكتابة
ويفشل في أن يكون منشارا عائلياً،
خرج.. حتى صار أمامه
ألقى عليه التحية
وتعانقا.

مصور "الحدث" بعدها
التقط صورة لفتى يسبح تحت الجسر
وهو يضحك من رأسه.

***

شيء بيني وبين درويش

كل الوقت للقنبلة
كل الوقت لرصاص الحكومة:
والدخان حظ المُبادر
أهتف! أركض! أختنق!
لا أسمع، أسمع، لا أسمع!
أُصاب!
أُقتل!
أسقط
أسقط
أسقط
أسقط
أسقط
أسقط
أسقط.
بخوذة الحياة الممكنة
أنتظر القنبلة
إن أتت تمشيّا معا كنبيّ ونملة
حتى لا تجفل فيها الكتف والرقم الذي غفى فيه:
الجنود لا يموتون
الجنود
ينصبون بنادقهم على الحديقة:
على هذه الأرض:

"تحريرٌ" واحدة كان يمكن أن تكون متحفا لكرة الطاولة
كان يمكن لـ 400 جثة أن تكون قنبلة
كان يمكن لـ400 شهيد أن يلعبوا شوطا من البليارد قبلها
(لا بد من نثر إذن)
لا بد من رأس مثقوب جانبه الأعلى:
هذا الجسر لي!
هذا الرصاص لي!
و البلاد ليست لي.

ملف

الملثمون على هدي من ربهم

علي سرمد

على هدى من ربّك يخرجُ الملثمون بالضوء
يتسلّقون الجرحَ،
يزرعون تعاويذهم بخنجرٍ مسمومٍ
يرضعون سنينَ القحط
ليُخيّمَ اللهُ تحت شعاراتهم المسدلة من سبعِ سماواتٍ طباقا.
عبثا نبحثُ عن مستقبلٍ بلعته أيدي الآلهة
عبثا نرمّمُ قتلانا بكلماتٍ موؤودة الحرف
عبثا نشحذُ وراءَ المعجزات
ليكبّرَ فينا الطغاة يوما على صدر يوم
فيا أيّها المُوغلون في الغيم
مزّقوا الخطوطَ الحمراء
والأصنامَ التي تتكاثرُ حولها الثكالى
وانتعلوا الماء الذي به تُستعبدون.
نريدُ وطنا
خارج الحدود والخرائط
نريد وطنا
لا تخطّه ثعالبُ الوقتِ باسمِك اللهمّ
نريد وطنا
لا تلتحفه سجادةُ الجوعِ المعبّأة بالصلوات الخمس
نريد وطنا
لا يقتاتُ مما تمطره عيناكم في سبيل الله
نريد وطنا
لا يسكنُ فوق راحةِ الصبر.
البصرة آخر المصلّين على هواء الروح كذبا وزورا
وآخر الحالمين بالأمل الذي اخشوشبتْ رئتاه بسدنةِ المعابد.
الدماءُ التي يَبُستْ في صدورنا
أينعتْ بالملح.

علامة النصر بأصابع مبتورة

علي ضياء

الحرب الجائعة أكلت مني ثلاثة أصابع
فصِرتُ أدعوا الله بأصابع النصر
وأصبح يستجيب لي أكثر!

***

يُلبسونَ التوابيتَ علماً
يزرعونَ الشهداء صوراً
يوقِدون الدموع
لِئلا ترتجفُ من البرد
شمّاعة الوطن.

***

لا تقتلني، أمي بانتظاري..
أثناء ذهابهِ الى ساحة التحرير
وهو يهمس..
يا الله ليصلك كلّ ما هو شهيد
اضغط علامة النصر

بأصابع مبتورة
فالدُخان المتصاعد إليك
يحمل فتات أحلامنا
أوصي الملائكة أن يتعلموا جمع الأحلام
يا الله.. نحنُ هنا
يا الله هل تشم رائحة ما يحصل!
يا الله، يا الله، ارتفع صوتهُ
لتخترق رأسهُ قنبلة دُخانية، فيصيحوا.. گووووول
ولا أثرَ بقيَ حتى لملامح الدعاء.

***

أبي،
يا عراق
ثكلتُنا أمّنا
بغْداد
أطفالاً رُضّع
لا نعرِفُ سوى الدموع
التي تغلي في أحداقِنا
بحرارة من القلوب
بملاعقِ أصابع النصر
بدخانٍ متطاير من الرؤوس
بنكهةِ الأمل..
لتصبَّ فيك أيها الألم
ولا تشبعُ أبداً
لازلت تتجول في الشوارع والأزقة
بهيئةِ أرغفة من السُحابْ
بثواب الشهيد.. تفضّل..

صبيان التُكتُكْ بقصات شعر لا تنسى

سما حسين

أقتُلهمْ كيفَ ما تشاءُ،
برصاصَةٍ في الجَّبهة
بِقنبلةِ غازٍ تَخنَرِقُ المخ
بسياراتٍ تَستأجرُها من إبليس لتدهسهم.
استنشِقْ عطرَ التُّفاحِ فيهم
بفوَّهَةِ القناص
أقتلنا أيضاً حينَ تهدِّدُنا بخرابِ البيت
أقتلنا
ثمَّ اختَبئ في خَضرائكَ كالقرد
أهربْ مِن مِرآتكِ من غرفةِ نومكَ، من حضنِ نسائكَ
وقبلَ أنْ تَخلعَ رباطكَ هذا
الذي سَيلتفُّ عليكَ في يومِ المحشرِ كالأفعى
وقبلَ أنْ تَجمعَ أظافرَ الموتى في كابوسكَ
لتَنهشكَ حتى تُمزِّقَ نومك
أنظرْ إلى السَّماءِ قليلاً
سَتجِدُ (مظفر) يتجسَّدُ فيها

يحملُ تحتَ ذراعِه جيلَ الألفين
يرفعُ إصبعهُ الأوسَط في وجهِ التأريخِ
الذي تقيأك علينا
ثم يُغني لكَ بحنجرَة الثورة
" أولادَ الـ...
لستُ خجولاً حينَ أصارحُكم بحقيقَتكم
إنَّ حظيرةَ خنزيرٍ أطهرُ من أطهركم "
ثم عُد..
أقتلنا وأخلُد للنوم
نحنُ سَنحولُ آياتِ الرَّبِ إلى أشعار نحملها في وجهك
فقريباً
تَتحَقَّقُ نبوءاتُ الحرية
ويَجيئكَ صبيانٌ بالتُكتُك، بقصةِ شَعرٍ لا تَنساها
بضَحكَةٍ تُشبهُ لونَ المَدرسَة الأبيض
يَرقصونَ على وجعكَ لينزلَ من رَقصَتهم ملحْ
سَتصْرخُ ألماً مِنْ حرقةِ جلدك
فليسَ كُلَّ القَتلة مثلكْ
" دمهُم بارد "
حدِّقْ فيهم... مَيِّزهُم
لتَتَعلمْ كيفَ يكونُ المَقتلُ نكتة،
وانظُر كيفَ يُحبونَ الموتْ
حينَ تُحيلونَ الوطنَ إلى تابوت
تَعلَّم مِنهُم كيفَ تُحبُّ الأشياءَ بعنفْ
كيفَ تقولُ " أموتُ عليكْ " بجدية
وقريباً جداً...
لن تَنجو
لنْ تنجو من لعنَةِ هذا الدم!

ملف

الضاحك وفي فمه جمرة

صالح رحيم

طوبى "للتكتكيين" الذين ابتكروا مكانة الأشياء التي كانت
تعيش بلا مكانة،
طوبى للعراة،
طوبى للكائنات الصيفية في البرد القارس،
طوبى لمن يحاربون الجسر بعدم العبور،
طوبى للكلمة الحرة في عراق الأقفاص،
طوبى لمن لا يريد أن يعرف إمام زمانه ولا يريد أن يموت
ميتة جاهلية
طوبى لمن يريد أن يعيش،
طوبى لمن أنهكتهم الليالي،
طوبى لمن تحولت وسائدهم إلى جمر،
طوبى لمن تؤلمهم عظامهم في أول الغروب،
طوبى لمن آمن بالحاضر وخلّى الماضي وراءه ماضياً لا أكثر
ولا أقل،
طوبى لمن فضّلوا الغرق في البحر على الغرق في البركة
الآسنة،
طوبى لمن يضحك وفي فمه جمرة،
طوبى للعالقين في مسرات التحرير،
طوبى للبخلاء الذين خبأوا القمح والنخيل في قلوبهم،
طوبى للحالمين بالمحاصيل،
طوبى للعائدين من الليل مروراً بالفجر إلى الشمس.

ملف

ها أنا أمسك كل شيء

وسام الموسوي

أنا المعتصم وسام
الألم لا يعني لي شيئًا
فهو ضحك وفير لمن اعتاد عليه.
***
الإصرار على البقاء
فكرة اقترفها الآن حتى نفاد الوقت من فكرته.
***
الغباء فكرةُ الريح في الشتاء
ولهذا أعتبرها ندًا حقيقيًا لخيام المعتصمين.
***
لم يكن لديّ شيء
وها أنا أمسك كل شيء
مثلا تجردي في حب العراق
وهل هناك أعظم من هذا؟
***
لولا العراق لكنتُ مشهدًا مؤذيًا
مثلا
حانة خالية من عاشقيّن
أو
رأيًا حكيمًا لم ينصفه الأغبياء.
***

لم أفعل ما فعلته

إلى صفاء السراي:

هو لا يريد شيئًا
كان يريد فقط أن يمسك الحياة ويضعها في قلب العراق.
***
لم يكن صفاء وحده
كانت(ثنوه) أمه تصرخ أمامه وخلفه
وتقول: بغداااااد
إنه صفائي الوحيد أمسكيه قبل أن يصلني بلا نبض.
***
لم يمت أبدًا
إنه الآن ينظر إلى لعراق
وكأنه الطريق الوحيد الذي يسلكه كل المتظاهرين.
***
كنتَ تقول
لا أحد يحب العراق مثلك وهذا صحيح جدًا
أتعرف لمَ؟
فقط لأنك كنت تعرف أن العراق لا يعشقه سوى رجلٍ
مثله.
***
أتعرف لماذا أنا حزين يا أخي؟
لأنني لم أفعل ما فعلته أنت يا صفاء
وهنا تكمن خسارتي الأكيدة.

ملعقة أمل واحدة

إحسان المدني

1

عندما تقتلك الثورة
وكلمة "لا"
وصورة شهيد
وجملة كتبتَها على فيسبوك
فاعلم أنكَ ابن هذه البلاد؛
ابن صالح جدا
يحب
يكتب
يضحك
ويعيش
من أجل الحب والخبز والحرية
ثلاثة في وجه الموت،
ثلاثة من أجل حقولِنا الخضراء
من أجل الأشبار الواسعة من الراحة
ومن أجل الحبيبات؛ في وطنٍ خالٍ من الفساد
ووطنٍ قادم من الشمس،
عندما يقتلكَ الجياع
والمجرمون
وبائعو الأوطان
والأنذال باحترافيةٍ مطلقة،
برصاصةٍ، أو سكين، قنبلة غازٍ، أو دونكي
فاعلم أنكَ ابن هذه البلاد؛
ابن صالح دائما..
ولِد ليموت
ومات ليعيش
أحبَّ ليطير

وطار ليحبَّ..
ابن صالح للغاية
ستذكره الأمهات، والحبيبات، والأوطان
الشوارع، والأنفاق والجدران
ثم تبكي.

2

سنكتب عن الحربِ نصوصا طويلةً
يحملها المزارعون إلى حقولهم
والقرويون إلى أراضيهم
والموظفون إلى دوائرِهم
والأطفال إلى مدارسهم..
والشهداء دائما؛ إلى الجنة
نصوصا طويلة؛ عن الحربِ والحبِ والمعاناة،
وأن نركضَ مطولاً في طريقِ الكلمة
ولا نعود..، حتى أن نسقط في هجائها،
سنكتب نصوصا طويلةً
عن الحياةِ والأملِ والثورة
عن النصبِ والنفقِ وجبل أحد
الخلاني في دورانِها، والوثبة في خطورتها
وجسر الجمهورية عن وعده،
والأحرار عن ضحاياه..
عن الأحلامِ
والبازار
والمنشورات
والحب في مرّته الواحدة، والموت في مرته المؤكدة
سنكتب عن السجونِ والرهائنِ والاعتقالات

وعن كلمة "خوف" إلى كلمة "حبيبتي"
وقبلة "وداعاً" إلى قبلة "أحبكِ"
وعن الوحدة
والخبز
وإذاعة التحرير والتُكتُك
سنكتب عن الفرص الضائعة والممكنة
كأن نهرب سويا
أو نموت سويا
أو ندور وندور حول حكاية لن تبدأ..
سنكتب للحرب نصوصا لن تنتهي
للحرب والحب
نصوصا دائمة من الدهشة..

3

من يموت غيرنا؟
نحن الذين تناولنا - الأحلام - الشعر- القصائد واللون..
بملعقة أملٍ واحدة
وتعلمنا أن نقول "لا"
لا للطغاة،
"نعم"
نعم للحرية،
و"أهلا"
أهلا للتغيير،
من يموت غير الحالمين،
الآملين
والبسطاء؟
في أرضٍ ليست إلا للموت
وسماءٍ ليست إلا للبكاء
وحياةٍ تقود إلى المقابر..
يااه..
أفكر الآن..
من يموت؟
من يموت..
غير قلبٍ طازجٍ
يخاف أن يحبَّ، لا أن تقتله الرصاصات.

دخانية على هيئة وطن

أحمد ضياء

لم أكنْ شهيداً بايولوجيًّا تذكرهُ الأرقام
كنتُ شهيداً يعيشُ بين ضلفتي البصيرة
تزفّهُ البارقُ على خطٍ موؤدة
ثم تنفخُ في أذنيه الدّخانياتُ لتعيدَ
غسل ضميره الملتع بالمواجع
نحن الأوعية القليلة
ترفّف الأصوات المتكسّرة داخل عيوننا
لتصرخَ في اسمك
ترتّلُ الأبراجُ منائر شمسٍ الفقيد المتوسّد أرض الهواء
هنا حيثُ لا مكان للذيل
هنا حيثُ الأرواح تصرُّ على طعنِ السّكاكين، وتباشرُ
في لَمِّ ما يصهره الجّليدُ من مرابع المدافن.
في هذه اللحظة بالذّات ثمَّة أمٌّ تبكي، تصرخ، تنتحب،
تتألم على ابنها الشّهيد، ثمَّة كثير من الآباء لا يعرفون
كيف يبكون، الكثير من الألم في الجوار، الحزن يخيّم على
المدينة، لا أعرف الفرح منذ أيام، غير أنّي أبتسم لكل الذين
يمرّون بجواري ويحملون الوطن في كلِّ جزء منهم.

ظنَّ المواطنون أن الدخانيات وطن لذلك هرعوا لاحتضانها
بالرؤوس.

قناص الوحدة العاشرة

ننتشلُ الموت من رقاب الطفولة
نرميه في لُجج الأفق ليتشظى
ثم يغفو على أردان كسيحة
بصقناها.

***

مازلنا نحرسُ الفئران جيّداً
بدأت أغسلُ أحلام الأطفال
إنَّها اللحظة الأساسيّة التي تجتازني فيها الخطوات
لأبقَ حيثما تركوني.

***

للقواقل التي كبرت على ذراعيَّ السّمراء
فضّلتُ القول: وجب أن نرسم رمال توابيتنا
عند أصيص اللحظة.

***

تعلّم
أن
تستفز
الآخر
لتعرف أيّ خطاب يكمنه اتجاهك.

***

أصوات جديدة تسافر اليوم لتحطَّ في بيتي
أظنُّ الكلاب تظلُّ مجنونة
بكلام تافه اسمه الوفاء.

***

للأغشية المرتعشة نفتدي أعمارنا
ولأجلها أيضاً
تمشي الحقيقة على عكائز شقراء ممتلئة.

***

سأختارُ صديقاً لا يعرف ملامح ذاكرتي الورقيّة
لكي لا يرمي الأنهار على وجهي في كلِّ صباح

سأعمدُ على أن أتذكَّر الكثير من الفواجع السّابقة
لأنَّ ندوب التّأرخة المتنافذة في أوتارِ جسدي
لازالتْ تحنُّ على تبنّي مسالكٍ غير إلزاميّة
لكسر المشاعر.
أتريدُ أن تعرف الحقيقية؟
جرّب الموت لمرة واحدة
ولنرَ.
كلَّما نبتت لي عينانِ
اقتلعتهما لأروي البصيرة
محتواها.

لم أكُ أوديب يوماً
بل كنت أقلع عيوني
لأتباصر مع الطّرقات
ولأعلّقها شتائل للوحدة.
قواتُ فضِّ الشّغب تلاحق الشّعب
لأجل حراسة السرَّاق
نحن الشّعب لا يعننا ما تقوم به الكلاب المسعورة هذه
همّنا إعادة العراق إلى حضن العراقيين وبناء سبورة من
الأمنيات
على هيئة بغداد.

قص

الموتى لا يملّون الانتظار

فصل من رواية

محمد حيّاوي

لا أدري من أين أبدأ يا سارة!.. فأنا ميّت منذ عشر سنين. هل أخبرتكِ عندما كنتِ صغيرة بأنّني لم أقتنع بنمط الحياة الغربية؟ هل حدّثتك عن ذلك الشيء المبهم الذي أفزع روحي وأجفلها حالما وطئت قدماي هذه البلاد الباردة، التي لا تكفّ الريح فيها عن العواء ولا المطر عن الانهمار.. لولا وجودكِ يا سارة لما بقيت فيها لحظة واحدة، بعد أن ملأتِ حياتي البائسة بأطيافكِ الملوّنة وجمالكِ وموهبتكِ في الابتسام والمرح. هل تذكرين يا سارة عندما تستيقظين صباحًا وتطلبين منّي أن أعدّ لكِ البيض بالطريقة التي تحبينها، مقليًا على الوجهين، وقدح الحليب نصف الدسم المُحلى بعسل الأكاسيا؟.. منذ وفاة أمّك لحظة ولادتكِ وأنتِ محور عالمي كلّه.. حتى صرتُ أسير فوبيا فقدانكِ المحتمل. لم أخبركِ من قبل بأنّني راجعت طبيبًا نفسيًا فنصحني بالتعرف إلى امرأة جديدة، علّها تعيد مسار حياتي إلى صوابه، لكنّني كنت معطبًا تمامًا ولم تكن لديّ القدرة على تخيّل وجود امرأة أخرى في حياتي قد تشاطركِ حبّي وتقضي على ذكرى أمّكِ، وعندما بدأتِ تنضجين وجسدكِ يستدير وأصبحت تعانين من تلك التغيّرات البيولوجية الغريبة بالنسبة إلى فتاة في مثل سنّكِ، لم تكن لديّ الدراية عن كيفية التصرف أو النصح في مثل تلك الأمور، فلجأت لجارتنا مونيك التي صارت تتحدّث معكِ وتشرح لكِ معنى التغيّر الذي تمرين به وتشتري لكِ اللوازم الصحية الخاصّة، لكنّني لم أستطع التخلص من خوفي عليكِ وتتبعي السرّي لتحركك من دون أن تعلمين.

كنت أشعر بحرجكِ من تصرفاتي الحمقاء تلك وانزعاجكِ، وربما إحساسك بالخزي من منظري بلحيتي الشيباء ونظري الكليل وظهري المقوّس، وما زلت أتخيّل صاحباتك حين يسألن "هل هو جدكِ أم أبوكِ؟".

الذنب ليس ذنبي يا سارة، فطالما حلمت أمكِ بأن تنجب طفلًا لتتباهى أمام صديقاتها بأنّها امرأة كاملة، حتى عندما نصحها الأطباء بعدم الإقدام على مثل تلك المغامرة وهي على أعتاب الخمسين من العمر، قالت في سرّها، أن أكون امرأة حقيقية وأنجب، ولو مرّة واحدة، لهو أمر يستحق الموت دونه.. وهذا ما حصل، فقد رحلت من دون أن تتكحل عيناها برؤيتك، هل تدركين يا سارة كم هي ثمينة حياتكِ يا عزيزتي؟.. أنت تعيشين مرتين، مرة لكِ ومرة لها، فما زلت أراها في عينيكِ، نحولها وبياض بشرتها وأنفها الدقيق وتلك النظرة العميقة في العينين السوداوين، حتّى تلك الشامة فوق شفتكِ العليا. كل ما أرجوه يا سارة أن تعذري لهفتي عليك، فأنا موجود حولك دائمًا، أترقب خروجكِ من المدرسة حين تركبين درّاجتكِ أو تثرثرين مع أصدقائكِ، هل تذكرين حين قطع عليكِ الطريق ذلك الفتى اللاتيني بدراجته وضايقكِ حتّى كدتِ تسقطين؟ هل تذكرين كيف سقط مغميًا عليه عندما أصيب بحجر وواصلت طريقكِ بسلام؟ أنا الذي رمى ذلك الحجر يا عزيزتي، فقد كنت متداريًا في الحرش القريب لأراقبكِ. المرة الوحيدة التي أشعر فيها بالخزي يا سارة هي تلك التي وقفت فيها تحت المطر على مدى أربع ساعات أنتظر خروجكِ من المعهد لألحكِ ولو من بعيد، عندما خارت قواي وسقطت مغميًا عليّ، فتجمع حولي الطلبة والطالبات واتّصلوا بسيارة الإسعاف التي نقلتني إلى المستشفى، عندها عذرت إنكاركِ لي عندما سألك زملاؤك "هل تعرفين ذلك العجوز الذي سقط في الوحل مغميًا عليه بسبب الإعياء".

مرّ الآن أكثر من ثمانية عشر عامًا على رحيل والدتك، وما زالت لم تكحّل عينيها برؤيتك يا عزيزتي، كنتِ تخافين زيارة المقابر وأنتِ صغيرة، وطالما اكتفيتُ بوضع الزهور وحيدًا على قبرها، حينها كانت تقول لي بلهفة «صفها لي يا فؤاد.. هل هي تشبهني حقًّا كما تقول؟» فأصفكِ لها. آه لو تعلمين!.. كنت أشعر بعظامها تأتلق في القبر وروحها تخفق من حولي. يا إلهي يا سارة!!.. كم تحبكِ!

«لماذا لم تزرني كل هذه المدة؟» كان لسان حالها يسأل، لكنّها سرعان ما تتحسر وتقول «دعها تتمتع بشبابها يا فؤاد.. ما لفتاة صغيرة مثلها والمقابر يا عزيزي.. لِمَ تريد أن تخمش روح البُنيّة.. دعها تعيش حياتها بالطول والعرض.. دعها تتمتع بشبابها، فقد خذلتها حين أطلقتها إلى الدنيا وتركتها وحيدة ورحلت»، كم هو موجع كلام أمكِ يا سارة!،

محمد الداوود

كلما أحاول تغيير الموضوع تعيدني إلى النقطة الأولى، لقد حاولت أن أحدّثها عن رؤيتي لكِ أمس عندما كنت تمشين مسرعة مع إحدى صديقاتكِ عبر فسحة الحديقة العامّة ولم تنتبها للرجل العجوز الذي كان يرتدي قبّعة ويفرد جريدة أمام وجهه وهو يجلس على المسطبة القريبة، لقد سمعتكِ تتحدثين مع صديقتك بالهولندية عن شاب لاتيني أخطل يتودد لك، لكن الشيء الذي لن أنساه هو كركرتكِ حين ضحكتِ، لقد أخبرتُ أمكِ بأنّها تشبه كركرتها حين كنت أداعبها في المطبخ، النبرة نفسها وتكّسر تلك الأجراس الزجاجية الصغيرة نفسه يا عزيزتي، هل تذكرين آخر مرّة أحضرتكِ إليها؟.. كنتِ في الخامسة أو السادسة على ما أظن، حين رأيت بعض الصلبان التي تعتلي بعض القبور ورحت ترددين «Jesus» بعد أن علّموك في الحضانة شيئًا عن الصليب على ما يبدو. ماذا أفعل يا سارة؟ فحين ماتت أمكِ لم يكن لديّ المال اللازم لدفنها بطريقة لائقة، الدفن بطريقة لائقة مكلف جدًّا هنا يا عزيزتي، فلجأت إلى أصدقائها في الكنيسة القديمة ورتبوا قدّاسًا متواضعًا لسلام روحها، قبل أن يواروا جسدها الناحل القبر الصغير المنزوي قرب سياج المقبرة، حتى هي ما كانت لترغب بأن تُدفن في مقابر المسلمين يا عزيزتي، كنت أعرف رغبتها جيدًا.

مرّ الآن عشر سنين على موتي يا سارة، وما زلت أحدّث أمكِ عن جمالكِ، ونتخيّل معًا سعادتكِ مع ميغيل، أو ميغو كما تسميه، ذلك الشاب اللاتيني الذي تزوجته ورزقت منه بابنة تشبهكِ، وما تزال أمكِ لم تفقد الأمل بزيارتكِ ذات يوم، لكن لا يهم يا عزيزتي، فنحن نعرف مشاغل الحياة، وتربية طفلتك الصغيرة وأنت وحدك في هذا العالم الموحش، بعد أن خذلناك وتركناكِ وحيدة فيه، عزاؤنا الوحيد هو أن ميغيل شاب طيّب ويحبكِ جدًّا، ربّما سيسألكِ ذات يوم عن أمكِ وأبيكِ، ربما ستحدثينه عن ذلك العجوز الذي شج رأسه بحجر، حين حاول مضايقتك وأنت تضحكين من أعماق قلبكِ على تلك الحادثة، ربّما سيدفعك الفضول ذات يوم وتسألين في الكنيسة شبه المهجورة الآن عن مكان قبرينا يا عزيزتي لتحضري طفلتك ومغيل وتضعوا باقة من الزهور، فقد جفّت وتحللت آخر باقة وضعها فاعل خير منذ أكثر من عشر سنين على قبري حين دُفنت، لكن لا يهم.. خذي وقتكِ يا عزيزتي، فنحن نحبكِ كثيرًا، كما أن الموتى لا يملّون الانتظار.

روائي عراقي

ملف

التبرع بالخصوصية

هل أصبح الاستعراض الرقمي حصان طروادة العصر

شارك في إعداد الملف:

عوّاد علي، حنان عقيل، أبو بكر زمّال

من سطوة الأخ إلى نقد الصديق

الخصوصيّة والرقابة في العالم التفاعلي

سميّة عزّام

بات مفهوم الخصوصيّة وانزياح جدرانها، على غرار مفاهيم أخرى في العالم التواصلي - التفاعلي المعاصر، منفتحًا على ظاهرة هدم الحدود بين الثنائيّات الضدّية، وتداخلها وروغانها من أي تعيين. وما فهمهما في عالم يُعاد تشكيله بصورة دائبة، إلا محاولات للخلوص إلى رسم ملامح وجه، لا تحيط بدقائقه. ربما يبدو الأمر متاهة أسئلة، أو ضياعًا للحدود الفاصلة، وقد اعتاد العقل العلمي في العصر الحديث فهم محيطه من خلال الحتميّات وصرامة التعريفات. إنّما دائمًا ما يأخذنا أيّ ارتباك إلى «الفارماكون» - عقار فيه السمّ والترياق معًا. والذي غدا مصطلحًا تفكيكيًّا واصفًا لأيّ حالة تتضمّن وجهيها النقيضين؛ وتقدُّم وجه على آخر رهن بالكيفيّة والنسبة. نحن إذن في عالم نسبيّ بامتياز؛ والنسبيّة لا تعدل الفوضى والتعمية.

كما أنّ أيّ ظاهرة لها تمثّلاتها الاجتماعيّة، وتتجلّى في فضائها حركة التشابك بين الخاص والعام، والتناوب بين الذاتيّ والموضوعيّ، بحيث تحدث في إطارها تحوّلات في البنى الفكريّة والتصوّرات والأمزجة والسلوكيّات، لا مناص من تعدّد قراءاتها الممكنة، عبر الدخول إلى عالمها من منافذ متعدّدة في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة. والمدخل السوسيونفسي كما الوجودي يغدوان حاجة في التأويل، بوصفه فنّ فهم التجربة الإنسانيّة واختبارها، خصوصًا لدى اقتران مبدأ الخصوصيّة، وإشهارها عبر الوسائط الاجتماعيّة، بمفاهيم على شاكلة الوحدة وفكّ العزلة، والأنا الأعلى، والأنا المثالي، ومركزيّة اللوغوس / الرقيب، ودوافع التماهي والنرجسيّة والحريّة.

ولفهم هذا التداخل بين عالم الجالس أما الشاشة الزرقاء، وعالمها، يحضرني تشبيه «الهيكل» - المعبد - وهو انعكاس لعالم إلهي متخيّل. إذ أنّ عمارته تدلّ على الصورة التي يتمثّلها البشر بخصوص الإله المعبود المقام لأجله هذا المعبد. ويبدو كأنّه جواب أرضيّ عن أسئلة سماويّة قديمة. وتأويل الهيكل أنّه صورة العالم الصغير والعالم الكبير معًا؛ فهو إذن الإنسان والعالم. هكذا، فإنّ مستخدم وسائط التواصل الاجتماعي لنشر ما يخصّه من أفكار ومعتقدات، وصور توثّق مناسباته، وإن بدا وحيدًا أمام شاشته / صندوقه الأرحب، فهو غير معزول عن العالم الخارجيّ؛ منفصل - متّصل به، متفاعل ومشارك، وليس متلقيًا أو قابعًا في صورة سالبة.

إنّما يطرح هذان الاكتظاظ في الوجوه والأسماء، والسيل في المنشورات أسئلة الدافع، والقيمة المرجوّة، والضابط لهذا الدفق. أتذكّر في هذا المقام عنوانًا لمقال مفاده «أبطال بغير بطولة». فأنا أنشر صورة أو كلمة، إذن أنا موجود. ثمة تهافت، في هذه الحالة، على تأكيد الوجود في زمن التباس الهويّة واضطراب الانتماء وتزعزع الثقة بالذات؛ إنه الوجود بغير «حضور» بمفهوم وجودي. هذا الفضاء كما يتيح حرّية النشر، فهو يسمح أيضًا بحريّة النقد.

في كتابها «العلم والاغتراب والحرية» - مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية - ترى يمنى طريف الخولي أنّ عوامل البيئة والدوافع السيكولوجية لا تحرّكنا كما تحرّك الخيوط الدمى، بل تطرح احتمالات ما للسلوك المعيّن في الموقف المعيّن. وقصارى ما تفعله أن تجعل لواحدة من الإمكانيات احتمالية أعلى من سواها. فليس ثمة حتمية لا فرار منها. وتشير إلى أنّ دور المحيط يتأكّد بقدر ما ينصبّ على الدور الذي يمارسه كلّ من أعضاء الأسرة في شبكة التفاعلات العلائقيّة اللاواعية. كما توضّح كيف تدخلت مقولة الحرية في العلوم الإنسانية المعاصرة. فالصراع بين العلم والحرّية الإنسانية قد أصبح مرحلة قابعة في التاريخ.

يتعامل علم النفس مع واقعة الاختيار وظاهرة الحرية الإنسانية. ويبقى القول قاصرًا إذا لم نعد إلى دوافع التماهي وجذور حبّ الظهور والتعبير عن الذات؛ لاسيما أنّ العالم التواصلي الإلكتروني يبدو مساحة جذب ممتازة لتعزيز النرجسيّة - وهي الحبّ الموجّه إلى صورة الذات - والتماهي البطولي بأشخاص قد يراهم المستخدِم خارقين وذوي شهرة عريضة، فيسهمون في تشكيل «الأنا المثالي» لديه. ويجد هذا التكوين أصله في مرحلة من مراحل التكوين النفسي للكائن البشري، تُدعى «مرحلة المرآة». هذه المرحلة، بتعريف جاك لاكان تعني إدراك الصورة الذاتيّة في

المرآة، وتتّضح في التماهي بصورة الشبيه باعتباره شكلًا كلّيًا؛ حيث تظهر بوادر تشكيل «الأنا» في ما بعد. كما تتطابق مرحلة المرآة مع إطلالة النرجسية الأولى. في صورته الذاتية المرآوية، يبتهج إذ يتماهى بهذه الصورة. وهذا ما يعنينا في فهم أبعاد موضوعنا: البهجة التي يحدثها نشر الخصوصيّة، وتاليًا ما يقوّي النرجسيّة في سلسلة التماهيات الواعية واللاواعية.

إنّما ثمة ضابطان داخلي وخارجي لحركة الإشهار الإلكتروني؛ يعود الأوّل إلى مفهوم «الأنا الأعلى»، وهو بمثابة ركن يجسّد القانون ويمنع اختراقه، ويتماثل دوره مع دور القاضي أو الرقيب تجاه «الأنا». في الضمير الخلقي، وملاحظة الذات، وتكوين المُثُل العليا، بعض من وظائف الأنا الأعلى. وهو لا يتكوّن لدى الإنسان على غرار صورة الأهل، بل إنه يتكوّن فعليًّا على غرار صورة أناهم الأعلى هم أنفسهم؛ فيصبح ممثل التقاليد وكل الأحكام التقويمية التي تستمر خلال الأجيال على نحو ما. والضابط الثاني - الخارجي - يرتبط بما تبيّن في المفهوم السابق، ويأتي على صورة القسر والرّدع في المجتمع الأبويّ، وإن تغيّر شكل العلاقات الاجتماعيّة. في كلا الحالين، نجد أنّ حرّية الفرد مقيّدة ومحكومة بمنظومات تقويميّة عليا.

في المجتمعات التي تُحكم إغلاق دائرة العائلة - الصغرى والكبرى على حدّ سواء - توكل مهمة الرقابة إلى الأخ الأكبر بعد الأب، فضلًا عن سيادة مفهوم «المَونة» بالعاميّة بين أفراد القرية / القرى، أي حقّ الكبير بالنصح والإرشاد وتقدير الأصغر لمشورته وتقبّل لومه وربما تعنيفه، والإذعان له؛ وهو نظام بدأ يتفكّك شيئًا فشيئًا، ويُرفض في أوساط الجيل المعاصر، ليجد نظام «التفاعل المتفرّد» مع المحيط الأرحب مكانًا له يتوسّع باطّراد. إنما التجاور والالتباس سمة العصر، وما نخاله حرّية في رفض تدخّلات الأقربين، ليس بالهيّن الحكم عليه بصورته الحاليّة.

لعلّ مقولة الأخ الأكبر ووصايته تعيدنا إلى اسمين بارزين في تاريخ البشرية، هما قايين (أو قابيل) أخو هابيل ابنا آدم وحوّاء، وهارون أخو موسى (عليهما السلام) ابنا عمران، وقد مثّلا حالتين نقيضتين. قايين (المقتنى) مثال الأخ الأكبر الحاقد والحسود، وحيث أدى أخوه الأصغر دور الناصح والهادي. وبحسب الرواية، فإنّ الله لم يقبل أضحية قايين وقبلها من هابيل، لتتولّد الغيرة والضغينة في

قلب الأخ الأكبر فيعزم على قتل أخيه. حمل ردّ هابيل على أخيه نصحًا وإرشادًا؛ حيث بيّن له الوسيلة التي تجعل صدقته مقبولة عند الله. ثم انتقل من حال وعظ أخيه بتطهير قلبه من الحسد إلى تذكيره بما تقتضيه رابطة الأخوة من تسامح (لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك). ثم انتقل إلى أسلوب آخر في وعظ أخيه؛ إذ أخذ يحذّره من سوء المصير إن هو أقبل على تنفيذ فعلته.

أمّا ما جاء في حكاية موسى وأخيه الأكبر هارون؛ فقد عاشا في مصر في عصر فرعون، كان هارون معينًا لأخيه موسى، ثقيل اللسان، حين أراد أن يبعثه إلى فرعون لدعوته إلى الإيمان (ربّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي، واجعل لي وزيرا من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمري). لذا كان هارون متحدّثًا باسم موسى (أخي هارون هو أفصح مني لسانًا).

هكذا، فإنّ المثال الأول يظهر التناقض بين ما ساد في المستوى الاجتماعي لاحقًا بتقديم الكبير وصيًّا، وبين مقولات العالم الروحي - الإيماني البعيد عن تصوّرات الزمن المادي (نتذكّر في هذا المقام قصة يوسف مع إخوته، وتكريمه بالنعمة الإلهيّة وفق المعتقدات السماويّة). ولفهم الحاضر في ضوء هذا التراث، ندرك رفض انصياع شاب فتيّ لراشد، باعتبار أنّه أوسع معرفة تقنيّة منه، وأكثر مرونة في التعامل مع أدوات عصره، مسقطًا أسس منظومة اجتماعيّة سادت ردحًا من الزمن، ليعلي من شأن الصديق باقتراحاته وتنبيهاته في علاقة تسودها نديّة ينتفي معها السلوك الفوقي - السلطوي.

بالعودة كذلك بالأمر، إلى التراث الأدبي، نلقى خير مثال عن الصداقة الفاعلة، صداقة أنكيدو لجلجامش في الملحمة البابليّة؛ فنفقه العبرة من التحوّلات التي أصابت جلجامش على مستوى تصوّراته ومساعيه جرّاء موت أنكيدو الذي أضحى صديقه بعد منازلة وعداء. فماذا عن صداقات هذا الزمان، والأدوار المنوطة بها، خاصة في ساحة التفاعلات الإلكترونيّة وسرعة الانتشار؟ وهل خرج المرء حقًا من عباءة الأخ بوصفه معنّفًا ووصيًّا وناصحًا؟

المراقب لصفحات الفيسبوك وما يتمّ من تعليقات على المنشورات، يعرف تمامًا أن ثمّة رقابة كامنة تمارسها شريحة واسعة من الأصدقاء، وتتراوح حدّتها بين إعجاب / لاإعجاب في إبداء الرأي، لتصل إلى حدّ التنمّر والعنف الفيسبوكي. والشكل الإقصائي الجديد أو المحاسبة يتمثّلان في «البلوك» على صديق قد يكون ذا صلة معرفيّة في الواقع بصاحب الصفحة. لعالم المعلوماتيّة جرائمه وقوانينه، وقد تكون أشدّ فتكًا من سطوة الأخ في المجتمع الأبوي المغلق، والذي يحاول لملمة الخطأ لتفادي تعاظمه وافتضاحه، وتنجية قريب الدم من ألسنة اللوّامين والمتربّصين بهما، بوصف ما يصيب أحدهما من مهانة يمسّ الآخر حكمًا. بل إنّ دائرة المعارف كلّما اتّسعت بات الخطأ أكثر مفضوحيّة، وبالإمكان أن يودي بصاحبه إلى طلب العزلة أو القيام بالانتحار في أقصى الحالات مأساويّة. عليه، فإنّ من غير العلمية وصف شبكة وسائط التواصل الاجتماعي بالافتراضيّة.

في عالم التماهيات والإكراهات لا ذوبان أو تغييب للشخصية، وليس من حريّة مطلقة، بل ممكنة. وفي العصر اللاحتمي التعدّدي - كما تذهب بمنى الخولي - يظل الجُسيم المنفرد يحتفظ بشيء من الفردانية داخل القانون. إذ أنّ لاحتميّة العلم المعاصر تجعل كل حدث احتماليًّا بنسبة معيّنة. ولما كانت بدائل الأحداث قائمة، فإنّ حرية الإنسان كائنة. إنما الحرية ليست كيانًا أهوج مجنونًا، فنتصوّر عالمها اللاحتمي عماء وخليطا من فوضى. الحرية الإنسانية تعني إمكانية الاختيار بين بديلين أو أكثر. فلنا إذّاك، أن نقنّن ما ننشر ونحدّد من يرى ومتى، وأن نبقى في جهوزية لتلقّي أيّ ردّ فعل من عين ترصدنا باستمرار!

ناقدة وأكاديمية لبنانية

ما الذي سيراقبه الأخ الأكبر الآن؟

لم تعد هناك حاجة إلى جدران ولا إلى آذان

مبارك حسني

يحيل العنوان الثاني أعلاه إلى ما كان متداولا من قبل في زمن يبدو سحيقا حسب ما استحدثته التكنولوجيا الرقمية، كتعبير يحذر به البعض الآخرين بضرورة توخي الحذر عند الكلام وعدم الخوض في البوح الذي قد يؤدي إلى الهلاك. الثورة بالمعنى الذي أورده الفيلسوف ميشيل سير عند حديثه عن الثورات الثلاث التي عبرت بالإنسانية من مرحلة إلى أخرى، فالثورة الرقمية جاءت بعد ثورتين: الثورة التي حدثت بفضل اكتشاف الكتابة والثورة التي أعقبت اختراع المطبعة. إذن يظهر جليا أن جملة " للحيطان آذان" فقدت كل فاعلية في ظل الرجة المعلوماتية والانفجار الهائل الذي أبانت عنه الشبكة العنكبوتية عبر ما اصطلح عليه بالسوشيال ميديا من فيسبوك وتويتر ولينكدان ويوتيوب وواتساب وأنستغرام وسنابشات... هذه السوشيال ميديا التي يتم تعريفها ببراعة نظرية عجيبة على أنها "جماع الخدمات التي تمكّن من تطوير الحوارات وتمكّن من تقوية التفاعل الاجتماعي بواسطة النت أو في وضعية حركية".

هي تجربة علائقية بالأساس تفترض لزوما كما في أيّ علاقة إنسانية حوارية التعريف بالذات قبل كل شيء. غير أن الأمر يتجاوز التعريف الكلاسيكي بما أنه يتناول علاقات حوارات ممتدة في الزمن والمكان، وليست مرتبطة وجوبا بمن نعرفهم لحما وشحما.

وبالتالي فكل شيء صار متاحا بشكل واسع، ومستباحا على نطاق لا يثير الكثير من الحيطة، بل لا يثيرها إطلاقا لدى شريحة كبيرة من الناس الذين يستعملون النت في كل ثانية وفي أيّ بقعة من الأرض. وهذا الاتساع الهائل، ثم هذه الاستباحة المستمرة، لهما طابع ديمومة لا تنتهي. طبعا الحديث هنا يتعلق بالخصوصيات الفردية وبالحميميات الشخصية والعائلية والمهنية، وأيضا تلك المتعلقة بالمحيط بدءا من الحي السكني إلى الوطن الجامع، أي أن هذه المواقع صارت مسرحا لحياتنا اليومية.

وبالتالي لم يعد السرّ سرّا، كما قال الكاتب الفرنسي باتريك موديانو الحاصل على جائزة نوبل للآداب سنة 1914 "لقد غزت مواقع التواصل الاجتماعي الجزء الحميمي والسري من حياتنا الذي كان إلى وقت قريب ملكا لنا. السر الذي يمنح عمقا للناس ويمكنه أن يكون موضوعا روائيا". ويبدو الأمر أكثر إدهاشا واتساعا من ناحية سلبية بكون هذين التوصيفين لا جغرافية محددة لهما، بما أن العالم الذي تصفه شبكات النت ذو صبغة افتراضية ورقمية.

الغريب أن هذا الافتراضي مبنيّ ومؤسس على الواقع الحي الملموس وعلى الجغرافية الفعلية إلى حد أنه صار "هو الواقع الحقيقي" كما قال الفيلسوف الفرنسي ليك فيري، وذلك بما يعقبه من آثار وأفعال من طرف جماعات كاملة في مجتمعات دون أيّ تمحيص أو تحقق مما ينشر. وهو ما يثير القلق حتما وبشكل مشروع، فلا محدودية الافتراضي تتغذى مما تنهله أو "تمتصه" دون توقف من الواقعي الذي "يتحكم" فيه إراديا طبعا وظاهرا الانسان من خلال ما يأتيه من سلوك وتصرف لم يجبره أحد على فعلهما، وذاك عندما يدلي بكلام ويرسل صورا ويسجل حديثاً ويملأ استمارة شراء أو طلب عمل أو انخراط أو أداء، وعندما يحكي أو يطلب أو يشكو، أي كل الأفعال التي تدل على المشاركة التي تبدو بريئة ومجانية وغير ذات أثر غير تنمية الذات وإشهارها وإعلانها لنفسها على نطاق يريد أن يكون أوسع إلى أكبر حد ممكن. هذا ما دام هناك من يمنح إمكانية ذلك. أي وجود هذه الشركات المنضوية حتى مسمى السوشيال ميديا المذكورة أعلاه. فكيف لهذا الإنسان الذي كان يتحصّن خلف الجدران ويتهيّب من نشر ما يتعلق به على الملأ وفي الفضاء العام الذي انتقل إلى آلة بحجم الكف يفعل ذلك طواعية؟ بطريقة سهلة ويسيرة التناول في كل مكان وفي أيّ لحظة؟

فالسؤال الذي وجد جوابه فيما بعد، والمتعلق بمآل كل ما ينشره المرء عن نفسه من كمّ هائل من المعلومات، ما الفائدة التي تحوزها مقاولات الاتصال العنكبوتية من تقديم خدمات بلا مقابل مادي ما. هذه المجانية التي أثارت الاستغراب في البداية،

قبل أن يكتشف مستخدمها الفَرِحُ بها وبما تمكنه من تحقيقه بأنها مجانية ظاهرية، فـ"المنتوج الذي تبيعه هو هذا المستخدم ذاته". منتوج/مستخدم مكنها من التوفر على مواقع حصينة قوية في البورصة الأميركية، بما أنها أميركية؟ هذه الأميركا التي نعرف أنها وقبل الثورة المعلوماتية كانت دائما سباقة بشكل لا يضاهى عالميا إلى حيازة المعلومة في كل أقطار العالم ولو كان جزيرة مفقودة في المحيط الهادي. المعلومة التي تساهم في بسط سيطرتها اقتصاديا على نطاق واسع.

الفائدة هي هذه: لم تعد هناك حاجة إلى التنقل، المعلومة تأتي بنفسها. الأداة فقط هي التي تغيرت وصارت ذات فعالية قصوى وتتميز بتحقيق نتائج في اللحظة والحين. الأداة التي طوّر العلم من أدائها عبر برمجة تخزين المعلومات وترتيبها وتبويبها وتقسيمها وتحديد ما تتضمنه لكي تُستعمل لاحقا اقتصاديا وبالتالي سياسيا وإن بشكل مباشر. ويتكثف هذا العرض أكثر ولا فكاك منه بتاتا مادام أن الارتباط بمواقع التواصل الاجتماعي ضرورة حياتية لا محيد عنها في العصر الحالي. هي جزء من النسيج الحياتي اليومي لكل إنسان في أيّ مكان، خاصة وأن لها ايجابيات قوية لا يمكن التغاضي عنها بما توفّره من خدمات على جميع المستويات.

الأخطار والاختلالات

هي علاقة خدمة مقابل خدمة، لكن مع اختلال أول بميل توازن قوي لجهة مواقع التواصل الاجتماعي بطبيعة الحال. إن المستخدم الذي يفصل "كرونولوجيا" متجددة حول ما يتعلق بشخصه بجعلها عمومية وتغذي الموقع الاجتماعي المُدمَن عليه أو المُستعمل بشكل أولوي خاصة حول اهتماماته والأشياء التي يفضلها وما يثيره وما

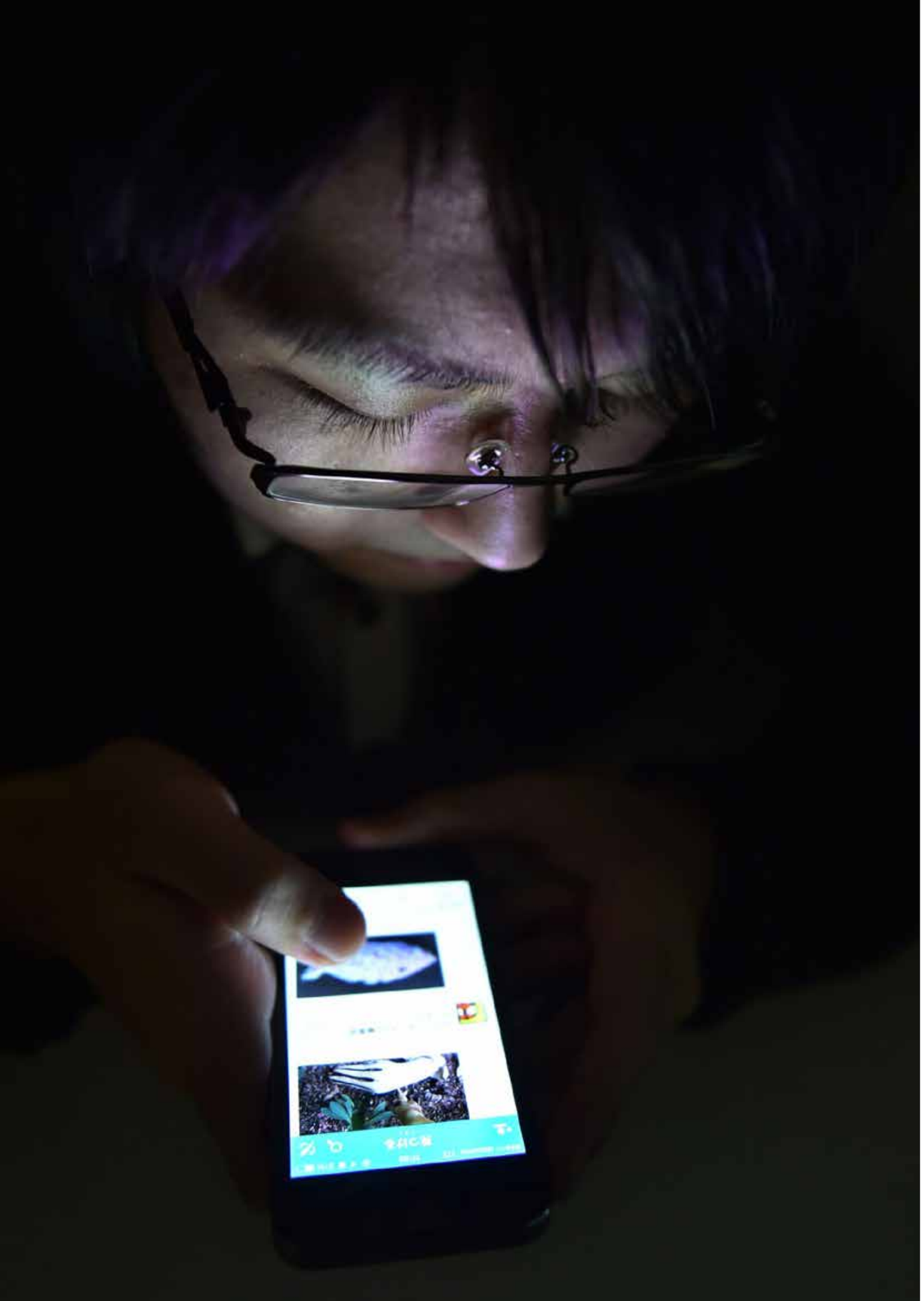

يعجب به، أي كل تلك المعلومات التي يمكن توظيفها من طرف شركات اقتصادية تسعى للحصول عليها وتؤدي الثمن اللازم لذلك. هذا دون طلب الإذن بشكل من الأشكال، رغم ميثاق الحفاظ على الخصوصية الذي تلتزم به هذه المواقع الاجتماعية المشهورة.

ورغم تأكيد هذه الأخيرة بوضوح في صفحاتها، خاصة موقع الفايسبوك، على ملكيته لكل ما ينشر صورا وكتابة وصوتا، وعلى حقه في بيعها لمن يريدها. إنها تملك حسب ما أعلن عنه على "ملفات رقمية" جاهزة للتوظيف والاستغلال. الأخطر أنها تظل لمدة طويلة ولا تندثر قط.

واختلال ثان يمس الخصوصية والحميمية كما تمت الإشارة إلى ذلك آنفا. وهنا يكمن الخطر الذي تخفيه جاذبية إرضاء الذات التي لا تقاوم ولا تردّ والتي تمنحها مواقع التواصل الاجتماعي. فهي قد تسرّع الانهيار العصبي، والقلق الحاد من جهة. ومن جهة ثانية فهي قد تشجع بكل سهولة التحرش المرضي من طرف أشخاص ذوي نوايا سيئة أو فقط في أنفسهم مرض. هذا مع ما قد ينتج من الاستخدام والمبالغة فيه حد الإدمان من فقدان الثقة في النفس وفي القدرات الشخصية وفي أهمية الفعل الذاتي عبر ما ينعكس من ردود عقب الصورة الذاتية المراد تسويقها للآخرين. هي أخطار حقيقية تدعو للكثير من التساؤلات التي تجب الإجابة عنها.

محك للأخلاقي والثقافي

ومن المنطقي حد البداهة البليدة أن الأمر لا يخص هذه الشركات، بل يمتد إلى الأقرب الأقربين وإلى البعيدين، من هؤلاء الذين كانوا يطلقون الآذان والذين لم يعودوا في حاجة إلى الاتكاء إلى جدران، بل فقط الدخول إلى حساب الشخص المراد تقفّي حياته وتتبع مساره، تبعا لحساب شخصي محض بعد "أن منحت مواقع التواصل الاجتماعي الحق في الكلام للأغبياء كي يدلوا بدلوهم في نفس مستوى شخص حائز على جائزة نوبل" كما باح بذلك في تعبير صار شهيرا الكاتب الإيطالي الشهير أمبرتو إيكو. كما تبعا لحساب جمع خاص أو حكومي مثلا كخدمة مطلوبة لذاتها لا تتوخى الربح المادي أساسا بل السيطرة على الفرد الموضوع تحت المراقبة.

لا يقتصر الأمر هنا على النرجسية فقط التي تميز الإنسان كطابع، والتي تظل طبيعية ومشروعة إن بقيت في حدود معقولة، ولا على الاستعراضية التي تجعل الفرد يتوق إلى أن يكون معروفا بهذا القدر أو ذاك وينال التقدير. فحين يظل هذان المظهران في نطاق المقبول والمعقول، يبقيان سلوكين إنسانيين، في ظروف عادية.

لكن مواقع التواصل الاجتماعي بقوة جاذبيتها مسحت وأزالت الحميمية، فمنحت مساحة المبالغة في الأمر بشكل "طبيعي" إن صح التعبير. خاصة وأن الأمر لا يتطلب مجهودا كبيرا ويتم في الخفاء: نشر خصوصيات الذات في المقام الأول ثم مقارنتها في المقام الثاني مع خصوصيات الآخر عبر آلية التلصص، بشكل إرادي أو لاإرادي. إنها عملية سلوكية تتم باستمرار وبسرعة فائقة بسبب الاتصال الذي لا ينقطع عبر النت، وهو ما لا يدع كثير وقت لما يشبه التقييم أو لأخذ مسافة أو مهلة كي يحصل تدارك التفكير إيجابيا وتقدير المحصلات السلبية.

التلصّص بمعنى الفضول الذي يتجاوز حدوده المعرفية والاستطلاعية ليُصْبَغ بما يقترب من الهوس الإدماني. وربما هذا ما عنته الكاتبة الفرنسية كارين تويل التي أغلقت كل حساباتها في المواقع الاجتماعية بدعوى "أنها تفشي الأسوأ فينا". وهو ما لا يتفق معه كتّاب مشهورون وجدوا في المواقع الاجتماعية ما يحقق لهم نفوذا واسعا ولا يجدون حرجا في استعمالها مثل الأمريكيتين جويل كارول واتس وباتي سميث والبرازيلي باولو كويلهو.

ما الذي سيراقبه الأخ الأكبر الآن؟

كل ما ذكرناه أعلاه يؤدي إلى حقيقة لا مراء فيها: كل شخص مرتبط بموقع من المواقع الاجتماعية أو بأيّ تطبيق كما كان نوعه يترك أثرا لا يمحى ولو أغلق كل حساباته الإلكترونية، لسبب وحيد هو أن ما نشره في النت أو في متاهات الشبكة العنكبوتية يتناقله الآخرون الذين يوجدون في إحدى لوائح علاقاته برضىً منه أو دونه. أي أن له "وجودا رقميا" فعليا ومتفاعلا ولو دون أن يبغي ذلك. وهذه الآثار المخلفة تعرّضه بطبيعة الحال للمراقبة والتتبع في أغلب الأحيان.

وهكذا تحققت بشكل واسع تنبؤات الروائي الإنجليزي جورج أورويل صاحب رواية "1984" الذي جعل من "الأخ الأكبر" أسطورة حية دون أن يدري أنها ستتجسد مستقبلا بطريقة مختلفة وبأثر جد كبير. فاثنتان من هذه التنبؤات أصبحتا ملموستين بشكل من الأشكال. الأولى تتعلق بخلق مجتمع المراقبة الكليانية الشاملة، والثانية هي اختلاق اللغة الجديدة المخادعة، أي تلك اللغة التي تتقلص عبر كلماتها مساحات التفكير.

قد يبدو هذا الأمر مبالغا فيه، وهو كذلك حتما، لكن التشابه ما بين عوالم قُطر "أوسيانيا" الوارد في الرواية وعالمنا الرقمي المعاصر وارد بوضوح مع قياس الفارق طبعا. لكن هذا لم يمنع الباحثين من استحداث أوجه التشابه. هذا ما ورد مثلا في ما اصطلحت على تسميته الكاتبة والباحثة الأمريكية شوشانا زيبوف بـ"رأسمالية المراقبة" في كتاب معروف لها أثار نقاشات واسعة، والذي قامت فيه بتحليل أثر المواقع الاجتماعية على مستقبل الناس في الغرب خاصة، ومن ثم على التصوّرات والأساسيات التي قامت عليها المجتمعات الغربية: الاستقلالية الذاتية والسيادة الديمقراطية، مادامت هذه المجتمعات قد غزتها قيم السوق الرقمي المسيطرة بشكل لصيق وحثيث من خلال ليس الأخ الأكبر الذي "يراكم" بل ما سمته بـ"الآخر الأكبر".

والحق أننا لا نستطيع سوى أن نلاحظ أن الرقمي هو قدر لا فكاك منه، هو المرادف الواجب والشرط الأساسي للعيش في عصرنا الحالي، بسلبياته وإيجابياته. في هذا الإطار نورد تعبيرا قديما آخر لتوصيف ما نحن بصدده: الفأس وقعت في الرأس.

كاتب وناقد مغربي

المجتمعات الافتراضية

الرهان على عقب أخيل

عمار يزلي

تدخّل وسائط الاتصال التكنولوجية الحديثة في مجال حياتنا اليومية، حوّل هذا التدخل في عالمنا العربي إلى شبه تداخل بين الأنساق البنيوية للمجتمع! أنساق بقيت لسنوات، إن لم نقل لقرون، خاضعة لمعادلة ثنائية: سلطة الحكم، ومحكومي السلطة! وما بين النسقين، شرائح تتمتع بشبه استقلاليات، لكنها في الوقت خاضعة لمعادلتي النسقين المتقابلين المتضادين، وهو ما نعرفه ضمن تشكيلة "الطبقات الوسطى"، التي تضم عادة شرائح المتعلمين والمثقفين والحرفيين والتجار.

ضمن هذه الأنساق الاجتماعية، ستتشكل ثقافة "التعامل مع" أو "التعامل ضد" ضمن جدلية الصراع من أجل البقاء (في السلطة) أو على الأوضاع القائمة من جهة، أو من أجل المطالبة "بالحق"، الذي تحول في أعين السلطة إلى باطل، فيما ستتعامل الأنساق "المتحكم فيها" ظاهريا على تحويل هذا "الباطل إلى حق" إذا اقتضى الأمر.

الصراع المفروض باسم الافتراضي

من هذا الباب، يبدو "وهم" الخروج من "توهم" الأشكال البنيوية التقليدية معيقا "لإيهام" التحرر من التقاليد والمجتمع الضيق المقلص للحريات، خاصة تلك الحريات الخاصة، الشخصية الذاتية، مطلبا اجتماعيا، أكثر منه سياسيا. لعل هذا ما جعل من وسائل التواصل، يشار إليها "بالاجتماعي"، فهي مطلب اجتماعي ثقافي قبل أن تكون وسائل إعلام أو تواصل سياسي، إنما أخضعت فيما بعد لمطلب حيوي في المجتمعات التي تعاني من الإكراهات السياسية، وتحولت هذه الوسائط الاجتماعية للاتصال إلى منابر يتداخل فيها السياسي بالإعلامي بالتواصلي الشخصي، بالاستهلاك والإشهار التجاري، مرورا بكل الأشكال المتداخلة التي تمنح في آخر المطاف قواسم المجتمع الكبير المشترك وغير المشترك فيه المسماة "خصوصية فردية"، والتي يراد لها أن تشارك في العملية التبادلية النفعية، كسلعة استهلاكية في آخر المطاف.

المواطن، المبهور والمشدوه أمام انفتاح المجال أمامه للخروج من الفضاء الضيق للاتصال المحلي والمناطقي، وأحيانا الأسري القبلي العشائري، وجد نفسه خلال فترة وجيزة، يتصور وكأنه تمكّن أخيرا من التغريد خارج القفص، وحتى دون إدراك أو معرفة مسبقة بما يفعل وبتبعات ذلك ومخاطر هذا الانفتاح على العالم الافتراضي، إلى درجة قبول تقاسم الخصوصيات العائلية والحميمية: صور وأحاديث ودردشات ورسائل صوتية ونصية، مرفوقة بقائمة "الأصدقاء والاتصالات"، يجد المستخدم نفسه يقاسم هذه الوسائط أسراره في ثقة الواثق من نفسه على أن العقل الإلكتروني الكبير هو "الصادق الأمين". التطمينات التي تسوّقها المؤسسات الاتصالية من هذا النوع رفقة كل أنواع "الضمانات" لسرية المعلومات والملفات والصور والوثائق، تجعل المستهلك يقبل على المغامرة، هي في الأصل مقامرة.. فهو في نهاية الأمر مجبر على التعامل مع هذه الوسائل على اعتبار أنه لا خيار له من دونها، إن كان يريد أن "يعيش عصره" ويرفض أن يعيش العزلة في "عالم صار قرية صغيرة"، مجبرا أن يتنازل إما طواعية وإما مقتنعا أنه في مأمن وإما جهلا بأن كل بياناته العائلية مكشوفة للجميع، إن لم تكن لمغامري اللصوصية والتلصص، فلصالح شركات الاتصال والذكاء الصناعي ومخابر وكالات الاستخبارات.. "الأخ الأعظم" (بعدما تجاوزنا عصر "الأخ الأكبر").

هذه البيانات، هي المادة الخام لمؤسساتها البحثية الإستراتيجية والتي توظفها ضد المستهلك من حيث يبدو أن هذا التوظيف هو لصالحه.. فهي في نهاية المطاف تجارة، يقبل بها الزبون ومعها يقبل بكل مخاطر الكسب والخسارة وبكل أشكال مخاطر السوق من تحايل وابتزاز وسرقة.. إنها المخاطرة الواعية التي تربك الوعي.. فالمدركون لهذه المثالب، على ضآلة حجمهم العددي، قياسا بغير المدرك بتفاصيل هذه الرهانات، مقبلون على بيع خصوصياتهم طمعا في عائدات إما ذات طابع تجاري نفعي أو خدماتي. المستخدم، يدرك حجم المخاطر والرهان، ولكنه لا يأبه بذلك، فهو في نهاية المطاف "مسلوب"، بفعل الإغراءات التي تفتحها له الشبكة العنكبوتية التي لا يقدّر مخاطر الوقوع في شراكها.. هذا الوقوع قد يكون سيكولوجيا عبر "الأوتيزم" السبرنطينقي(الإدمان)أوعبرالتشبعوالاندماج الكلي في عملية التنازل المستمر غير المتناهي

على الخصوصيات، بدعوى "الاقتسام"، التي هي عقيدة دينية، تمثل "الحق الذي يراد به باطل".. فالتّقاسم، تحوّل إلى عملية تبادلية تجارية، بحسب السوسيولوجي الفرنسي بيار بورديو، تتمظهر في شكل تبادل مصلحي، سلعي، خدماتي لا نهائي، أو في شكل تبادل تجاري نقدي، وغالبا ما يكون هذا التقاسم والتبادل "العيني" تقاسما للخصوصيات بغرض تسويقها كمنتجات سلعية، مقابل خدمات و"تحميلات وتطبيقات" للمستخدم تزيده إقبالا على إقبال، ونهما على نهم وشبعا على شبع لا يقوى المستخدم أحيانا على الفكاك منه.

يبدو للمستخدم العربي لوسائل التواصل الاجتماعي، المعاني من ضيق تنفس الحريات الفردية الاجتماعية الثقافية والسياسية والمحتقن في كل المجالات، أن هذه الوسائط، هي أدوات مقاومة متنوعة في انتزاع هذا

"الحق" أيّا كان شكله: إلهيا، دينيا أو زمنيا، على اعتبار أن احتكار السلطة لمختلف السلط، كان في غالب الأحيان في مجتمعاتنا العربية وغير العربية المتّسمة بالشمولية والهيمنة باسم كل العناوين: قبلية، عائلية، ملكية، رئاسية.. هو الشكل المهيمن للنظام السياسي الأيديولوجي من بين هذه الأشكال الجديدة التي تدخلت لتوسع دائرة التداخل بين الأنساق وتجبر النسق المهيمن على التخلي عن سلطة الرقابة "الأبوية" على "الأنساق الصبيانية"، وسائط الاتصال التكنولوجية الحديثة.. نحن نتحدث عن "نسق صبياني"، في نظر النسق الأبوي المهيمن.. فذهنية السلطة تستمدّ شرعيتها بالنسبة إليها أولا، من حيث أنها صاحبة الحق الأول والأخير في إسداء الرأي والتربية وتقسيم الثروة والوجيه والتكوين والتعليم، تماما كما يفعل الأب المهيمن على أبنائه: إنها سلطة الضبط! وهذا عين ما ذهب إليه ابن خلدون في مسألة تشكل الدولة و"الملْك العضد" وأفولها.. ذهنية تملك الملْك، الذي آل إليه السلطان، باعتباره ثمرة جهوده، التي تتحول إلى ذهنية التملك الفردي.. ملكية خاصة.. دولة ونظاما ومؤسسات، كلها تتحول إلى ملكية خاصة لمجموعة أو كتلة أو عائلة أو طغمة مالية! الشريحة الاجتماعية الوسطى، والتي عادة ما كانت وتكون، مدعومة من النخب غير المستفيدة من مزايا الحكم وتوزيع الريع والدخل القومي والقيم المادية والروحية، هي المحرّك لآليات المقاومة بغية افتكاك الحق باستعمال الباطل إن اقتضى الأمر.. فالغاية عادة ما تبرّر الوسيلة، ما دام أن نفس المعادلة مستعملة من الطرف الآخر المهيمن: جيش، أمن، إعلام رسمي، خطابة رسمية، قوانين..! في الجهة المقابلة، ستعمل الطبقات والشرائح الدنيا، تقنيات الإفلات من هيمنة وسيطرة الطغم بكل أنواعها وفي كل أشكالها، ومن بينها "الإعلام".

انتشار تكنولوجيا الاتصال، خاصة مع ظهور الجيل الثالث والرابع للإنترنت وقريبا الجيل الخامس، ساهم، ليس فقط في تغيير شكل "المقاومات الرمزية" لأشكال الهيمنة المحلية والعالمية، من تعامل شفهي، أو ما كان يعرف بمعادلة "من الفم إلى الأذن"، والذي هو قانون "الإشاعة"، إلى تعامل بالصورة والصوت والآنية، لسرعة تدفق المعلومة. فالمعلومة صارت تتدفق بشكل سيلان متعاظم ومتسارع حتى أنه لم يعد للسلطة المتحكمة لا الوقت في التصدي لهذا الإعلام "الشعبي" غير المنضبط، المشاغب، ولا الكفاءة في فعل ذلك. فالشباب المشحون قوة لا تقوى على التصدي له الشيخوخة المزمنة حتى ولو جندت طاقات شبانية لهذا الغرض!

ألـ"Buzz" ولعبة التحريض والاستهلاك

"البوز"، جزء من هذا التحوّل نحو المشاكسة الإعلامية والتشويش على الخطاب الرسمي عندنا. يبدو هذا هو المظهر العام عندنا في العالم العربي الذي عرف تحولات مريعة خلال العقدين الأخيرين بفعل تدخل هذه الوسائط في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية وفي كل مناحي الحياة اليومية، ويبدو هو المهمين، قياسا لتوجه "البوز" في الغرب، وفي أميركا مثلا. فإذا كان هذا "البوز" مرتبطا في الغرب بثقافة الاستهلاك وذا أساس تجاري تسويقي ترويجي، عوض معادلة "الإشاعة" والاتصال "بابا لباب ومن فم لأذن"، كما كان الشأن في تقنيات حقب ما قبل تكنولوجيا الجيل الثالث للإنترنت فإنه، وفي العالم العربي، ارتبط أكثر بالتعامل مع الواقع السياسي والاقتصادي والأخلاقي: ارتبط بالطابوهات وما أكثرها في العالم الشمولي أحادي اللسان والعين وعلى رأسها: السياسة، الدين والأخلاق. فقد كانت ثورات الربيع العربي تتكئ على هذه الوسائط وعبر منصات التواصل الاجتماعي، وبالأخص "الفيسبوك".

"البوز" يفيد "الإزعاج"، إلا أن هذا التوصيف الإلكتروني يبدو أنه صار من خلال انزلاق سيميولوجي، يحمل دلالة "التشويش" على الخطاب الرسمي ليقدّم نفسه في شكل خطاب مواز، خطاب يحمل كل الأشكال التقليدية للمقاومة الثقافية والرّمزية الصامتة من سخرية واستهزاء وتعرية وفضح وتنكيت، هازمة بذلك معايير السلطات في الضوابط العامة لمستهلكي الخطاب من شرائح وطبقات دنيا، ومخترقة، بل ومشوشة على نظم البث الرسمية وعلى مضامين الخطاب الإعلامي والسياسي الرسمي.

حسابات لسرقات "سحابية"

من هذا المنطلق، يبدو سوسيولوجيا، أن قبول التبادل القيمي ضمن التجارة العينية: خصوصيات مقابل خدمات، ترضي الحلقة الأكثر ضعفا التي هي المستهلك، لهذا نراه يحاول استعمال هذه الوسائط لصالحه بغض النظر عن مساوئها والمصالح التي يراد أن تجنى منها من الطرف المستثمر: خيار مفروض لا مناص منه.

تطوّر عالم تكنولوجيا الاتصالات، وسّع من دائرة التواصل. هذا التوسع، بقدر ما زاد في توسع التعاملات والتواصل بين الأفراد والدول الجماعات والمؤسسات المالية والخدمية، حوّل هذا التوسع إلى مجال التدخل والدخول غير المنضبط بل والإجرامي إلى حواسب وحسابات المتعاملين، باستعمال تقنيات التجسس الإلكتروني لصالح الشركات المنتجة والمسوّقة لهذه الخدمات، والتي تتعامل من خلال هذا الكم من المعطيات وبنوك من البيانات مع مصالح وذكاء خبرات دولية في كل المجالات لتوظيفها في سياق سياسات الهيمنة الاقتصادية أساسا، مهما كانت أبعادها. الفيروسات المساعدة على إفساد برامج الاستخدام هي في كثير من الأحيان رديفة لتلك البرامج المساعدة على كشف هوية الفرد أو الجماعة أو المؤسسة والدخول إلى بنك المعلومات والبيانات الشخصية وسرقتها ثم استعمالها لأغراض مغرضة وإجرامية، سياسية كانت أم مالية أم أخلاقية من فئة الابتزاز والضغط لأهداف غير أخلاقية في نهاية المطاف.

فالسرقات الرقمية في عالم الأعمال والبنوك، لم تعد وحدها هي الخطر، فهناك أخطار أكثر وهي سرقة البيانات والأسرار، أسرار الأفراد والدول وبرامج الأمن الداخلي للدولة والأسلحة وبرامج تطوير الصناعات العسكرية خاصة في مجال أسلحة التدمير الشامل.

الحسابات الفردية على وسائل التواصل الاجتماعي أصبحت هي الأكثر عرضة للقرصنة واستعمال الأسماء المستعارة ونشر المعلومات السرية عن الفرد أو الشخص مهما كانت صفته، بغرض الإساءة إليه. هذه الممارسات الاجتماعية، لم تكن معروفة في السابق بسبب عدم وجود إمكانية هذا التواصل الشبكي العنكبوتي في المجتمع العالمي اليوم. الويب، صار بيتا عنكبوتيا، يمكن لكل الممارسات الاجتماعية التي نعرفها سابقا في المجتمعات الحلية، توجد وبضراوة أكبر في المجتمعات الرقمية، خاصة وأن المتعامل هو مجرد اسم ولقب أو اسم مستعار، لكنه يحمل هوية رقمية "IP"، يمكن تتبعه ومتابعته عن طريق برامج خاصة لمراقبة التتبع "Trackers"عن طريق التتبع المضاد، حتى أنه لا يكاد يوجد حساب واحد أو جهاز واحد غير مخترق أو عصي عن الاختراق. والحرب القادمة ستكون حربا إلكترونية بالأساس، هي حروب سحابية عبر الحسابات.

الشركات العالمية المنتجة لبرامج مكافحة الفيروسات التجسسية أو التخريبية للبرامج والمواقع والحسابات، كثير منها أو جزء منها متورّط في إنتاج برمجيات من هذا النوع بعرض إنتاج برامج مضادة للفيروسات: فيه الداء والدواء، خاصة وأن كثيرا من برامج المضادة للفيروسات تحمّل من الإنترنت بمعدل كبير من الخطر من المصدر.

هذا اللهث من طرف المستخدمين للإنترنت عبر الهواتف المحمولة خاصة لسهولة استعمالها ومرافقتها الدائمة للمستخدم ليلا ونهارا، واستخدامها بغير الصورة المهنية والأخلاقية التي ينبغي التعامل بها معها، يعود إلى زمن الانغلاق والانحباس الإعلامي والتحكم في الخبر والمنع وتقليص حرية الإعلام والرأي، ممّا جعل المستعمل يلجأ إلى وسائل التواصل الاجتماعي إما منتجا للمادة المنشورة، صورة كانت أو فيديو أو نصا، أو استهلاكها، وهو الغالب. استهلاكها على أنها مصادر خبر حقيقة تنافس الصحف المكتوبة والقنوات الإعلامية الوظيفية (حتى لا أقول الاحترافية)، التي صار ينظر إليها على أنها غير ذات مصداقية لتحكّم الدولة والأجهزة القانونية في تسيير أسلوب نشرها للخبر أو التعامل معه. هذا التصوّر، الصحيح ولكنه خاطئ، جعل من المواطن يترك الإعلام الرسمي أو الصحيفة، كونه غير دقيق في تصوّره أو موجه في ظنه لكي يسقط في "إعلام الفتنة"، غير المهني، الذي لا أخلاق مهنية تتحكم فيه ولا روح المسؤولية، بل تتحكم فيه الأهواء والنزعات والغرائز والميولات الذاتية والجماعية، الغرض منها تسويق فكرة أو الحصول على أكبر عدد من النقز و"لايك"، لأسباب تجارية، يراد منها كثرة التصفح لنيل نقط الامتياز وبالتالي التحول نحو البحث عن التجارة عن طرق تزييف الحقائق واستعمال الكذب والدجل وكل أشكال الممارسات غير الأخلاقية التي يعاقب عليها القانون.

رهان تكنولوجيا الهشاشة البنيوية

ولعل أكبر رهان يواجهنا اليوم هو كيفية أخلقة التواصل عبر هذه المواقع وهذه الحسابات. صحيح أن المسألة مرتبطة بأخلاق الفرد، لكن ليس كل الأفراد على خلق وليس كل الأفراد لهم تصور واحد للعمل الاتصالي أو نفس الهدف، فالغايات كثيرة، والوسائل أكثر، والغاية تبرر الوسيلة في كثير من الأحيان.

القراصنة، عادوا أكثر انتشارا، بعدما كانوا مرتبطين بقرصنة البحار، صارت القرصنة السحابية اليوم أو الافتراضية هي أكبر مغامرة يقوم بها الجيل الرابع من الثورة السيبرنطيقية، التي بلا شك قد أنتجت كثورة معرفية اتصالية أكثر من ظاهرة اجتماعية ثقافية، علينا أن نواكبها ونتعرّف عليها قبل إنتاج ميكانيزمات التصدي لها عبر القنوات القانونية وتطوير المنظومة السياسية الجنائية لتشمل كل هذه الظواهر التي لم تكن معروفة، بل والتي باغتت دولنا ومؤسساتنا التي بقيت ضمن المرحلة التقليدية ولم تدخل عالم الرقمنة العلمية إلا مؤخرا وباحتشام أحيانا، في انتظار تهيئة النفس وإعادة رسكلة منظوماتنا القانونية والإدارية والبشرية وضخ دم جديد شباني في مجال الإدارة الرقمية للأعمال والعلم والمال. وهذا يتطلب جهدا جبارا في التكوين وفي المال وفي الممارسة اليومية، خاصة أننا مقبلون على جيل جديد آخر من التجارة الإلكترونية، حيث ستدخل القرصنة المجال واسعا للمؤسسات المالية والبنوك وأيضا الأفراد. فإذا كانت اليوم القرصنة مرتبطة بحسابات التواصل الاجتماعي وهي المنتشرة بكثرة، ففي المستقبل القريب سنجد أنفسنا أمام تفشي ظاهرة أكبر هي قرصنة الكبار، لاسيما وأننا في مواجهة كبار قراصنة العالم "الهاكرز" لما يتعلق الأمر بأسرار الدولة والمال العام والخاص والأسرار الفردية والجماعية. وقد لاحظنا كيف تمت قرصنة حساب وزيرة الخارجية الأميركية في موسكو من طرف قراصنة روس وكيف استغل القراصنة هذا الفعل في التأثير على مجريات الانتخابات الرئاسية الأخيرة في أميركا نفسها. فأميركا وروسيا وبقية الدول الصناعية والنووية كلّ ما تخشاه هو قرصنة شيفرة المنظومة العسكرية وخاصة الأسلحة غير التقليدية.

إن الأسرار المعدة للبيع مقابل خدمات "الإبحار" والتحميل، والتجارة بين الأفراد، من شأنها أن تفتك بالخصوصيات، لكن هذه الخصوصيات قد تخترق أيضا من قبل أشخاص ووكالات وتنظيمات، من شأنها أن تربك صاحب القرار والمستفيد الأكبر من هذه المنظومة الشبكية العالمية، مما يجعلنا نؤكد أن العالم اليومي يتجه أكثر فأكثر نحو "الهشاشة" البنيوية، ما يجعله مهددا بالزوال بالسرعة القصوى التي لم يعرفها تاريخنا الإنساني في أيّ محطة تاريخية له: فحضارة ما بعد الحداثة، قد ينتهي تمددها الهائل بالانكماش الفجائي في أيّ لحظة، على اعتبار أن كل ما زاد على حده انقلب إلى ضده.

باحث من الجزائر

وماذا بعد أن يصبح الإنسان مشاعًا؟

في عالم ما بعد الخصوصية

غيضان السيد علي

ازدهرت في أيامنا الراهنة مقولة "المابعديات" فكثر الحديث عن "ما بعد الحداثة"، وعن "ما بعد العولمة"، وعن" ما بعد العلمانية"، وعن "ما بعد الكولونيالية".. إلى آخر هذه "المابعديات" التي تنبهنا بأننا أمام عصر جديد فعليًا، عصر يتجاوز كل أطروحات الماضي البعيد والقريب ويجعلنا وجهًا لوجه أمام إشكاليات جديدة عويصة تتجاوز تلك الحمولات النقدية التي تسلّحنا بها عبر مقولات العصور الماضية، وتتطلب منا استحداث آليات جديدة للمواجهة. وتعد مقولة "ما بعد الخصوصية" (The post Privacy) إحدى المقولات المهمة التي فرضت نفسها على واقعنا الثقافي والعملي مستهدفة معالجتها والنظر إليها عبر أبعاد فلسفية وأنثروبولوجية واجتماعية ونفسية حتى نستطيع أن نقف على أبعادها ومراميها وتأثيراتها الراهنة والمستقبلية المحتملة على الفرد والمجتمع.

لما كان من الضروري لفهم مصطلح "ما بعد الخصوصية" الوقوف على حقيقة وهوية مصطلح "الخصوصية" المتجاوز ومعرفة ما له وما عليه. ومن ثم فإنه قد تم تعريف الخصوصية بأنها "قدرة الفرد أو الأشخاص على عزل أنفسهم أو معلومات عنهم عن مجال الآخرين المعرفي، وبذلك فإنهم يعبّرون عن أنفسهم بطريقة انتقائية ومختارة". أي إنَّ الأفراد يحفظون كل ما يخصهم من معلومات في سرية تامة بحيث لا يمكن لأحد أن يطّلع عليها، إلا ما يريد هذا الشخص أن يفصح عنه طواعية من خلال إفساح مساحة معلوماتية لما يريد أن يعرفه عنه الآخرون.

والخصوصية في الأصل موقف دفاعي يتحصن بداخله الأفراد والمؤسسات حتى لا يقوم المنافسون والخصوم والأعداء باستغلال المعلومات المتاحة واستخدامها في إلحاق الضرر المادي أو المعنوي بالخصم. فلكل فرد ومؤسسة الحق في المحافظة على خصوصيته بمعزل عن الآخرين. هكذا يقول عصر الخصوصية الكائن تحت السماوات المنغلقة.

ولما كان الإنسان كائنًا اجتماعيًا لا يعيش بمفرده، بل يعيش ويتعايش ويتعامل مع الآخرين بكل أشكال التعامل، وهذا التعامل يتطلب أن يعرف كل طرف المعلومات الكافية عن الطرف الآخر فكان لا بد أن يفصح الإنسان عن بعض المعلومات ويتنازل طواعية عن بعض الخصوصيات التي يحتاجها الطرف الآخر عن شريكه، وذلك لتحقيق مصالح مشتركة، ولذلك تختلف كمية وحجم هذه المعلومات الخصوصية حسب طبيعة التعامل؛ فالصداقة غير الزواج، والزواج غير الزمالة في العمل، والزمالة في العمل تختلف عن المشاركة في المشاريع والشركات الخاصة... إلخ.

كما أن القوانين الخاصة بكل دولة في الوقت الذي تحرص فيه على عدم انتهاك الخصوصيات وتضع محاذير قانونية لعدم انتهاك هذه الخصوصيات فيما يُعرف بالحق في الخصوصية الذي يعد حقًا من حقوق الإنسان وعنصرا في معظم التقاليد القانونية يدين اتخاذ إجراءات يمكن أن تهدد خصوصية الأفراد، إلا أن هناك في أعراف هذه الدول قوانين أخرى تحد من هذه الخصوصية بطريقة أو بأخرى، ومن قبيل ذلك القوانين المتعلقة بالضرائب والتي عادة ما تتطلب مشاركة معلومات عن الدخل الشخصي أو الأرباح العائدة من الممتلكات أو المشاريع الربحية، كما أن هناك بعض القوانين الموجودة في العديد من الدول تنص على ضرورة الإفصاح عن معلومات تعد خاصة في عرف العديد من الدول أو الثقافات الأخرى.

وتعد المعلومات التي تعبر عن الخصوصية هي تلك المعلومات التي غالبا ما تعدّ محمولا للموضوعات التالية أو كل ما يتعلق بها: الحياة العائلية، الحالة الصحية، الرعاية الطبية، المحادثات الهاتفية، الذمة المالية، الآراء السياسية، المعتقدات الدينية، موطن الشخص ومحل إقامته، وحرمة مسكنه، وحرمة مراسلاته، واسمه، وصورته، وحرمة جسمه، وحياته المهنية والوظيفية، وقضاء أوقات فراغه. وبناء عليه تصبح الخصوصية هي القدرة على السيطرة على تلك البيانات الشخصية التي لا شركة للغير فيها.

ومن معرفة مصطلح الخصوصية يمكننا الوصول إلى تحديد لمصطلح "ما بعد الخصوصية" والذي يشير إلى السيولة المعلوماتية التي تتوفر عن الأشخاص والمؤسسات عبر التقنيات الجديدة، ومن أهمها الشبكة العنكبوتية، التي تتيح قدرًا كافيًا ومعقولًا من المعلومات بمجرد ضغطة زر. أي إن الأنا أصبح عاريًا أمام الآخر، ولم يعد بمقدوره أن يستر حقيقته وخصوصياته عن أعين الآخرين. فعصر ما بعد الخصوصية يعني انتهاء عصر الملثمين فلم يعد لهم وجود.

ومن ثم يتم تهافت مفهوم انتهاك الخصوصية الذي يعني الاطّلاع على خصوصيات الآخرين دون علمهم، فالمعلومات متاحة للجميع، وقد تنازل أصحابها عنها طواعية، ويستطيع كل إنسان الدخول عليها دون محاسبة من أحد. ولهذا المفهوم أشكال متعددة منها الاطّلاع على كل بياناته الشخصية أو متابعة المواقع التي يزورها المستهدف على شبكة الإنترنت أو السلع التي تشد انتباهه لمعرفة سلوكه الاستهلاكي، ومحاولة معرفة ملفاته الشخصية التي توجد بجهازه مثل الصور الشخصية أو أوراق العمل أو غير ذلك مما يدخل في إطار الخصوصية.

والجدير بالذكر أن مواقع التواصل الاجتماعي - كالفيسبوك على سبيل المثال - تحمل الكثير من البيانات الحقيقية لأصحابها كالاسم الحقيقي والصور الحقيقية والانتماءات السياسية والأيديولوجية، والمهنة والحالة الاجتماعية والنوع ومكان الدراسة، والتي تكون متاحة للدخول عليها من أيّ فرد. ومن ثم يمكننا القول إن مفهوم الخصوصية التقليدية قد تهاوى بشكل صريح، وأن عصرنا الراهن قد تجاوز مفهوم الخصوصية إلى ما بعد الخصوصية؛ حيث أصبح الإنسان مشاعا وكلاّ مباحًا، فكل المعلومات الخاصة به أصبحت متاحة أمام الجميع أمام الأفراد والأشخاص والحكومات، وغاية ما يمكن أن يطالب به الموجودون على مواقع التواصل الاجتماعي أن يحصلوا على تنبيه (Notification) إذا ما حاول أحدهم معرفة معلوماته الموجودة على حسابه الإلكتروني.

عصر الشفافية وما بعد الخصوصية

مما سبق يمكننا القول بأن الخصوصية قد تلاشت إلى حد بعيد منذ أكثر من عقد، ودخلت البشرية منذ بدايات الألفية الثالثة مرحلة جديدة من الانفتاح المعلوماتي المتزايد على جميع مستويات المجتمع؛ وهو ما يمكن أن نطلق عليه عصر الشفافية بامتياز؛ وهو العصر الذي قالت عنه نوفا سبيفاك

(Nova Spivack) في مقالتها "عالم ما بعد الخصوصية" (The Post-PrivacyWorld) إنه العصر الذي أصبح فيه الحفاظ على الأسرار أكثر صعوبة، وبالتالي ينتقل التركيز من الحفاظ على الخصوصية إلى كيفية التصرف عندما يمكن اكتشاف كل شيء (من المعلومات الشخصية إلى أسرار الدولة) إذا تم تحديد ما يكفي.

وهنا تتحدد إشكالية عصر ما بعد الخصوصية من خلال السؤال المحوري والجوهري، وهو: كيف يمكننا أن نتصرف أمام انكشاف كل الخصوصيات أمام الآخر؟ أي كيف يمكن للإنسان اليوم أن يتصرف وقد أصبح مشاعًا، ليس لديه ما يمكن أن يخفيه؟ فكل شيء معروف من الجميع ومكشوف للكل، وليس بإمكانه أن يعود إلى الوراء، فالعودة مستحيلة؛ لأن خيوط اللعبة كاملة ليست بيده، إن رفضها هو لن يرفضها الآخر، وإن أهملها سيتم تجاوزه ويصبح نسيًا منسيًا، ويصير مثل من يترك عالم المدينة ليعيش في عالم الكهوف والمغارات ويستر جسده بجلود الحيوانات متجاهلا كل ما تم إنتاجه على مدار عصور طويلة من الأقمشة والمنسوجات.

وفي ظل العودة المستحيلة لعصور الخصوصية الماضية يصبح العيش في عالم الشفافية ضرورة ونتيجة في الوقت نفسه لسباق التسلح الذي لا يمكن وقفه في أدوات الاتصالات وقدرات التنقيب عن البيانات، والتي ترجع بدورها إلى التقدم المستمر، والذي يمكن التعبير عنه حسب قانون مور الذي ينص على أنه "تزداد تكلفة حفظ الأسرار بشكل عكسي إلى انخفاض تكلفة الحوسبة". ولذلك ليس أمامنا بدٌّ من التكيف مع هذه الحقيقة، وكما تقول سبيفاك "تبقى المقاومة عقيمة".

مزايا عصر ما بعد الخصوصية

لا شك أننا للوهلة الأولى سنعتقد أنه ليس هناك مزايا يمكن أن يتضمنها عصر ما بعد الخصوصية، ذلك العالم الكاشف للجميع، فلا توجد هناك سواتر من الممكن أن تستر ما تعمّد الإنسان أن يخفيه، فالإنسان دائما يكره أن يرى نفسه عاريًا مكشوفًا. ولا شك أن هذه رؤية متعجلة تحكم على العصر الراهن بأحكام العصور السالفة التي تم تجاوزها كليًا. ومن ثم يمكننا أن نرصد لبعض هذه المزايا لعصر ما بعد الخصوصية، أهمها:

• توفير كافة المبالغ المالية والجهود البشرية المبذولة للحفاظ على الخصوصية.

• سهولة معرفة الآخر والتعامل معه بقدر عال من الشفافية.

• تضاؤل نسبة الغش والخداع إلى أدنى مستو يا تها .

• توافر فرص واسعة للتلاقي والتعارف وعقد الصداقات وعلاقات العمل والتسويق للمنتجات وغيرها.

• اختفاء عادة التلصص على خصوصيات الآخرين، فلا خصوصية هناك يمكن التلصص عليها، ويصبح الأفراد والمؤسسات أكثر انفتاحًا.

• الشفافية تسهّل الوعي والاكتشاف والنقاش والابتكار والتعلم والتعاون والتطور.

• زيادة الشفافية تجلب المزيد من المساءلة، مما يعمل في الواقع على منع ارتكاب أيّ مخالفات في المقام الأول، ومن ثم يتم تحسين كل شيء.

ومن ثم يصبح العالم الأكثر شفافية لديه قدرة أكثر في أن يكون أفضل من عالم الخصوصية المفرطة والسرية. فعندما يكون لدى الأفراد والمنظمات توقعات بأن كل شيء يمكن اكتشافه، وأن لا مجال هناك لإخفاء المخالفات، فإنهم في الواقع يكونون أكثر حذراً ودأبًا على العمل وحرصًا على الجودة والإتقان. ولذلك يمكننا القول مع نوفا سبيفاك "إن الشفافية تحسّن الأعمال وأداء الحكومة والمجتمع ككل".

إذن يجب على الجميع في عصر ما بعد الخصوصية عدم محاولة إخفاء الأسرار فتلك محاولة بات مقضيا عليها بالفشل بعد أن تمت ميكنة كافة المعلومات الخاصة بالفرد على أجهزة الحاسوب المتصلة بالشبكة العنكبوتية، فالبيانات الشخصية صارت مميكنة ومتاحة في السجلات المدنية، والبيانات المالية كذلك في البنوك بل والبيانات الصحية الخاصة بكل شخص فقد تمت ميكنة تاريخه المرضي وكل ما يتعلق بصحته العامة وجيناته الوراثية. ولذلك يكون التصرف الأمثل كما تقول نوفا سبيفاك أنه "بدلاً من محاولة إخفاء الأسرار، يجب أن نركز اهتمامنا على كيفية مشاركتها، شارك أكثر بدلاً من أقل، لكن قم بذلك بشكل أكثر مسؤولية".

لا شك أن هناك خطورة جراء إتاحة المعلومات الخاصة بشخص ما وخاصة عندما يتم استخدام هذه المعلومات بشكل غير لائق. فلا شك أن استباحة الحياة الخاصة لشخص ما من قبل آخرين قد تسبب له بعض الأضرار، ومن ثم وجب علينا أن نضع استراتيجية واضحة تحمى الفرد من الاستعمال غير اللائق لمعلوماته في عصر السيولة المعرفية، ولعل أهمها على الإطلاق هي عدم السماح للأشخاص الملثمين بالتواجد وسط أفراد مجتمع لا يخفي شيئا، ومنا هنا يتوجب على مصممي مواقع التواصل الاجتماعي عدم السماح لأيّ شخص من الولوج إليها إلا بعد أن يكتب بياناته صحيحة، وليست بيانات وهمية. ويتم التأكد من ذلك بربط اسم صاحب الحساب برقمه القومي أولًا، وبرقم هاتفه الجوال ثانيًا، وهذه تقنية سهلة وممكنة بقليل من الجهد، حتى يكون الجميع مكشوفًا أمام الجميع ولا وجود للملثمين الأشرار.

ونختتم هذا المقال بضرورة التأكيد على الدعوة الصريحة للجميع بعدم التلثم في عصر تجاوز مفهوم الخصوصية الكلاسيكي؛ إذ يجب أن نتحرك جميعًا نحو صناعة عالم يتحلى بأكبر قدر من الشفافية على جميع المستويات من الفرد إلى المؤسسات إلى الحكومات، ويجب أن يكون السؤال الأجدر بشغل مساحة كبيرة من تفكيرنا اليوم، هو: كيف يمكننا تحقيق اتحاد عالمي أكثر شفافية بلا وجود أدنى خطورة ممكنة على الفرد أو المؤسسات أو الحكومات أو الدول؟ فهذا هو السؤال الأهم.

أكاديمي وباحث مصري

ملف

انتحار الخصوصيّة

تبخّر غطاء الحماية الذاتيّة وجنون الظهور

محمد صابر عبيد

يمكن أن نعدّ قضية التبرّع المجانيّ بالخصوصيّة واحدة من أخطر قضايا السوشيال ميديا المنظورة وغير المنظورة في آن، المنظورة من جهة نشرها على الملأ بتسابق إشهاريّ محموم يتضمن نشر كثير من النشاطات بالغة الذاتيّة بلا سبب موجِب، في سياق يكشف عن الغطاء التقليديّ الحامي للوجه الاجتماعيّ والأسريّ الخاصّ للشخصيّة الإنسانيّة، وغير المنظورة من جهة ما يمكن أن تتسبّب به هذه المشاعيّة من انعكاسات سلبيّة يمكن أن تتعرّض لها الشخصيّة من زوايا غير محسوبة وغير متوقّعة، على نحو يجعل الخصوصيّة في حالة انتحار بلا مأتم تجري على مرأى ومسمع من الجميع في وضح النهار وعزّ الليل.

الصور الشخصيّة هي ملك شخصيّ تمثّل تاريخ الشخصيّة في لحظة معيّنة من الزمن كانت تُجمَع وتُحفَظ في "ألبوم صور" للحفاظ عليها من التلف، ولا يعرضها صاحبها عادةً إلا لأصدقاء معدودين قد يكونون شركاء في بعضٍ منها، وهي تبعث نوعاً من الاستئناس والمتعة في التذكّر والاستذكار وتسجيل لحظات إنسانيّة جميلة خاطفة تؤرّخها الصورة بنمط معيّن من التشكيل، وكانت الكاميرا هي الأداة الفوتوغرافيّة العاملة في هذا المجال بحيث لم يكن امتلاكها أمراً ميسوراً للجميع، فهي غالية الثمن أولاً وتحتاج إلى اقتناء أفلام تُلقم بها الكاميرا حتى تكون جاهزة للتصوير، وحين يكتمل الفيلم يحتاج من جديد إلى تحميض واستظهار حتى تتحوّل الصور من شريط الفيلم إلى صور ظاهرة على ورق خاصّ بحجم الكفّ، ويمكن إظهارها على أحجام أكبر بحسب طلب صاحب الصورة إذ كانت محلات التصوير رائجة والمصوّرون الجوّالون يلتقطون صور الناس الراغبين في الشارع والمحلات والمقاهي والساحات العامة وغيرها.

تكاد تكون هذه التقاليد الخاصة بالصور الشخصيّة والجماعيّة في طريقها إلى الانقراض، بعد أن عوّضت أجهزة الموبايل الحديثة عنها وركنتها جانباً بما حملته من كفاءات تصويريّة عالية المستوى، ليس هذا فحسب بل ألغت تماماً ألبومات الصور وعوّضت بها ألبومات محفوظة في الجهاز نفسه بلا أفلام ولا تحميض ولا استظهار ولا ورق على شكل بطاقات صوريّة، يمكن لصاحبها أن يتلاعب بها على الأصعدة كافّة بلا حدود فيما يصطلح عليه "Play With Pictures" وبحسب الطلب والمزاج، على عكس الألبومات القديمة وهي تلزم حالة واحدة لا تتغيّر.

صار جهاز الموبايل آلة بانوراميّة تحوي كل شيء باقتدار وكفاءة عالية تتطوّر على نحو مجنون كلّ يوم، فهو محل تصوير واتصال وتسجيل وكلّ شيء تقريباً بما يجعل حامله قادراً على فعل أشياء عجيبة في هذا المجال بأقل ما يمكن من الجهد والمال والعناء، وعملت هذه الامتيازات العجيبة على انعدام فرص العناية بالآثار الجانبيّة التي يمكن أن تنشأ جرّاء هذا المنح الاستثنائيّ، فلا يوجد عطاء كبير على هذه الدرجة من الكرم بلا مقابل، وقد يكون هذا المقابل غير منظور وغير محسوب لكنّه موجود حتماً بلا أدنى شكّ.

يبقى جهاز الموبايل بما يحمله من إمكانات هائلة على هذا النحو أمراً شخصياً بالغ الخصوصيّة حين ينجح صاحبه في الحفاظ عليه بحيث لا يطّلع أحد غيره على ما يحويه من أسرار وخصوصيّات، وإذا ما تعرّض الجهاز للسرقة أو الضياع وصار في حوزة إنسان آخر فإنّ كارثة حقيقيّة تحلّ بصاحبه وقد يتعرّض للابتزاز والتنكيل لفرط ما يُخفيه الموبايل من أسرار شخصيّة بالغة الخطورة، لذا فإنّ إمكانيّة الحفاظ عليه ينبغي أن ترتفع إلى أعلى درجات الحماية والحراسة والدفاع إذ هو دفاع عن الذات والكيان والوجود والهويّة.

لكنّ انفتاح هذا الجهاز على تطبيقات السوشيال ميديا وبرامجها العديدة بما تنطوي عليه من فعاليّة تواصل سريع وواسع وشامل، أطاح بهذه الخصوصيّة وضربها في الصميم حين ضحّى الإنسان بكنوزه الذاتيّة وجعلها مشاعاً للآخرين بلا ثمن، فهو ما يلبث ينشر صوره على صفحاته بحثاً عن شهرة زائفة وإرضاءً لغرور ذاتيّ صغير كامن في منطقة غامضة من الأعماق، غير آبهٍ تماماً بما يمكن استغلاله من هذه الصور والتلاعب بها لتحقيق غايات غير شريفة وغير قانونيّة وشديدة الضرر، وهو ما يعرّض الإنسان

لأخطار جسيمة لا يدرك شأنها إلا حين يقع فيها فيكون من المستحيل عليه تجاوز نتائجها الكارثيّة أحياناً، فيقع في شرّ صوره بعد أن أخفق في الحفاظ عليها داخل حدود ذاته وشخصيّته وفرّط بها لصالح أوهام لا قيمة لها البتة.

لم يقتصر الانفتاح المحموم هذا على الصور فقط بوصفها المجرّد الذي يتحدّد عادةً باللوحة الشخصيّة وهي تعبّر عن الهويّة بالوجه وملامحه وتعابيره وحالاته، بل توسّع ليشمل الحالات الشخصيّة التي تعبّر عنها نماذج صوريّة مختلفة تحكي قصّة الشخصيّة بأزماتها وأفراحها وأتراحها وتحوّلاتها، على نحو يجعلها عارية أمام الجمهور بلا حدود ولا حواجز ولا مصدّات تفصله عن الآخرين وتمنع فضولهم وتردّ سهامهم الغازية في معركة سهلة، وأيّ معركة خالية من أدنى درجات التكافؤ تلك التي يتبرّع فيها الإنسان بعرض حالاته تحت مرمى رغبات الآخرين وجموحهم اللصوصيّ في الكشف والأخذ والمعرفة والاطلاع، فلا شكّ أنّه لا يمنع جولات التدخّل والفضول لكنّه يساعدها على الوصول إلى ما تريد بلا عناء كي يكون في مرمى السهام، ولات ساعة مندم.

تشكّل الأسرار الصغيرة الخاصة بالاهتمامات المتعلّقة بالذوق الشخصيّ (ما يحبّ الإنسان وما يكره) فضلاً عن الأزياء التي يفضّلها والعادات والتقاليد الأسريّة أهم معقل من معاقل الخصوصيّة الذاتية، وإذا ما تمّ انتهاكها لأيّ سبب وتحت أيّ ظرف وفي أيّ مناسبة فإنّ جزءاً أساسيّاً من أجزاء كبرياء الإنسان وكرامته ومستقبله تصبح في خطر، فكيف إذا كان هذا الإنسان نفسه هو من يعرّض هذه الأسرار للانتهاك ويحرّض عليها حين ينشرها على صفحاته في التطبيقات بلا أدنى مسؤوليّة، لا بل يعدّها مصدراً للتفاخر والتباهي من دون التفكير بعواقبها حين يمكن استغلالها من طرف آخرين بوصفها وسيلة للابتزاز أو التنكيل أو الانتقام أو غير ذلك.

لا يقف الأمر - للأسف - عند هذا الحدّ بل يتجاوزه إلى وصف الطعام الذي يتناوله وتصويره في مناسبات خاصّة وعامّة، ووصف المناطق التي يزورها ويرتادها وحده أو صحبة عائلته أو أصدقائه وتصويرها على نحو يكشف عن عادات وتقاليد غاية في الخصوصيّة، لا يمكن إتاحتها للآخرين بلا وعي ولا إدراك ولا مسؤوليّة وكأنّه يصنع من نفسه وأسرته وأصدقائه هدفاً سهلاً لكلّ من يتربّص به لأسباب قد لا يعلمها أحياناً أو لا يتوقّعها، وإذا ما امتدّت سلسلة التبرّع بالخصوصيات إلى مستوى الكشف عن المعتقدات والدفاع عنها بلا مبرّر ضدّ آخرين لهم معتقدات أخرى، على نحو يثير الكراهية والبغضاء والطائفيّة ويعرّض الذات لخطر غير ماثل في الذهن من جهات إرهابيّة تلاحق ذلك، فإنّ الأمور تبلغ درجة قصوى من السوء والخطر قد يتعرّض فيها الإنسان للتصفية الجسديّة في أعمال إرهابيّة تَقتلُ على الهويّة، وهي جاهزة ومستعدّة بقوّة لاقتراف مثل هذه الجرائم في أيّ لحظة، ولا تحتاج في ذلك إلى أسباب ومبرّرات تُقنِع فيها الضحية أو المجتمع الذي يقف وراءها بصواب وجدوى ما تفعل. تتفاعل احتمالات الخطورة أكثر حين يتمّ

تصوير المنزل الشخصيّ في وسائل التواصل بحيث تكون رؤيته متاحة للعامة وهو سرّ شخصيّ بالغ الخصوصيّة، لكنّ كثيراً من مستعملي وسائل التواصل الاجتماعيّ يبالغون في نقل صور منازلهم ومحتوياتها وحالاتها وزواياها، بما في ذلك المكتبة والصيدليّة وهما من أدقّ الأسرار التي لا ينبغي أن تُكشف لأحد مطلقاً، بما يجعلهم عرضة للافتضاح وكأنّ منازلهم وبيوتهم بلا أبواب ولا جدران ولا أسيجة، وكأنّهم بذلك يغرون اللصوص والسرّاق ويحرّضونهم على وضع هذه البيوت والمنازل في مرمى اهتماماتهم اللصوصيّة بالنظر أو الفعل معاً، فكيف يمكن بإزاء هذه الأحوال أن يتمتّع الإنسان بخصوصياته وينظر إليها بوصفها عالماً صغيراً مستقلاً لا يشاركه فيه أحد غريب؟

ها هو الغريب يدخل إلى باحة هذه الخصوصيات برحابة ويسر وترحيب مسبق ومن غير أيّ مشاكل، بمعرفة صاحبها وتشجيعه بعد أن يقدّم تسهيلات لا يحلم بها الآخر مهما حاول كشفها بسبل أخرى يسعى إلى ابتكارها واختراعها، بما يجعل من الغريب البعيد قريباً أقرب من حبل الوريد يحظى بامتيازات كبيرة ذات طبيعة مجّانيّة.

لو أحصينا نمط هؤلاء الناس المشغولين بعرض صورهم وحالاتهم وأسرارهم بمتعة فائقة لاكتشفنا أنّ معظمهم يعاني من عقدة متأصّلة في الذات، أو نقص، أو مرض نفسيّ، يتعلّق برغبة جامحة للظهور كانت مكبوتة في داخله وأتيحت الآن فرصة لتفجيرها على هذا النحو، لأنّ هذا الغزو المضاد للذات يستحيل حصوله بلا دوافع مَرَضيّة تهدف إلى سدّ نقص واضح في التركيبة العقليّة لهذا الإنسان، وهو يعوّل على ما يحصل عليه من إعجابات وتعليقات من أشخاص لا يختلفون عن وضعه النفسيّ المريب والقلق، حين يتوهّم بذلك أنّه قد فَعَلَ ما يثير إعجاب الآخرين ويحظى بعنايتهم ورعايتهم بما يجعل منه نجماً على منصّات وسائل التواصل، تغذّيه نزعة شرسة غامضة لتعرية كلّ ما يملك من خفايا وأسرار وخصوصيّات يحسب أنّ إباحتها على هذا النحو وسيلة من وسائل الشهرة والنجوميّة، ويعزل من شاشة فعاليّاته أيّ شكل من أشكال الحذر والترقّب والحساب إذ يكون قد وصل إلى درجة عالية من غسل الدماغ، فلا يرى إلى صدى تلك الإجابات والتعليقات الباهتة التي ليس بوسعه تقويمها على النحو المطلوب لكشف زيفها وتفاهتها وبلادتها.

تتحرّك الرغبات المحمومة الجامحة للماكثين أغلب أوقاتهم على هذه المنصّات نحو البحث عن أمجاد وهميّة صغيرة، مأخوذة بجملة ما يصلهم من تعليقات وإعجابات لا تعبّر دائماً عن رأي موضوعيّ بقدر ما تندرج في سياق المجاملة العابرة، فيخفقون في التمييز بين الصالح والطالح، بين الذهب والصفيح، بين الأبيض والأسود، وهم يغرقون في حالة من العمى يتلمّسون فيها الحصى فيتصوّرون أنّها جواهر وحجر كريم.

المواقع الاجتماعية والتطبيقات والبرامج العديدة التي تتشكّل منها الشبكة العنكبوتية هي عبارة عن صحافة مجانية وميسّرة ودائمة الحضور، تسمح لمن لا عمل ولا شغل له أن يداوم فيها على مدار اليوم وينشر فيها ما يشاء، حتى أنّ بعضهم يبدأ من الصباح الباكر كي يقول لأصدقائه "صباح الخير" ثمّ يتواصل معهم في منشورات بلا عدد ولا حساب ولا قيمة، حتّى يشرف الليل على منتصفه ليودّعهم بعبارة "تصبحون على خير" في دوام مستمرّ لا يبقي شاردة أو واردة إلا وأتى عليها، ويتعامل بروح الهيمنة والأستذة أحياناً على من يستجيبون له ويتعاطون معه إعجاباً أو تعليقاً، وقد نصّب نفسه شيخاً يعرض نفسه وما يملك على معجبيه ومناصريه وكأنّه في بيته ومع أسرته وأقاربه عارضاً كلّ شيء على الملأ بلا حدود، في حالة تطابق شديد مع الذات يتمركز حولها ويغذّيها بما هو متاح من سبل التعظيم والتكبير الوهميّة.

يتأكّد جزء كبير وواسع من المشكلة في سهولة تقديم الذات على هذه المنصّات إذ يتاح لكلّ شخص بصرف النظر عن مرجعيته وخلفياته التعليمية أو الثقافية استخدام تطبيقات التواصل، ليتحوّل من كتب كلمة على صفحته في أيّ تطبيق على الشبكة العنكبوتية إلى كاتب أو شاعر أو مفكّر أو ما شاء الله من الصفات المعرفيّة الكبرى، وهو ما يلبث أن يصدّق هذه الأكذوبة ويتحرّك إلى اعتمادها في إطار تشكيل علاقاته مع الآخرين داخل هذا الفضاء الافتراضيّ العجيب، إذ لا يحتاج سوى مجموعة من الإعجابات والتعليقات التي تضعه في مصاف كبار الكتّاب والشعراء والمفكّرين حتّى يكون كذلك في نظر نفسه، ويواصل فعاليّة هذه الأكذوبة مهما أدّى ذلك إلى سخرية العارفين منه وممّا ينشر لإيمانه أنّه على حقّ، وأنّ عدد معجبيه ومعلّقيه من الأميين مثله كفيل بحصوله على هذا اللقب والتفاخر به بلا خجل.

ثمّة مثل شعبيّ بالغ الحضور والتداول والشيوع يقول "المال السائب يعلّم الناس على السرقة"، ويحضر هذا المثل على أبلغ ما يكون في حالة التبرّع بالخصوصيات على منصّات التواصل الاجتماعيّ حين يتمّ فتح أبواب شهيّة التلصّص ونوافذها على مصاريعها أمام الراغبين بالسرقة، فهي مال ثمين لكنّه سائب ومتاح لسرقات لا يحاسب عليها القانون لأنّ صاحب المال هو من يبالغ في جعلها سائبة في متناول الجميع.

بلغ الأمر على صعيد تشتّت المعايير وضياعها وتلوّثها شأواً بعيداً في صوغ قوانين وقواعد جديدة للتعامل بين البشر، في عالم افتراضيّ لا يكفّ عن تطوير آليّاته على النحو الذي يجعل إمكانيّة الاحتفاظ بالخصوصيّات حلماً مستحيلاً، أو على الأقلّ بعيد المنال، فالمرونة التي يتيحها هذا العالم الافتراضيّ في سرعة التعامل ووحشيته وجبروته وسهولته في آن، يقود ضرورةً نحو تفكيك كلّ أشكال الحصانة وتعريض الذات للتمزّق والطعن والإباحة والنشر والافتضاح، ممّا يستوجب أكبر الحذر والتحسّب والمراقبة وإعادة النظر في الخطوات التي يخطوها المرء في هذا العالم، ولا ينسى أنّه يمتلك عقلاً ينبغي استخدامه واستثمار طاقاته الجبّارة مهما تعالتْ مغريات إهماله وتصميته وإبعاده عن حقل العمل.

ممّا لا شكّ فيه أنّ الأسماء الوهميّة والصور المموّهة التي يضعها في الغالب مستخدمو منصّات وسائل التواصل الاجتماعيّ على صفحاتهم، تشكّل خطراً أكيداً على آليّة التعامل بين قائمة الأصدقاء الذين تشملهم فعاليّات هذه التطبيقات، ففيها يتاح للمستخدمين وضع أسماء لا تخصّهم وصور منقولة أو مفبركة لا تعبّر عن حقيقة صاحب الصفحة، غير أنّ كثيراً منهم لا يقبل صداقة أحد على الفايسبوك مثلاً قبل معرفة طالب الصداقة على حقيقته، وبعضهم يقبل حين تكون طالبة الصداقة امرأة لأسباب دونيّة تتكاثر في مجتمعاتنا المحرومة من صوت المرأة وصورتها ورائحتها، وهو ما يثير لبساً غير قليل في مواجهة التعرّض للخصوصيّات ونشر الأخبار أو صناعتها على وفق مناهج وسياسات لا علاقة لها بالحقيقة.

ناقد وشاعر عراقي

ملف

شهوة الحضور وانفجار المكبوت

الفيسبوك وتجليات الذات المقموعة

أحمد برقاوي

عل أدق تعريف للفيسبوك هو: الجريدة اليومية الخاصة التي يصدرها الإنسان العادي عن أحوال ذاته متى يشاء وكيف يشاء. ها هو يكتب سيرته اليومية دون أي اكتراث بالقارئ. يعرض تحولاته، يجعل من الفيسبوك منبره الفكري والأخلاقي. يكتب فيه أخباره وأخبار دنياه القريبة والبعيدة. يعبّر فيه عن فرحه بذاته وغضبه من غيرة، ينفس فيها عن غضبه وتأففه بلغة بسيطة محكية.

كاتب الفيسبوك، بعامة، ليس كاتباً محترفاً الكتابة، وهو بالنسبة إليه مكان لممارسة شهوة الحضور. فيما قامت النخب بعملية غزو لهذه الوسيلة أملاً منها بتعميم أفكارها وأدبها وفنها. ومن فضائل هذه الوسيلة قدرتها على إزالة التراتبية بين الفاعلين فيها.

فلا يوجد معلم ولا تلميذ، ولا أستاذ ولا طالب ولا كبير ولا صغير، فالكل سواسية بالحق في التعبير والحضور، بمعزل عن طريقة التعبير ودرجة الحضور.

ومن سيئاته أن أوجد منبراً للحمقى والوقحين والكذابين ومشتهي الحضور الذين لا يتوافرون على هذه الإمكانية والتأريين.

هذه السيئات يجب ألاّ تنسينا أمراً هاماً جداً، ألا وهو أن الإنس قد اعتادوا على سماع ما لا يرضيهم. وكانوا قديماً يكتفون بالنميمة مجهولة المصدر.

أما الشيء الذي يُحمد للفيسبوك انكشاف أخلاق الناس وقيمهم وذهنياتهم، وبناهم النفسية. فلغة الخطاب والعلاقة بالمختلف، وقيمة الصداقة، والذهنية وردود أفعال الجماعات والأفراد، كل هذه التعينات البشرية باتت مكشوفة. لقد قرر الفرد أن ينكشف ويكشف.

فغياب المواجهة وجهاً لوجهة وفّرت للذين بينهم مسافات أن يعبّروا عن مكبوتاتهم الشعورية واللاشعورية، حتى ليمكننا القول بأن الفيسبوك صار أفضل مكان لممارسة الفجور اللفظي، وظهور سريرة الناس، من جهة، والتعبير العفوي عن المكبوت اللاشعوري والمكبوت الموصى به.

والأهم ممّا سبق ذكره قدرة هذه المنصة على كشف أنماط الوعي السائدة، من الوعي الاجتماعي إلى الوعي السياسي مروراً بالوعي الديني والوعي العلمي. فهذه الملايين المعبّرة عن مواقفها من الحياة تنتمي إلى مختلف شرائح المجتمع وفئاته ومراتبه. وهذا مما يضع في يدي الباحث السوسيولوجي والسيكولوجي والأنتروبولوجيا عينات عشوائية ومقصودة مختارة لدراسة الوعي، لا سيما وإن أفراد الفيسبوك يشيرون إلى العمل والمهنة ومستوى التعليم والمكان. وهذه العينات أكثر صدقاً من العينات التي كان الباحث يتحاور معها ويطرح عليها الأسئلة.

أجل، باستطاعة السوسيولوجي والسيكولوجي أن يعتمدا بكل اطمئنان على الفيسبوك، للحصول على أيّ عيّنة يريد، للقيام بدراستها في موقفها من أيّ مسألة من مسائل الحياة المعيشة.

فالغالب في الكتابة الفيسبوكية أنها متحررة من الرقابة الخارجية والداخلية، وبالتالي إذا طرح الباحث سؤال بحثة، وراح يفتش في الفيسبوك عن جواب السؤال، فإنه سيحصل على نتيجة أفضل بكثير مما لو طرح السؤال مباشرة على عينة محدودة عشوائية أو مختارة.

عيّنة للتأمل

إن سؤالاً مهماً واحداً تطرحه صفحة أحد المشاهير أو موقع ذو شأن أو حتى بروفايل عادي، فإنه سينال من الردود ما لا يخطر على بال. بل إن "بوست" عاديا يطرح رأياً مخالفاً لرأي جمهور أيديولوجيا ما، حتى يكون لديك مادة لفهم الوعي من عينة تُقدر بآلاف الأشخاص دون عناء.

ففي 5 حزيران 2015 كُتب على حسابي الفيسبوكي تحت عنوان فكرة ما يلي:

"فكرة":

"قال الجنرال السوداني عمر البشير إنه ماض في تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان.

إني لأتساءل ما هي الشريعة الإسلامية التي يسعى لتطبيقها هذا الجنرال؟ هل هناك في الشريعة الإسلامية قانون للسير؟ أو قانون لتنظيم الجامعات؟ أو قانون للاستيراد والتصدير؟ أو قانون للصحافة والنشر؟ أو قانون للأحزاب والهيئات المدنية؟ أو قانون للبناء وتخطيط المدن؟ أو قانون مالي للبنوك والضرائب والشركات؟ أو قانون للملاحة البحرية والجوية؟ أو قانون للعمل؟ أو قانون لحقوق الملكية والنشر، أو قانون للعقوبات

الخارق لكل هذه القوانين.

ما هي الشريعة الإسلامية غير تلك المتعلقة: بحد السرقة والزنا والإرث والزواج والطلاق، وبعض أشكال البيع والشراء البدائية. وبالمناسبة ليس في النص القرآني عقوبة دنيوية لتارك الصلاة وللمفطر في رمضان ولشارب الخمر ولخلع الحجاب ولعدم الحج لمن استطاع.

يا أيها الناس كبّروا عقولكم. الحياة أغنى بكثير مما تعتقدون. منطقة واحدة في دبي أكبر من مدينتي مكة ويثرب في القرن السابع الميلادي. أتركوا للحياة ما للحياة ولله ما لله.

مأزق الطغاة العسكريين أنهم عادوا الحياة والإنسان والحرية. وكبلوه بأغلال صدئة. لا للأغلال من أي نوع. الحرية الحرية، الكرامة الكرامة، الحاجات وتلبيتها الحاجات وتلبيتها. اخرجوا من تلك الكهوف المظلمة كهوف الطغاة من كل أنواع الطغاة."

جاءت ردود الفعل كالتالي:

"أكثر من الف إعجاب. 219 مشاركة. ألف تعليق، أكثر من تسعين بالمئة من التعليقات جاء من أصوليين، جميعها شتائم بكلمات بذيئة، بل واستخدام أسماء الأعضاء التناسلية للنيل من أمي وأختي، وكلها تشارك بجملة واحدة قيلت بأشكال مختلفة: (الإسلام، يا جاهل، صالح لكل زمان ومكان). إن أصحاب التعليقات عينة عشوائية عبّرت عن موقفها ومشاعرها دون أن يحملها أحد على ذلك، هذه العينة تسمح لك عبر دراسة تعليقاتها أن تعرف شكلاً من أشكال الوعي الديني.

انفجار المكبوت

حين مات المفكر الإسلامي محمد شحرور، كان هناك انكشاف شديد للناس في موقفهم ليس من شخص محمد شحرور بل من فكرة تجديد التأويل للنص القرآني، حتى التعبيرات المشينة التي قيلت بحقه تسمح بقياس درجة العنف لدى الناس.

الفيسبوك ليس طاولة حوار، بل هو ساحة معارك يخوضها كل الكتبة والكتاب بمعزل عن درجة ثقافتهم، حيث لا أسلحة محرمة. عالمان مهمان جداً ساهم الفيسبوك في انكشافهما: أولاً ظهور المكبوت بكل أشكال التعبير، وثانياً انكشاف عالم القيم الفردي والجماعي. فكل فرد يعيش هاتين التجربتين مع من يعرفهم ومع من لا يعرفهم.

يظهر المكبوت في التعبير عن الموقف من الأفراد

والأفكار. وأخص بالذكر هنا انكشاف الكره المكبوت الذي وجد طريقه عبر حرية التعبير عنه دون وجل، وانكشاف المكبوت الجنسي. فالمجاملة على صفحات الفيسبوك هي استمرار للمجاملة في الحياة اليومية، وبالتالي لا يمكن الثقة بها. ولكن الكره دائماً صادق. بل قل الكره أصدق العواطف. الكره بما ينطوي عليه من غيرة وحسد وعدوانية.

فالنص الذي كتبه على الفيسبوك مؤخراً أحد أشهر رسامي الكاريكاتير العرب في التعبير عن كرهه للفلسطيني لم يكن يخطر على بال. فقراءة متأنية لهذا النص وأسلوب اللغة المتبعة يدلان على أن هذا الكره ليس وليد الساعة. بل هو مكبوت قديم. وليس هذا فحسب، بل إن هناك من شتم كل فلسطيني في التعليقات.

والدهشة تتولد من ظهور مكبوت غير متوقع، ولا يخطر على بال. فلقد أظهر شاعر أجاد دور الشكّاء البكّاء المتأفف من الواقع، مكبوته بكل وضوح في تأييد للطاغية والقتل بلغة سوقية، وشتم من كانوا في عداد أصدقائه.

بل إنها لمفاجأة ما بعدها مفاجأة أن تقرأ شتيمتك من شخص كنت تظن أنه يحبك. وتتساءل: كيف مارس هذا الشخص التقيّة كل هذا الزمن، ودون سابق إنذار يُخرج مكبوت الكرة لديه دون أيّ إحساس بالذنب. لا شك بأن الفيسبوك قد أتاح الفرصة للملايين لانكشاف موقفهم السياسي المكبوت بفعل عالم القهر والقمع الذي عاشوه، وانكشاف عالم التقية السياسية، والمكبوت الطائفي، وهكذا.

أما المكبوت المعتقدي المناهض للدين، فحدّث ولا حرج. ففي عام 1967 كتب إبراهيم خلاص في مجلة "جيش الشعب" السورية يقول "استنجدت أمة العرب بالإله، فتَّشتْ عن القيم القديمة في الإسلام والمسيحية، استعانت بالنظام الإقطاعي والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في القرون الوسطى، كل ذلك لم يجدِ فتيلاً.

القيم المريضة وليدة الرأسمال والإقطاع والاستعمار جعلت الإنسانَ العربي متخاذلاً متواكلاً، إنساناً جَبرياً مستسلماً للقدر لا يعرف إلا أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ويؤمن 'الإنسان الاشتراكي العربي الجديد' أن الله والأديان والإقطاع ورأس المال والاستعمار والمتخمين وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دمى محنّطة في متاحف التاريخ. إذ ليست هناك سوى قيمة واحدة هي الإيمان المطلق بالإنسان الجديد الذي لا يعتمد سوى على نفسه وعمله وما يقدمه للبشرية جمعاء.

الإنسان يعلم أن نهايته الحتمية الموت، ولن يكون هناك نعيم أو جحيم. لسنا بحاجة إلى إنسان يصلّي ويركع خاشعاً ذليلاً، يطلب الرحمة والغفران لنفسه، لأن خلاصة الصلاة كما قال بروست 'يا إلهي أعرني اهتمامك' بل نحن بحاجة إلى إنسان اشتراكي ثائر".

لقد قامت الدنيا من وراء هذا المقال ولَم تقعد. وعمّت المظاهرات مدينتي دمشق وحلب، مما دفع المحكمة العسكرية الاستثنائية، إلى التدخل والحكم على الكاتب الضابط إبراهيم خلاص وعلى رئيس تحرير المجلة النقيب عدنان حمام بتجريمهم بجناية إثارة الفتنة الدينية عملاً بأحكام المادة 3ا من المرسوم التشريعي رقم 6 لعام 1965 والمعاقب عليها بالمادة الرابعة من المرسوم المذكور، والحكم عليهما بالأشغال الشاقة المؤبدة، وتجريدهما مدنياً وطردهما من الجيش. وصدَّق على القرار رئيس الدولة. صحيح بأن العقوبة لم تنفّذ، ولكن الإعلان جاء من أجل مواجهة الاحتجاج العام.

وفي عام 1992 اغتيل فرج فودة من قبل إسلاميين متعصبين بسبب آرائه حول ضرورة فصل الدين عن الدولة.

لكن الفيسبوك اليوم يعج بآلاف الأسماء الصريحة وغير الصريحة والمواقع التي تطرح الإلحاد دون تورية، وما من قوة قادرة على منع هذا المكبوت من الظهور.

أما المكبوت الجنسي فقد وجد في الفيسبوك الوسيلة الأحسن لانكشافه. ويظهر هذا المكبوت صريحاً ومستتراً. ويعبر عن نفسه في التمتع باستخدام لغة الشتيمة الجنسية وتنويعاتها، ومن قبل جمهرة كبيرة من الفيسبوكيين.

اللغة السوقية

لقد كشف الفيسبوك عالم القيم السائدة، من دون تورية، بسلبياتها وإيجابياتها. وإذا ما تحدثنا عن قيمة الآخر والاعتراف به، وهي القيمة التي تحدد درجة التقدم الأخلاقي وأثرها على جميع القيم، فإن الفيسبوك العربي أظهر ضعف هذه القيمة إلى درجة الهزال. فالاعتراف بالآخر تعني الاعتراف بقيمة الحق في الاختلاف. ويظهر هذا في الشتيمة بوصفها لغة خطاب مع المختلف.

والحق أن انتشار هذا النوع من الخطاب الشتيمي ذو علاقة عميقة بتدمير عالم القيم في مناخ الاستبداد السياسي والأيديولوجي، وفقدان المجتمع لأهم قيمة من قيمه الكلية ألا وهي احترام الإنسان والتراتبية المجتمعية. فمع استمرار عملية تحطيم القيم المعشرية، وسيادة اللغة السوقية، لغة نفي للآخر، تنمو مع الأيام نزعة عدوانية رعاعية دفينة بحيث تشكل أحد أهم عناصر البنية النفسية التي ترعرعت في ظل الاستبداد وتحطيم القيم. فالعدوانية كحالة نفسية وطريقة للتعامل بها مع المختلف تعبّر عن ذاتها بخطاب الشتيمة التي هي صورة مجردة عن الرغبة في القتل. لأن الشتيمة في هذه الحال هي قطع الصلة مع الآخر قطعاً كاملاً. وهكذا تعبر لغة الشتيمة في الخطاب السياسي والأيديولوجي، ليس عن حالة نفسية غضبية عابرة، بل عن نفسية عنفية تصل حد السادية الكلامية.

وهذا يدل على الخطر المدمّر والشنيع لعملية تحطيم القيم التي تجري على امتداد وقت طويل، وصعوبة استعادة هذا العالم المدمر. ولعمري إن قراءة متأنية للخطابات على صفحات التواصل الاجتماعي، وبخاصة الفيسبوك، تدل على كيفية تحول خطاب الشتيمة السياسية والأيديولوجية إلى نمط مألوف للتعبير عن الاختلاف، ومما يزيد من انتشار هذه الظاهرة أن الشاتم في مأمن من المشتوم جسدياً، كما أنه، عبر اسمه المقنع والاختفاء خلفه، يتصرف كشخص خفي لا يراه أحد.

ولهذا لا يعبّر خطاب الشتيمة عن نفسية شجاعة، بل عن نفسية تخاف من مواجهة الآخر. بقي أن نقول إن خطاب الشتيمة لا يعبر عن عجز نفسي وأخلاقي فحسب وإنما عن عجز معرفي أيضاً وتعويض عن هذا العجز. ففي الوقت الذي تتطلب فيه قضية ما نقاشاً فكرياً وسياسياً جاداً، ويتطلب هذا النقاش بدوره حظاً ضرورياً من المعرفة، فإن الشاتم شخص تنقصه الحجة المعرفية ولا تتوافر لديه مفاهيم الحوار النظرية، فيعبر عن فقره المعرفي والنظري والمفهومي بلغة الشتيمة، هارباً إلى سد باب الحوار والتخلص من عجزه المعرفي ببضع كلمات لا تسمن ولا تغني من جوع. وهكذا تتحول ثقافة الشتيمة إلى معلم أساسي من معالم تحطيم قيمة الآخر والحق في الاختلاف.

أسماء مستعارة

بقي الحديث عن الفيسبوك والاسم المستعار خوفاً من الانكشاف، فالفيسبوك كما قلنا أحد أهم نشرات الأخبار اليومية عن الشخص، بمعزل عن صحة أخباره أو تلفيقها.

والفيسبوك والحالة هذه ممتلئ بالأسماء المستعارة التي يقصد صاحبها أو صاحبتها، لأسباب سنوردها، الاختفاء وراءها.

إذن، الاسم المستعار في الفيسبوك تعبير عن التخفي في الغالب خوفاً من انفضاحه. لكن من هم هؤلاء الذين يخافون من الاسم الصريح، ولماذا؟

هناك محبو اللعب، والراغبون في التسلية، وليس مقصودهم سوى تصيد الصداقات، وكتابة النكات، ويخجلون من كشف أسمائهم وانكشافها. كاتخاذ امرأة اسماً معبّراً عن رجل، أو اتخاذ رجل اسماً معبّراً عن المرأة، وهذا النمط لا علاقة له بالسياسية. وحين سألت أحدهم أعرف اسمه الحركي (المستعار)، مالك ومال هذا الأسلوب؟ فأجاب إنه اسم للتصيد. وصوره مجموعة من النساء وبعض صور الطبيعة.

أما الأنماط المرتبطة في السياسة فهي: نمط معارض، ويعيش في مجتمع قمعي، ويكتب بوصفه معارضاً، لكنه يخاف من انتقام السلطة.

وقد أرسل لي شخص يُدعى رجل الشمال طلب صداقة، فلم أوافق بسبب جهلي بصاحب هذا الاسم المستعار، ثم أرسل لي رسالة على الخاص يخبرني فيها بأنه صديقي فلان، الذي يعيش في دمشق.

وهناك نمط مع الجماعات الحاكمة ممن ظل فيهم بقية حياء، فيخجل من الظهور العلني لإدراكه مدى فداحة الصورة السيئة للموالين للنظام في أعين الناس، فيخاف من الفضيحة ويتخفى.

أما النمط المخاباراتي فهو الأشهر من أنماط الأسماء المستعارة. وهو اسم قد يأخذ دور المعارض الراديكالي للنظام. فهذا النمط ليس شخصاً بعينه، بل هو اسم مستعار لمؤسسة تقود عملا استخباريا.

يغلب الاسم المؤنث على الاسم المستعار هنا، لما للمؤنث من حظوة عند المذكر العربي. ففي الحالة السورية مثلاً يكون الاسم المستعار سواء كان مؤنثاً أو مذكراً اسماً سنياً في الغالب، أو تكون العائلة من العائلات السنية المشهورة، حتى لا يقع الشبه بالاسم ويجري تصديقه.

هذا الاسم الراديكالي في عدائه الصوري للنظام يمارس شتيمة النظام بصورة قاذعة، فالشتمية أصبحت شائعة تجاه النظام، ولم يعد يحفل بها، ولديه من الشتامين لأعدائه ما يكفي.

الاسم المخاباراتي المستعار هذا الذي يُظهر عداءً راديكالياً شتاماً أو ناقداً للنظام يقوم بتحقيق وظيفتين: الأولى، هي أن هذه الراديكالية جاذبة للمعادين الحقيقيين للنظام، فيكشف النظام عبر الصداقات التي تنهال على الاسم وتعليقاتهم الأسماء الحقيقية لمعارضيه وبخاصة في الخارج، ودرجة عدائهم.

أما الثانية، فهي الأخطر، فبعد أن تيقنت الجماعة الحاكمة وأجهزتها الأمنية بأن هجوم كتبتها المكشوفين من شعراء وسفراء وقصاصين وصحافيين على النخبة الوطنية المدافعة عن الحرية تزيد من مكانة النخبة الوطنية، وحضورها في الحياة السياسية والثقافية، ويصدق فيهم القول "إذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل"، فإن الجماعة الحاكمة بأجهزتها أولت الأمر للمثل الراديكالي صاحب الاسم المستعار الذي هو الجهاز نفسه، فحين يطمئن الجهاز صاحب الاسم المستعار المخاباراتي الراديكالي لحضوره وتصديق الناس لوجوده، فإنه ينبري بين الفينة والأخرى للقيام بعملية هجومية شتائمية على نخبة ثورية ثقافية وسياسية فاعلة، ظاهراً بمظهر الدفاع عن الثورة كما يجب أن تكون، آخذاً على هذه النخبة سلبية مخترعة من قبله، وتقوم آلة جاهزة للتعليق من منطلق التمثيلية الراديكالية. ويدخل القارئون في صراع بين مؤيد لقوله ومعارض. وإذا كان المنقود نزقاً فيدخل في معركة زائفة مع مجموعة من الشتامين، لا سيما وأن الاسم المخاباراتي المستعار يفتح صفحته لتعليقات الجميع، فيكون له ما أراد من المهارشات.

كيف يمكن معرفة حقيقة الاسم المخاباراتي المستعار؟ أنا لا أعرف الجواب بدقة، لكن الاسم المستعار غالباً ما لا تكون له صورة شخصية على بروفايله، ليست له حياة عائلية مصورة، ليست له مناسبات يخبرنا بها، ليس على صفحته أحزان على أقارب، أو أفراح. فمن الصعب على هذا المتنكر، مهما تنكر، أن يخلق عالماً حقيقياً. ففقره على صفحات الفيسبوك شبيه بفقر حياته داخل جهازه الأمني.

لقد حلق انكشاف الذات على هذا النحو الصارخ على الفيسبوك شجاعة الظهور، ووقاحته، وكشف عما كان يُخاف منه، ويُستحى من ذكره، ويُخفى خوفاً من الفضيحة. وعندي فإن الفيسبوك ساهم وسيسهم مع الأيام في خلق الإنسان العاري.

كاتب فلسطيني سوري مقيم في لندن

ملف

أخلاقيات العالم الرقمي

أحمد بلخيري

وصف بعض الرحالة المغاربة، الذين سمحت لهم ظروفهم بالسفر، ضمن بعثات دبلوماسية، إلى فرنسا في القرن التاسع عشر ما شاهدوه في هذه البلاد، أسوة بما قام به رفاعة رافع الطهطاوي في كتابة "تخليص الإبريز في تلخيص باريز". وكان مما شاهدوه حينئذ الصحافةَ المكتوبة التي كانت غير موجودة في ذلك العهد في المغرب. فقد وصف محمد الصفار بعد عودته من فرنسا، على سبيل المثال، بعد رحلة قام بها في ديسمبر سنة 1845 إلى هذه الأخيرة الصحافة. وقد كانت من جملة مشاهداته وموصوفاته في رحلته المطبوعة حيث قال عنها "ولأهل باريز كغيرهم من أهل سائر الفرنسيس بل وسائر الروم، تشوف لما يتجدد من الأخبار ويحدث من الوقائع في سائر الأقطار، فاتخذوا لذلك الكوازيط، وهي ورقات يُكتب فيها كل ما وصل إليهم علمه من الحوادث والوقائع في بلدهم أو غيرها من البلدان النائية أو القريبة".

الكوازيط هي، عنده، الصحافة المكتوبة، التي تحدث عنها الصفار في فقرات أخرى في رحلته. في هذا الإطار، ذكر طريقة توزيعها، وكيفية اشتغال العاملين فيها. ولم تفته الإشارة إلى أنه "ليس كل ما فيها صحيح، بل ربما كان الكذب فيها أكثر من الصدق". وقد بين دورها في نقل ما يتمخض عنه نقاش أهل السياسة والتشريع حينما يجتمعون "لتدبير قوانينهم". وقد حذا حذوه بعده ابن إدريس العمرواي في رحلته الموسومة "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز".

كانت الصحافة المكتوبة في منتصف القرن التاسع عشر هي الجديد حينئذ. في ذلك التاريخ، لم يكن قد تم اختراع الكهرباء بعد، ولم تكن قد ظهرت الصورة الفوتوغرافية، ولا السينما والصورة المتحركة. كما لم يكن مفهوم العولمة متداولا، ولا ثقافتها منتشرة في الواقع وعلى شكل دراسات ومقالات وأبحاث. ساعتها كان الصحافي هو الشخص الذي يمتهن مهنة الصحافة، العامل في جريدة لها خط تحريري معين. لذا، كان نقل الأخبار والمعلومات في الجريدة الورقية متحكما فيه.

أما اليوم، ومع اكتساح العولمة لكل دروب الحياة ومناحيها، والانفجار الرقمي، فقد تغيّر الأمر تماما بما في ذلك مفهوم الصحافي ذاته، حيث صار بمقدور كل شخص يتوفر على هاتف محمول، لا أن يعلق على حدث ما فقط، بل وأن يصوره، فتكون الصورة ثابتة أو متحركة وبالألوان. الصورة هنا ليست خرساء، فقد تكون كذلك وقد لا تكون. إنه عصر الصورة بامتياز.

لهذا العصر الرقمي وضع رجيس دوبريه (Regis Debray) مصطلحا محددا يشخص الوضع الراهن. إنه مصطلح علم الوسائط الميديولوجيا(La médiologie) الذي حدده في كتابه "Cours de médiologie générale". وقد تُرجمت بعض أعماله إلى اللغة العربية. والميديولوجيا "ليست بحثا في الصورة ولا في السمعي البصري أو الوسائط الجماهيرية الإعلامية فقط. وإنما هي بحث في الوساطات التي تتكفل بإرسال وتناقل وتواتر المعلومات والكائنات والحالات المادية والذهنية. وبهذا المعنى تصبح منظورا جديدا لمعطيات الحياة والوجود يتخذ من تراكم الاهتمام بالوساطات مركزا منهجيا له".

وحسب رجيس دوبريه، فقد مرت البشرية بثلاثة عصور وسائطية هي: عصر اللوغوسفير (Logosphere) عصر الكتابة، ثم عصر الغرافوسفير (Graphosphere) عصر الطباعة، فعصر الفيديوسفير (Videosphere) عصر الشاشة. بناء على هذا التقسيم، فإن الصحافة في القرن التاسع عشر تنتمي إلى عصر الطباعة.

في هذا العصر الأخير، عصر الشاشة، تعددت الوسائط وشملت كل مناحي الحياة، العامة والخاصة. فعلى سبيل المثال، إذا كانت الجريدة المطبوعة في القرن التاسع عشر تجعل قارئ الجريدة مجرّد مستهلك لمنتوج صحافي، فقد صار بإمكان الإنسان غير الصحافي أن يكون "صحافيا" بالهواية وليس بالاحتراف. إذ بإمكانه أن يحدد الحدث، سواء أكان عاما أم خاصا، ويقوم بتعميمه، بكل سهولة ويسر ، من أجل الاستهلاك بسرعة قصوى، ودون حدود جغرافية، صوتا أو صورة، أو كلاهما معا، أو كتابة. وقد يجتمع الصوت والصورة والكتابة.

أمام هذا الانفجار الرقمي، في هذا العصر الرقمي، عصر الصورة والشاشة، لم يعد "الحدث" مرتبطا بالأحداث العامة، كتلك التي أشار إليها محمد الصفار في رحلته، والحوادث التي يعج بها المجتمع. إذ صار بمقدور أيّ شخص، بغض النظر عن مستواه التعليمي، أن يعبّر عن رأيه تجاه هذه القضية

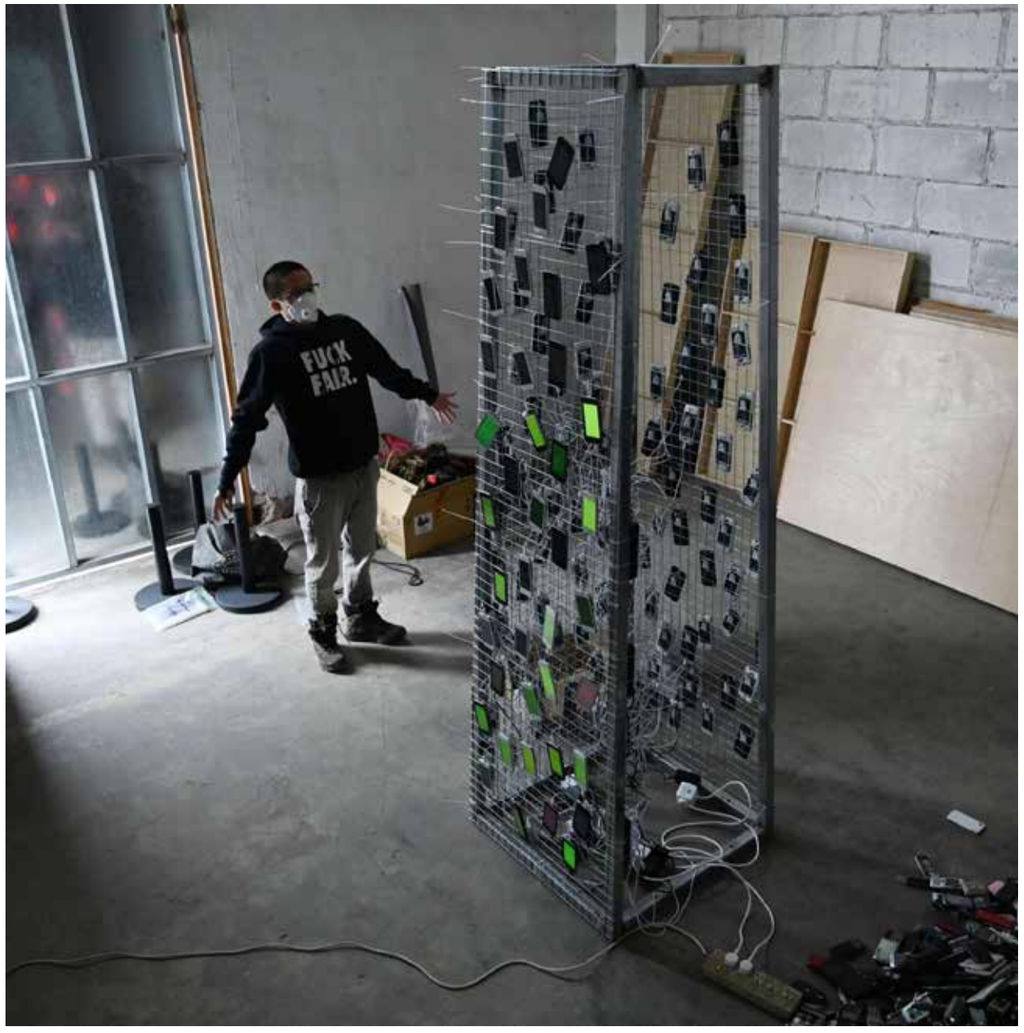

أو تلك، أو هذا الحدث أو ذاك، عامّا كان أو خاصا. لذا، أضحت الشبكة العنكبوتية فضاء للتعبير عن الرأي السياسي، مثلا، لعدم وجود عدد من الموانع والحواجز التي كانت، ومازالت في البلدان غير الديمقراطية، تحول دون الإفصاح والتعبير عنه. لهذا تعج هذه الشبكة بالتعليقات على هذا الحدث السياسي، أو غيره، أو ذاك، والتعبير عن الآراء السياسية بلغة ورسوم وصور وفيديوهات يمكن اعتبارها موضوعا ومقياسا لتحديد اتجاهات الرأي العام.

ليس هذا فحسب، بل غدت هذه الشبكة فضاء لاستعراض الذات وتحويلها أحيانا إلى "فرجة" و"عرض". لكن الذات لم تقتصر على تحويل نفسها أحيانا في الشبكة العنكبوتية إلى "فرجة" و"عرض"، بل أضحت هذه الشبكة تقوم بوظائف، بالنسبة إلى الذات، حلّت محل وظائف أساسها العلاقات الإنسانية المباشرة مثل التعزية.

وخلف "الفرجة" و"العرض" تقف أهداف متباينة. فقد تعرض الذات نفسها في صور ثابتة أو فيديو، وربما في وضعيات مختلفة، وفي فضاء تختاره هذه الذات، الذي قد يكون فضاء مهنيا، أو فضاء خاصا، أو فضاء طبيعيا.. هذا مع إمكانية تحليل مجموعة من العلامات الخاصة بصورة الذات ومحيط هذه الصورة من أجل تحديد الهدف من النشر أو ما يمكن اعتباره هدفا. وعليه، فحين اتخاذ هذه الصور الثابتة أو الفيديوهات موضوعات للتحليل، يمكن تحديد الغاية من النشر،

والتي قد تكون نفسية أو غير نفسية.

بناء على هذا، يبدو مفيدا أن تُطوّر العلوم الإنسانية، وعلى رأسها علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي، بعد ما ظهرت وسيلة جديدة للتعبير الاجتماعي والتعبير النفسي؛ لاسيما وأن هذا التعبير قد يكون حتى في الفضاء الحميمي حيث يتم عرض الجسد، برغبة ذاتية ودون إكراه، للفرجة. في هذه الحالة، يتحرر الجسد من قيود وإكراهات المجتمع فيعبر عن نفسه؛ والنتيجة هي الفرجة.

هكذا صار الفضاء الرقمي يتوفّر على كمّ هائل من المعلومات، سياسية، فكرية، اجتماعية، بما فيها الحميمية أحيانا، عن الأشخاص التي يمكن استغلالها من لدن هذه الجهة أو تلك. هذه المعلومات تم تقديمها عن طواعية ودون إكراه أو إجبار، وقد يكون العكس، لكي تكون متاحة للجميع في هذا العالم المعولم دون قيود جغرافية. لذا، صار من السهل جدّا التعرف على تلك المعلومات سواء بترك الأثر، بواسطة التعليق أو أيّ علامة أخرى تدل على هذا الأثر، أم بغيره. وهذا يفتح المجال واسعا للتلصص وإمكانية الإضرار بالآخرين، لاسيما وأنه بالإمكان فتح حساب مزيّف من خلاله يتجوّل صاحبه دون معرفة هويته الحقيقية. ليس فتحه فقط، بل واختراق المواقع الشخصية في وسائل التواصل الاجتماعي، وسرقة الصور والمعلومات الشخصية جدا. ففي المغرب - على سبيل المثال - تفجرت في الآونة الأخيرة قضية جنائية بسبب ما يعرف إعلاميا بـ"حمزة مون بيبي" (Hamza Mon Bébé)، حيث تخصص حساب مزيف، تحت هذا الاسم، بسرقة وتشويه سمعة الفنانين المنافسين والانتقام من الأشخاص. وبسبب ظهور جريمة جديدة هي الجريمة الإلكترونية، وبفضل تطور علم الإجرام مواكبة لمستجدات العصر، تمكن القضاء من وضع اليد على من يقف خلف ذلك الحساب المزيف، الذي كان سببا في أضرار نفسية واجتماعية بالغة الخطورة وصلت إلى حد الطلاق.

وشخصيا كنت قد عبرت عن رأي في الفيسبوك، يتعلق بمشاركة ناقدين مسرحيين مغربيين في مهرجان القاهرة للمسرح المعاصر والتجريبي في دورة سابقة. كان موضوع الناقدين اللذين شاركا به في المهرجان المذكور معروفا جدا ومستهلكا في المغرب وخارج المغرب، حيث عُقدت من أجله ندوات، ونُشرت عنه مقالات. يتعلق هذا الموضوع بالتعريف بمشروع باحثة مسرحية ألماني نشرت تدوينة في الفيسبوك تزامنت مع انعقاد المهرجان المذكور، قلت فيها إنه كان من الأفضل المشاركة في هذا المهرجان المهم، دون ذكر اسم أي ناقد مسرحي، بموضوع جديد بعيدا عن التكرار. هذه الكلمة الأخيرة أثارت حفيظة الناقدين المسرحيين. لذا، وفي اليوم الذي رجعا فيه من مصر مباشرة، بدأت تصلني شتائم، وسب، وقذف على حسابي في الفيسبوك. التحليل اللغوي لتلك الشتائم لا يفضي إلا إلى نتيجة واحدة، وهي أنها لا تصدر إلا عن المراهقين.

قضيت زهاء ثماني ساعات، وقد تابع البعض ذلك في الحين، وأنا أحذف تلك الشتائم التي لم تسلم منها حتى أمّي المتوفية وقت ذاك. بعد منتصف الليل، كف المعني بالأمر عن فعله. لم أكن أعرف اسم صاحب الحساب الذي تصلني منه الشتائم، وهو وليس من أصدقائي. في الصباح الموالي، فتحت بريدي الإلكتروني، فإذا بي أفاجأ باسم الشخص الحقيقي وصورته. إنه واحد من الناقدين المسرحيين المغربيين، الذي كنت قد أهديت له كتابي "المصطلح المسرحي عند العرب". كان يرسل "مقذوفاته" و"بذاءاته" مستعملا اسما مستعارا وحسابا مزيفا. وقد كشفت عن اسمه الحقيقي في الحين. لم أرد أن ألجأ إلى القضاء، تركته وضميره. هذا علما بأنه يستعمل في كتابته النقدية، ويا للمفارقة، مفاهيم مثل "الحداثة"، "الاختلاف"، "المثقف العضوي"، ومفاهيم مأخوذة من كتب إدوارد سعيد.

ورغم ذلك، أنا مقتنع بأن الوسائط الرقمية مفيدة جدا. فعن طريقها أتمكن من متابعة جديد أصدقائي وصديقاتي في البحث والإبداع المسرحيين، وغير الأصدقاء والصديقات. كما أنني أستطيع أن أتجوّل في مواقع الصحافة الوطنية والعالمية الإلكترونية حسب رغبتي. زد على هذا الاطلاع على أبحاث ودراسات من حقول معرفية شتى، وحتى إمكانية تحميل كتب. وبطبيعة الحال، لا توجد في الإنترنت الثقافة فقط، فهي مثل "سوق" توجد فيها معروضات مختلفة الأنواع والأشكال، وكل واحد يختار جهته المفضلة في هذه "السوق". وهي تشترك مع الصحافة المكتوبة، كما أشار إلى ذلك، محمد الصفار، في وجود الصدق ووجود الكذب كذلك.

بناء على ما سبق، يبدو لي أن هناك فوائد جمة في استعمال الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي. هذه الفوائد هي التي يجب تثمينها والإشادة بها. فمن خلالها يكون نشر الثقافة وتعميم الفرجة والتواصل الرقمي السريع. ولها كذلك أضرار لاسيما على نفسية وتنشئة الأطفال إذا لم يتم توجيههم ومصاحبتهم. أما الجرائم الإلكترونية فالقانون الجنائي، وعلم الجريمة، ومنه الجريمة الإلكترونية، والقضاء فكفيلون بها.

باحث مسرحي وكاتب مغربي

هل يمكن صون حياتنا الخاصة في عصرنا الرقمي؟

حميد زناز

في 2013 فضح إدوار جوزيف سنودن "الأخ الكبير" الذي كان يراقبنا عن طريق ما نتركه من آثار على الشبكة العنكبوتية وبشكل خاص على مواقع التواصل الاجتماعي. وربما نبه دون أن يدري الوعي العالمي إلى أهمية مسألة "الحياة الخاصة" حينما ندد بوجود برنامج مراقبة سري من تنفيذ دائرة الاستعلامات الأميركية. ومما زاد من مصداقية إدوار جوزيف سنودن كونه اختصاصيا في علوم الكومبيوتر ومتعاون سابق مع وكالة الأمن القومي الأميركي. وهذا البرنامج الجاسوس تنفذ من خلاله الوكالة المذكورة ومكتب التحقيق الفيدرالي إلى كل البيانات التي في حوزة غوغل، ياهو ومايكروسوفت.. والاطّلاع على كل المعلومات المتعلقة بالأشخاص الذين يمرون على الشبكة العنكبوتية.

وقد أحدث ما جاء به الشاب الأميركي صدمة كبيرة في الرأي العام العالمي بعد أن نشرت وسائل الاعلام الفضيحة على نطاق واسع وأصبح معلوما أن التجسس الواسع قد غدا واقعا يشرف عليه "الاخ الأكبر" الأميركي رسميا.

فهل أصبح رد الفعل أمام هذا الخرق للحياة الشخصية أمرا ضروريا ومستعجلا؟

لقد دق كثيرون ناقوس الخطر ومنذ مدة، ففي 1997 لاحظ بيل غيتس نفسه أن "مؤسسات من القطاع الخاص وإدارات تملك الكثير من المعلومات على حسابنا. وليس لدينا أيّ فكرة عن كيفية استخدامها وما إذا كان الاستعمال لغاية مقبولة". ويدافع آخرون عن ظهور "قاعدة اجتماعية" جديدة مع وسائل التواصل الاجتماعي ومنهم مارك زوكربيرج مؤسس فيسبوك الذي يقول "الناس اليوم أكثر انفتاحا ويشعرون أكثر بالراحة وهم يشاركون غيرهم بالمعلومات الخاصة بحياتهم".

هل يمكن المطالبة بحق في الحياة الخاصة في هذا العصر الرقمي؟ في مجتمع التكنولوجيات الحاضرة في كل مكان وقطاع؟ أو هو نقاش سيتجاوزه الزمن من الآن فصاعدا كما يعتقد الكاتب الفرنسي جون مارك ماناك في عنوان كتابه المستفز "الخصوصية، مشكلة الشيوخ البلداء؟".

في الحقيقة، إذا كان تعريف المجال الخاص أمرا معقدا بسبب تعدد أوجهه، فالصعوبة الأساسية تكمن بلا شك في فعالية حمايته على الشبكة العنكبوتية. فهذا "المجال الخاص" مفهوم متعدد الأوجه ومتطور باستمرار ومختلق باختلاف العصور فلا علاقة للخصوصية أو الحياة الخاصة في القرن الحادي والعشرين وما كان سائدا في القرون السابقة. ففي القرن السابع عشر على سبيل المثال كان سكان باريس يستحمّون عرايا في نهر السين حسب مؤرخي هذا القرن وفي المساكن كان الاختلاط هو السائد بين العائلات وحتى ملكة فرنسا كانت تلد أمام الناس. وبما أن مفهوم "الحياة الخاصة"، لم يكن مكرسا بعد، فلم يكن بالإمكان تصور حمايتها. لم يتضمن القانون المدني لعام 1804 في فرنسا أيّ أحكام وقائية في هذا الشأن. ولكن في القرن العشرين بدأ القانون يقترب من الفرد والاهتمام بحياته الخاصة. ويعود هذا الاهتمام إلى ظهور الوسائل التكنولوجية ذات الأداء العالي كآلات التصوير والتسجيل التي بإمكانها التدخل في حميمية الافراد. لقد انتظر رجال القانون في فرنسا حتى سنة 1970 لترسيخ الحق في حياة خاصة وذلك عبر المادة الـ9 من القانون المدني الساري المفعول إلى اليوم "لكل شخص الحق في أن تحترم حياته الخاصة". وإن عدّد قانون الـ17 من يوليو 1970 تهما مختلفة في ما يتعلق بالمساس بالحياة الخاصة والتي تبناها قانون العقوبات لعام 1992 في مواده 262-1 وما بعدها، فإنه لا يقدم تعريفا قانونيا يسمح بضبط دقيق لمفهوم الحياة الشخصية. وهو ما جعل الفهم يختلف من متخصص إلى آخر، فمنهم من يعرفّه على أنه "المجال الخاص الحميمي السري الذي يقصي منه الفرد الآخرين". وهو "مجال الحميمية لكل فرد"، يقول آخرون. وانطلاقا مما سبق يبدو من المستحيل، في كلمة واحدة، في صيغة ما، أن نحدد مسبقا أين تنتهي الحياة الخاصة وأين تبدأ الحياة العامة. يبدو أن هذا السؤال سوف يعتمد دائمًا على التقدير السيادي للقاضي. وفي غياب تعريف قانوني ونظريّ واضح، يحاول الاجتهاد القضائي التفريق والفصل بين ما هو حياة خاصة وعامة. ويختلف تأويل وفهم المفهوم من بلد إلى آخر ومن الصعوبة إيجاد

توافق في المسألة. فمثلا يعد الدخول إلي علبة الرسائل الإلكترونية المهنية لموظف من قبل رئيسه في العمل أمر عادي مقبول في آسيا بينما يعتبر اختراقا للحياة الخاصة في فرنسا. وفي الوقت الذي نجد فيه المحكمة الدستورية الجنوب أفريقية تعرف حق احترام الحياة "كحق الشخص أن يعيش حياته كما يريد"، ففي نظر المحكمة العليا في كندا فهو "النطاق المحدود من الاستقلالية التي تتشكل فيها الخيارات الأكثر جوهرية لدى الفرد".

وما يعقّد الأمر أكثر على مستوى الشبكة العنكبوتية في ما يخص حماية المجال الخاص هو طبيعة نموذج الإنترنت الاقتصادي ذاته إذ مجانية التجوال على خدمات النت مشروطة بتقديم معلومات ومعطيات شخصية يمكن تحديد من خلالها هوية المستخدم الثقافية والذوقية والمهنية وبيع رغباته إلى شركات الإشهار. ونظرا للتشجيع الذي يتلقاه رواد الإنترنت للإدلاء بمعلومات تخصهم من قبل ثقافة "استعراض الذات"، فهم لا يترددون في الكشف دون حياء أحيانا كثيرة عن حياتهم العائلية الخاصة وحياة أصدقائهم.. وتلك هي وقود العالم الرقمي ولها قيمة هي التي تغذي اقتصاد المعطيات. ومن هنا دخلت الحياة الخاصة في حركة السوق الرأسمالي حيث أصبحت سلعة ككل السلع الأخرى.

تعتبر فرنسا من البلدان الرائدة في محاولة حماية الحياة الخاصة إذ تعتبر أنه ينبغي أن تكون تكنولوجيا الإنترنت في خدمة كل مواطن ولا ينبغي أن تنتهك هويته الإنسانية أو حقوق الإنسان ولا الحياة الخاصة ولا الحريات الفردية والجماعية (المادة الأولى من قانون الإعلام والحريات). ومهما كانت القوانين والضوابط فالمعلومات المنشورة على الإنترنت تنفلت من كل مراقبة وتصبح في متناول الغير ومن الصعوبة كيلا نقول من المستحيل أن يستردها صاحبها ويعيش في سلام. وحماية الحياة الخاصة يعني نظريا "الحق في العيش في سلام"، بعيدا عن أنظار الآخرين، عن المراقبة. فهل يمكن صون حياتنا الخاصة في عصر الذكاء الاصطناعي الذي تختلط فيه هويتنا المادية الواقعية وهويتنا الافتراضية الرقمية؟

كاتب جزائري مقيم في باريس

ملف

الإثم والمنافع

وسائل التواصل الاجتماعي

رشيد حمليل

فرضت وسائل التواصل الاجتماعي في السنوات الأخيرة نفسها على حياتنا اليومية، وأصبحت جزءا من سلوكاتنا بعدما مسّت كل مجالات حياتنا، سواء كانت شخصية أو اجتماعية أو مهنية، وأمسى الفرد من لحظة استيقاظه من نومه إلى لحظة دخوله فراشه يمسك بهاتفه الذكي بيده، ويبقى منتبها لأيّ رنة تنبعث من هاتفه للرد عليها والتجاوب مع محتواها.

ينكر أحد أنّ الإنترنت كوسيلة اتصالية خلقت معها ظواهر جديدة، منها وسائل التواصل الاجتماعي التي تسمح للمتصلين عبر شبكة الإنترنت بفتح حساب أو صفحة بهدف ربط علاقات صداقة ونشر أخبار والتعبير عن أفكار، أو المساهمة بصور أو فيديوهات مع الأصدقاء أو محيطهم، وأضحى عدد هذه الوسائل في تزايد مستمر وفاق المئات، حيث تشهد الشبكة العنكبوتية من يوم إلى آخر ميلاد اسم جديد في دولة ما، وأيّ نظرة سريعة على أهم وسائل التواصل الاجتماعي، تكشف لنا عن مدى انتشارها وهيمنتها على عالمنا الافتراضي الذي أصبح امتدادا لعالمنا الواقعي.

جمهوريات افتراضية مارقة

الانتشار المذهل كلّ يوم لوسائل التواصل الافتراضية، جعل العديد من الباحثين في ميادين شتى سواء كانت مرتبطة بالإعلام أو علم الاجتماع أو علم النفس أو التربية يدقون نواقيس الخطر بعدما تعاظمت التهديدات التي تشكّلها هذه الوسائل، واستفحل خطرها إلى حدّ إنشاء الدول لمديريات خاصّة بالجريمة الإلكترونية، تقوم بمهام مراقبة محتوى هذه المواقع، وتعقّب آثار مرتكبيها، مثلما عمدت الكثير من الدول إلى تكييف قوانينها بإضافة مواد قانونية جديدة تسمح لمحاكمها بمجابهة كل ما يصدر عن هذه الوسائل ويمكنه إلحاق أضرار معنوية أو مادية بفرد أو جهة ما، لتتحوّل وسائل التواصل الاجتماعي إلى وسائل مارقة تنبعث منها كل الشرور.

أهي صناديق باندورا؟

كثرت الدراسات مؤخرا حول مواقع التواصل الاجتماعي، وتنوعت بين متكالب ومتواثب عليها مركزا دراسته على مساوئها، وبين حريص ومتهافت على إبراز إيجابياتها، وقصد وضعها في الميزان، أحاول تقديم مزاياها الفريدة، ومناقبها العديدة، مع مناقشتها بكل موضوعية للوقوف على أضرارها من منافعها.

أوّل سمة تتسم بها وسائل التواصل الاجتماعي، استهدافها خلق أو تمتين العلاقات بين الأفراد فيما بينهم، فهي تساعد الأشخاص على إنشاء علاقات اجتماعية جديدة من خلال التعرّف على الأصدقاء، وتحسين التواصل مع الأشخاص، وبالأخص مساعدة الأشخاص الخجولين على التواصل مع غيرهم، ودفعهم إلى الخروج من عزلتهم والتخلص من مشاعر الانطواء.

إيجابية هذه النقطة لا تخفي سلبية متمثلة في أن وسائل التواصل الاجتماعي ساهمت منذ انتشارها في التقليل من مهارات وفرص التواصل وإنشاء علاقات صداقة في الحياة الاجتماعية الواقعية، مثلما قللت حتى من التواصل الفعلي بين الأشخاص المنتمين إلى عائلة واحدة بعدما أصبحت المعايدة تقتصر عبر الرسائل الإلكترونية عوض الزيارات، وأمسى أصحاب المواقع الإلكترونية مدمنين عليها إلى حد الانعزال عن المجتمع، دون تجاهل ما يترتب عن هذه العلاقات الافتراضية من انتهاك لخصوصية المستخدمين وما ينجر عنها من فضائح أخلاقية.

ثاني ميزة تتميز بها وسائل التواصل الاجتماعي، تحولها إلى مدارس افتراضية، ومساعدتها التلاميذ والطلاب على رفع مستوى تحصيلهم الدراسي والعلمي من خلال الاستفادة من الدروس والتمارين التي ينشرها بالأخص الأساتذة، كما سهّلت التواصل بين الطلبة وهيئاتهم التدريسية وبين أولياء التلاميذ والمعلمين، كما يسرت الوصول إلى مصادر المعرفة عبر نشر كتب علمية إلكترونية ربما يصعب على أيّ طالب أو أستاذ الحصول عليها من المكتبات.

هذه الميزة جد رائعة، لكن الكثير من أولياء التلاميذ يشتكون اليوم من تدني مستوى التحصيل الدراسي لأبنائهم بسبب إدمانهم على مواقع التواصل الاجتماعي، التي أصبحت مكانا مغريا لقضاء ساعات طويلة على حساب الدراسة والمراجعة، والأدهى والأمَرّ، أن وسائل التواصل الاجتماعي أصبحت تستخدم كإحدى طرق الغش في المواد الدراسية، وذلك من خلال نشر مواضيع الامتحانات أو غيرها من الأمور التي تُساعد على الغش، ووصل الحد في الجزائر إلى حدّ حجب وسائل التواصل الاجتماعي عشية إجراء امتحان البكالوريا بعدما تحولت هذه الوسائل إلى أهم وسيلة لتسريب مواضيع الامتحان.

فضاء الفكر

يعتبر فتح فضاء الفكر واسعا أهم صفة حسنة لوسائل التواصل الاجتماعي، حيث جعلت هذا المجال دون قيد وكسرت كل حدوده، وجمعت بين أهل الفكر والمتعطشين له على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم للتعبير عمّا يجول بخاطرهم ومناقشته دون أيّ نزعة أو وازع، والاشتراك في تبادل المعلومات والبيانات، وطرح القضايا الفكرية ومناقشتها بكل سهولة ويسر.

يرى الكثير أنه لا يوجد أخطر أو أفتك من سلاح الفكر، حيث يمكن استغلاله من أجل التأثير بطريقة سلبية في المتلقي الذي يذوب عن جهل أو قلة وعي منه في فكر معاد، وينجرّ وراء أفكار قد تسيء له ولمجتمعه في حال تبنيها والانتصار لها، فالكثير من الفكر الملوّث يحمل لباس الحرية والتحرر، وكم من فكر مشوّه يرتدي ثياب العصرنة والتقدم، وكم من فكر ممسوخ يتحلّى بزي العزة والكرامة، كما أن الانفتاح على أفكار الشعوب الأخرى وثقافاتها يساعد كثيرا في نقل الأذواق السيئة والقيم التي تتنافى وقيمنا ومبادئنا، ولعلّ أسوأ نتيجة تمخضت عن عدم التحكم في هذا المجال، الانتهاك الصارخ للملكية الفكرية وحقوق النشر من خلال عرض الكتب والفيديوهات والمنشورات دون إذن أو رخصة من أصحابها الأصليين.

النقطة الأخرى التي تحسب لوسائل التواصل الاجتماعي، مساهمتها في ترقية الحياة الاجتماعية عبر تشجيعها للأعمال الخيرية والتطوعية بشكل إيجابي في المجتمع، كما تعمل على توعية الأفراد ببعض المعوقات والمشاكل التي يجابهونها وتوجيههم إلى كيفيات معالجتها بطرق سليمة وسريعة، بالإضافة إلى دأبها على نشر ثقافة صحية باطّلاع المستخدم على الأمراض وسبل الوقاية منها، وتشجيعه على التحلي ببعض السلوكات التي توفر له بيئة صحية مثل ممارسة الرياضة والإقلاع عن التدخين والابتعاد عن الكحول والمخدرات.

غير أن كل هذه الإيجابيات، لا يمكنها أن تُداري أن وسائل التواصل الاجتماعي خلقت مفهوما جديدا اسمه التنمر الافتراضي أو الإلكتروني بعد تعرض العديد من المستخدمين إلى سلوكات عنيفة وعدوانية عبر رسائل أو صور بغية تخويفهم والتسلط عليهم من أجل ابتزازهم، كما أن هذه الوسائل منحت تربة خصبة لبعض الجماعات العنصرية لنشر أفكارها وإثارة النعرات والسلوكات التي تساعد على التزمت الفكري والتعصب الديني أو العرقي.

وجد الاقتصاد في وسائل التواصل الاجتماعي مرتفعا خصبا للنمو والتطور، حيث استفادت الشركات من جعلها مساحة إشهارية لتسويق منتوجاتها والترويج لها، وساعدت بالأخص الشركات الصغيرة وذوي الحرف والمهن الحرة على التعريف بعلاماتهم التجارية أو الخدمات التي يعرضونها، وسهل التسويق الإلكتروني من زيادة فرص البيع، كما وفّرت هذه الوسائل كثيرا من فرص الحصول على الوظائف، وقلصت المسافة والوقت بين أرباب العمل والباحثين عنه.

في هذه النقطة بالذات، الخاصة بمجال اقتحام الاقتصاد لعالم وسائل التواصل الاجتماعي، علينا الاعتراف بفضل وسائل التواصل الاجتماعي على الاقتصاد، بالرغم من وجود بعض السلبيات، في مقدمتها فقدان بعض الموظفين لمناصب عملهم بسبب التعليقات أو المنشورات أو الصور التي يمكنها أن تسيء إلى شركاتهم، إضافة إلى لجوء بعض المحتالين إلى استغلال هذه الوسائل للنصب .

نشطاء سياسيون

الأحزاب السياسية والناشطون السياسيون وجدوا هم أيضا بدورهم في وسائل التواصل الاجتماعي ميدانا جد مناسب لنشر أفكارهم وبرامجهم لتعزيز الحياة السياسية أوّلا من خلال نشر وعي سياسي وثقافة سياسية راقية بدعوة الناخبين إلى المشاركة بكثرة في الانتخابات، وثانيا من خلال إشراك الجميع في مراقبة أداء الوزارات وبقية مؤسسات الدولة بالكشف عن التجاوزات وتناول البرامج بالنقاش، ولعلّ أهم ما ميز وسائل التواصل الاجتماعي ومساهمتها في عمليات التغيير السياسي، استغلالها أثناء أحداث الربيع العربي التي عرفتها كل من تونس وليبيا ومصر وسوريا، حيث تحولت إلى منصات سياسية لنشر المواقف والشعارات وحتى تنظيم المظاهرات.

هذه النقطة مثل سابقتها، إيجابياتها تعدّت بكثير سلبياتها، اللهم إلا من بعض السلوكات التي تتعرض كثيرا إلى المس بخصوصيات الشخصيات السياسية قصد النيل منهم بطرق غير أخلاقية بغية الإساءة إليهم من خلال نشر الأكاذيب وخلق الإشاعات وتلفيق التهم الباطلة، كما أنه من أشد المآخذ التي تلقاها وسائل التواصل الاجتماعي، هو إمكانية تحوّل أيّ شخص افتراضي إلى زعيم وطني وقائد لحراك شعبي وناشط سياسي كبير، فقط لأنه يضع منشورات سياسية تحريضية وعنيفة على حسابه الخاص أو على صفحته يلهب بها حماس العالم الافتراضي دون طرح أيّ أفكار أو برامج، لكن كل ما يقوم به التركيز بالخصوص على فضائح المسؤولين واستغلال حرمان الناس وبؤسهم ومعاناتهم لغرس مشاعر الحقد والكراهية ودفعهم للانتقام من أوضاعهم أكثر من دعوتهم إلى التغيير بمناهج عقلانية وأساليب علمية تراعي واقع المجتمع وحقائقه.

عند الحديث عن ايجابيات وسلبيات وسائل التواصل الاجتماعي، هناك أيضا بعض النقاط التي يطغى فيها السلبي على الإيجابي، منها الجريمة الإلكترونية التي زادت من عبء أجهزة الأمن التي وجدت نفسها مجبرة على استحداث قسم جديد مهمته ما أصبح يعرف بالجريمة الإلكترونية التي أصبحت بعدد حوادث الطرقات، بعدما استغلت هذه الوسائل للترويج للجرائم والتحريض على ارتكابها، كما حولت المنظمات الارهابية وسائل التواصل الاجتماعي إلى مكاتب تجنيد، إضافة إلى بعض الجرائم العديدة والمختلفة مثل نقل الفيروسات، والتعرُض إلى الهجمات الإلكترونية، وسرقة الحسابات عن طريق الاختراق أو القرصنة.

فوضى صحافية

من الإيجابيات والسلبيات التي يمكن تعدادها أيضا، اعتبار وسائل التواصل الاجتماعي منبرا إعلاميا، وهذا بعد ذهاب الكثير من الخائضين إلى القول إن هذه الوسائل تمكنت من الاستحواذ على مكانة الجريدة والراديو والتلفزيون بفضل ميزة السرعة في نشر الأخبار، بالأخص في حال حدوث أزمات وكوارث، باستعمال الكتابة والصورة والصوت، ووصل الحد إلى ظهور تسميات مختلفة لمثل هذا النوع من المنشورات مثل صحافة المواطن والإعلام البديل وصحافة الشارع، وهذا شيء مضحك بالفعل إلى درجة القهقهة، لأن مثل هذا الادعاء يسمح بأن يتحول أيّ شخص مهما كان مستواه التعليمي إلى صحافي، وهذا لا يختلف كثيرا عن مشجع كرة القدم، الذي بمجرد انتهاء مشاهدته لمباراة يتحول إلى مدرب وحكم ومحلل رياضي ويدلي بدلوه حتى ولو لم يمارس طيلة حياته رياضة كرة قدم في أيّ فريق، ولم يقرأ أيّ مادة عن قانون التحكيم في كرة القدم، وكل ما يعرفه عن هذه الرياضة أنه متتبع شغوف. وعليه، من السخافة جدا تقزيم الصحافة إلى مجرد نقل خبر في شكل جمل ومجوعة صور، لأن الأخبار أولا هي من علوم الإعلام والاتصال، وثانيا هي مهنة ومسؤولية.

مجتمعات مترنحة

تناوُل إيجابيات وسائل التواصل الاجتماعي وسلبياتها، لا يشكّل في الحقيقة سابقة في عالم وسائل الإعلام والاتصال، حيث شهدت كل وسيلة عند بداياتها هجومات عنيفة، وجّهت إليها ضربات موجعة للنيل من مصداقيتها والتقليل من شأنها، فوسائل التواصل الاجتماعي ليست وحدها من عرفت الحملات التي تستهدف تشويهها، كما أنه من غير الموضوعية عند دراسة أيّ موضوع التركيز على سلبياته وتجاهل إيجابياته، لأن وسائل التواصل الاجتماعي مثلها مثل بقية وسائل الاعلام والاتصال هناك منها ما يحمل محتواها مضمونا قيما وهادفا، إذ ليس من الإنصاف حصر وسائل التواصل الاجتماعي في مجرد إنشاء أو ربط علاقات صداقة بين مستخدمين أو أكثر، إنما توجد منها من لها أهداف مهنية أو اقتصادية أو علمية أو معرفية أو ثقافية بحتة.

من المجحف أيضا تسليط الضوء فقط على وسائل التواصل الاجتماعي على أساس أنها فقط بؤرة فساد ومصدر لنشر الرذيلة، كما أنه من غير اللائق النظر إلى مستخدمي هذه الوسائل كقصّر وتوجيه نصائح لهم وإرشادات وكأنهم أطفال صغار، كما أنه من الخطأ التعميم، صحيح أن هناك بعض الحسابات التي توحي بأن أصحابها من ذوي الحالات النفسية غير السوية ويحتاجون إلى أطباء نفسانيين، وأن منشوراتهم تعكس حالات مرضية أكثر مما تعبر عن مجرد خربشات، إلا أنه من الخطأ وضع عموم المستخدمين في سلة واحدة.

رب قائل إن وسائل التواصل الاجتماعي ليست إلا حتمية لانحدار مستوى بقية وسائل الإعلام والاتصال التي فقدت سحرها وبريقها بعدما أدخلت المجتمعات في عالم التفاهة، إلا أن هذا ليس بالجديد، فقد سبقنا العديد من المفكرين الذين أكدوا أن وسائل الإعلام غيرت مجتمعاتنا إلى مجتمعات وقحة قابلة للفرجة، وأن الفرد في هذه المجتمعات لم يعد متعطشا إلى الحقيقة بقدر مطالبته بالأوهام.

باحث وأكاديمي جزائري

حدود الخصوصية اليوم

بهاء درويش

يفرض كل تطور تكنولوجي نفسه على طبيعة وقيم حياة الإنسان للدرجة التي يتغير معها ما يكون الناس قد عدّوه ثوابت حياتية لهم خاصة إذا ما طالت فترة ثباته مما يولّد اعتيادا عليه واعتقادا أنه أصل ثابت غير قابل للتغير. تعد حدود الخصوصية من هذه الأمور التي تتغير نتيجة التطور التكنولوجي.

مع اجتياح الرقمنة حياتنا على كل الأصعدة وفي كل الميادين، تلك التي يسير العالم سيراً حثيثاً نحوها، وهي ما تعني الاعتماد التام على تكنولوجيا متقدمة وذكية متطورة باستمرار كنظام - بديل للقوة البشرية - في شتى ميادين الحياة، ومع استخدام وسائل التواصل الاجتماعي واعتياد الانسان عليها حتى صارت هذه الأخيرة تشكل جزءاً مهماً لحياته لاشتراكها أيضاً كأداة في تنظيم حياة الإنسان اليومية مثل برنامج الواتس أب، اعتاد معظم الناس تبادل صور شخصية وتوثيق أخبار ونشاطات خاصة بهم، بل وحتى الإعلان عما يتذوقونه ويفضلونه من مأكولات وألوان للملابس التي يرتدونها، وآرائهم حول الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية مما يجعل معرفة ميولهم وآرائهم واتجاهاتهم الفكرية وتطلعاتهم وطموحاتهم ممكنة لدى الكثير ممن يتاح لهم الاطلاع على صفحاتهم وصفحات أصدقائهم الإلكترونية، كما أنه من الممكن تخزين كل هذا من خلال برامج وتطبيقات إلكترونية معينة، إلى الحد الذي ثار معه السؤال: أين الخصوصية الفردية - إذن- بعدما أصبحت حياتنا الشخصية مباحة ومتاحة للجميع نتيجة التقارير التي نكتبها بأيدينا عن كل ما يخصنا ونتيجة المعلومات الشخصية التي تخصنا والتي أصبحت في أيدي كثيرين غيرنا، منهم من نعرف ومنهم من لا نعرف؟ أين الخصوصية في عالم ذاب فيه التمييز بين ما هو عام وما هو خاص؟ هل أصبحنا نعيش مرحلة أو (عالم ما بعد الخصوصية) كما أسماه ميخائيل كوسنسكي (Michal Kosinski)؟

يرى البعض أن حدود الخصوصية تنكمش مع كل ازدياد لاستخدامنا للرقمنة ولأدوات التواصل الإلكتروني. ولما كان العالم يتجه نحو الرقمنة، فإن حدود الخصوصية تتجه نحو الذوبان بحيث يصبح من الصعب الحديث عندئذ عن خصوصية. لا يكمن الضرر فقط في غياب الخصوصية ولكن في خشية الاستغلال السيء لهذه المعلومات الخاصة. المعلومات الخاصة بأمورنا الصحية ستكون متاحة على تطبيقات وبرامج خاصة لكل من يستخدم الرقمنة الصحية. من الممكن أن يمارس أصحاب العمل تمييزاً ضد المستخدمين من أصحاب الأمراض المزمنة وأن يعطوا الأولوية لأصحاب الجينات الوراثية التي تظهر ذكاء ونشاطاً أعلى إذا ما تمكنوا من الوصول إلى هذه المعلومات.

ولكن ناحية أخرى، يرى البعض أن هذا الاختفاء التدريجي للخصوصية - أو لنقل السرية - والذي لن ينطبق فقط على الأفراد ولكنه ينسحب أيضاً على المؤسسات والحكومات سيجعلنا نحيا في عالم أكثر شفافية: سوف يصبح من الصعب على الحكومات في ظل إتاحة المعلومات أن تكذب على شعوبها أو تخفي معلومات من حقهم الاطلاع عليها. ففي ظل عالم من الصعب فيه إخفاء المعلومات، سيستعد كل امرئ للتفكير في كيفية التعامل الشفاف مع الآخر [Spivack, N.The Post Privacy World. In https://www.wired.com/the-post-privacy-/07/insights/2013/world/ تم الدخول بتاريخ 29 يناير 2020].

أرى أن الخصوصية خاصية فطرية من خصائص الإنسان، تختلف درجتها وحدودها من مجتمع إل آخر ومن وقت إلى آخر ولكنها لن تختفي. فهي قيمة مطلقة من حيث وجودها في كل زمان ومكان ولكنها في الوقت نفسه قيمة نسبية لاختلاف شدتها من مجتمع إلى آخر ومن زمن إلى آخر.

لا غرابة أن يقلق الغرب من هذا الذي بدا لهم اعتداء على الخصوصية ويطلق أحد مفكريهم على المرحلة التاريخية القادمة مرحلة أو "عالم ما بعد الخصوصية". فالقارئ للفكر الغربي والمتأمل للحياة في الغرب في العصر الحديث يلاحظ إعلاء مفكري الغرب وأشياعهم من غير الغربيين - بفخر - من شأن الخصوصية الفردية، والحديث عن كيف أنها ما يعطي الفرد قيمته واستقلاليته، فهم يعدونها من منجزات الديموقراطية الغربية التي يفخرون بها، بل ويعدونها القيمة الأخلاقية الأولى التي تتأسس عليها سائر القيم المجتمعية الأخرى. تعني الخصوصية وفقاً لهم الاستقلالية التامة لكل بالغ في قراراته وسلوكياته وحياته، خصوصية تظل مشروعة طالما أنها لا تخالف القانون. هذه الخصوصية خصوصية واعية

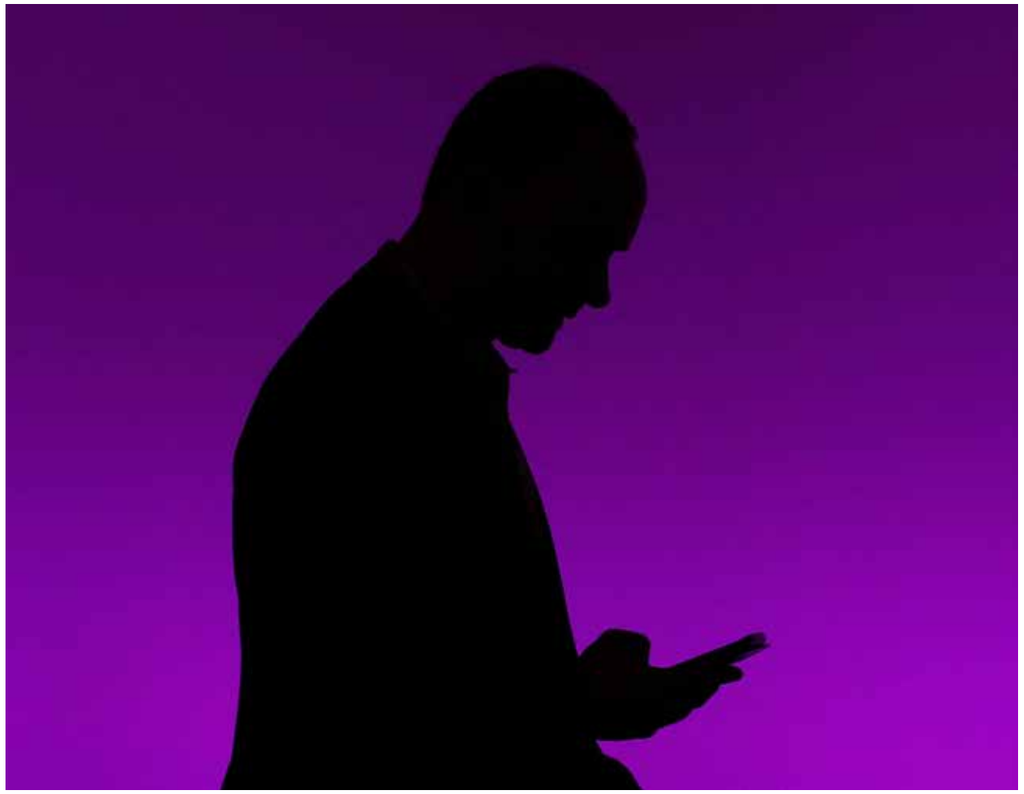

يمارسها المرء باختياره وإرادته راغباً فيها ومتحملاً لنتائجها. ولكن الغرب في العصر الحديث ربطها بحق المرء في الاحتفاظ بسرية معلوماته الخاصة وحمايتها ضد أيّ اعتداء عليها.

أما الخصوصية في التصور الاسلامي فهي جزء لا يتجزأ من رؤية كلية عن كيفية حماية واحترام الإسلام لكرامة الإنسان من حيث كونه خليفة الله على الأرض. من هنا نجد تأكيداً عليها وعلى كيفية احترامها لخصوصية الإنسان في أكثر من آية قرآنية "ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً"، (الحجرات: الآية 12)، "يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها" (النور: الآية 27)

هذا المفهوم للخصوصية التي تهدف لصون كرامة صاحبها شابه خلط في مجتمعاتنا العربية بجعله مضاداً للحميمية الاجتماعية. غابت هذه الحميمية الاجتماعية التي كانت تميز الشرق العربي لتحل محلها خصوصية مستوردة من الغرب مزقت الأسر. انتقلت إلينا هذه الخصوصية من الغرب نقلاً - للأسف - آلياً دون أن نحاول اختباره والتحقق مما إذا كان يناسب نسيجنا الاجتماعي أم لا. فلأننا لا نختبر عادة ما يأتينا من الغرب، ولا نتحقق غالباً مما إذا كان يناسبنا أم لا، أو نحاول استقراء نتائجه التي قد تكون له، وكيف نستفيد منه إن أمكن، بل نتلقاه تلقياً أعمى، فإن انتقال كل ما هو غربي من أدوات وقيم وسياسات إلى مجتمعنا العربي - بحكم أن الغربي هو الأكثر تقدماً وقوة - لا يأخذ مجهوداً، لا من الناقل ولا من المتلقي. كان من نتيجة هذه الخصوصية الفردية التي انتقلت إلينا كشرقيين نتصف بالحميمية الاجتماعية أن ألقى كل فرد بنفسه في مجتمع افتراضي من خلال اعتماده على أجهزة المحمول بدلاً من المجتمع الحقيقي الذي كان يحيا فيه. ففي الوقت الذي اعتقد فيه الفرد العربي أنه بهذه الخصوصية يحقق استقلاليته، سمح لمن لا يعرف - في عالم الرقمنة أو عالم ما بعد الخصوصية - بالاطلاع على خصوصياته.

بعيداً عن مفهومي الخصوصية الغربية والعربية، يبدو أن هناك دائماً حدوداً مقيدة للخصوصية تفرضها ظواهر خارجة عن إرادة الإنسان على المرء أن يتنازل فيها عن قدر من هذه الخصوصية من أجل أن تستقيم حياته. فالإنسان قبل اعتماد حياته على الرقمنة كان يحيا في مجتمع قوامه أفراد تنشأ بينهم علاقات. يضحي فيه المرء ببعض خصوصياته وأسراره في سبيل قيام هذه العلاقات. فالقريبون منه قرابة الدم أو لظروف العمل

يعرفون بعض خصوصياته التي تختلف كماً وكيفاً من شخص إلى آخر ممن يتعامل معهم. اعتاد الناس أيضا على احترام الملكيات العامة التي يشاركه فيها بقية أفراد المجتمع. كذلك يتنازل المرء عن قدر من خصوصياته متى تعارضت مع صالح المجتمع.

بالمثل، في عهد الرقمنة، يمكن لكل امرئ حماية خصوصياته على صفحات التواصل الاجتماعي بعدم نشر ما لا يحب. فكما أن هناك برامج وتطبيقات تجعل كل خصوصيات مستخدميها متاحة، هناك تطبيقات حماية وتقييد إتاحة يمكن استخدامها. كما يمكن للمجتمع أن يحفظ للفرد خصوصياته ويحميه من إساءة استخدام المعلومات الخاصة به بقوانين تمنع وتجرّم نشر أو استخدام أيّ معلومات أو صور خاصة دون استئذان صاحبها. نحتاج أيضاً لقوانين تضع حدوداً قاطعة بين ما هي خصوصيات فرد أو مؤسسة ما وبين ما هو تعدّ على الصالح العام أو الأمن القومي فيصبح من حق الدولة التدخل فيه.

السرية والخصوصية مطلوبة أيضاً لحماية كرامة المرء. سنحتاج لتشريعات تحمي الموظفين أصحاب الأمراض أو الضعفاء بشكل عام ضد أصحاب العمل الذين قد يمارسون تمييزاً ضدهم متى تم الكشف عن حالاتهم الصحية وذلك برفض توظيفهم حتى وإن لم تكن أمراضهم تشكل خطورة على غيرهم.

هذه على مستوى سائر المجتمعات. أما بالنسبة إلينا كشرقيين، أعتقد أننا في حاجة لدراسة هذا الوافد الجديد علينا دراسة جيدة، وأعتقد أن حظنا أفضل من الغرب كوننا لم ندخل عالم الرقمنة بالقدر الذي دخل فيه الغرب بعد. وبالتالي مازالت الفرصة أمامنا لدراسة السلبيات التي بإمكاننا تجنبها قبل حدوثها ويبقى تميزنا مرهوناً بقدرتنا على قطف أكبر قدر ممكن من ثمار نواتج التكنولوجيا بأقل قدر ممكن من خسائر تغيير قيمنا الأساسية.

أكاديمي مصري

ملف

الأخ الأكبر حي فينا

محمد الحجيري

صكّ الروائي البريطاني جورج أورويل مصطلح "الأخ الأكبر" في روايته "1984" الديستوبية التي، تعتبر أخطر رواية سياسية في القرن العشرين، توقع فيها مصير العالم، إذا ما وصل المد الشيوعي إلى الغرب، وتمكن من السيطرة على أوروبا. تصوّر الرواية دولة خيالية هي دولة "أوشانيا العظمى" التي يدير شؤونها أربع وزارات، هي وزارة الصدق ومهمتها تزييف الحقائق، ووزارة السلام وتتولى شؤون الحرب، ووزارة الوفرة والرخاء وتتولى مهمة تخفيض الحصص التموينية المخصصة للأفراد، وأكثر الوزارات بثا للهلع والرعب في قلوب المواطنين هي وزارة الحب التي تعنى بحفظ النظام. وقد أمعن أورويل في النقد حدّ التوغل في العلاقات العاطفية بين الموظفين التي يمنعها النظام المستبد بشدّة، إلا أن يكون زواجاً ميكانيكياً محضاً غير مدفوع بعاطفة "مبيتة"! وقال أورويل عام 1948 تاريخ صدور الرواية، "إذا كنت تريد أن تحفظ سراً، يجب عليك أيضا إخفاؤه عن نفسك"، وعرض واحدًا من أهم أمثلة المراقبة وأكثرها شهرة على مر العصور، وهو نموذج "الأخ الكبير" (الدولة المستبدة/الحزب الحاكم)، وبحسب ويكيبيديا بعد نشر الرواية أصبحت كلمة الأخ الأكبر "تستعمل كمرادف للتعسف في استعمال السلطة الحكومية وخصوصاً في احترام للحريات المدنية. استخدمه الغرب كسلاح من أسلحة البروباغندا فى الحرب الباردة وذلك لإقناع جيل كامل بأن التغيير الاجتماعي الجذري لا طائل من ورائه".

أورويل الفوضوي والمثقف الكاره للمثقفين، والصحافي والمراسل الحربي في إسبانيا والمتشرّد يوماً في باريس، كان معجباً بالتجربة السوفياتية (الشيوعية) خلال الأربعينات من القرن الماضي، فزار الاتحاد السوفياتي السابق عام 1948 خلال عهد الرفيق ستالين وصدم بإجراءات الرقابة والتنميط للإنسان، وحين عاد إلى بريطانيا كتب سلسلة مقالات عن لغة الخطاب الدكتاتوري، وأصدر روايته آنفة الذكر التي يقلب فيها تاريخ سنة زيارته للاتحاد السوفياتي، ليصبح عنوان الرواية، التي يعرض فيها كيف أن "الأخ الأكبر" الذي يحكم المدينة يراقب كل شيء. في المقلب الآخر، كشفت الوقائع في السنوات الأخيرة أن الرفيق أورويل، المبدع وصاحب المواقف، اعتاش علي نحو سري من كتابة التقارير عن أصدقائه الكتاب والفنانين! فضح أورويل الأنظمة التي تدّعي الإنسانية والعدالة والحرية، وكان ضد كل الأنظمة وفي نفسه كان فضيحة نفسه... وكشفت ملفات المخابرات البريطانية (MI5) التي أصبحت متاحة للاطلاع أمام الجمهور، أن أورويل وُضع تحت رقابة عملاء المخابرات البريطانية لأكثر من عشر سنوات بسبب الشك في ميوله واتجاهاته السياسية، إلا أنها لم تتمكن من التأكد من أنه كان شيوعيا.

ومن دون شك، أن الأخ الأكبر الذي صكه أورويل يحمل الكثير من التأويلات، وهو إن انتهى حضوره في أوروبا، لكن ما زال حاضراً في إيران بأشكال مختلفة، وحاضرا في الصين، في مراجعة لـ«1984»، كتب إسحق عظيموف (1920 . 1992)، روائي الخيال العلمي الأميركي المعروف، مشتكياً من أن نوعيّة الاستبداد الذي صوّرته الرواية لم يعد ذا صلة بمجتمعاتنا المعاصرة. لقد انتهت النازيّة والفاشيّة والستالينيّة والمكارثيّة. ويضيف "وإذا كان ثمّة شيء لنخشاه ونحن في عام 1984 الفعلي، هو أن الحكومات المعاصرة شديدة الوهن". برغم موجة التكنولوجيا الهائلة، بدا أن بلاد ماو تسي تونغ تمزج بين الشمولية والتكنولوجيا في مراقبة المواطنين لكن مختلفة عن الثيمة الأصلية للأخ الأكبر. وإذا ما عدنا إلى بعض القراءات الحديثة للأخ الأكبر، نجد أن العالم الذي يصوره أورويل يمثّل، بحسب الفيلسوف البولندي زيغموند باومان، عالم الشر السائل، باعتباره عالماً غامضاً مفتقداً إلى الوضوح، يعجز الإنسان عن فهم سبب حدوث الشيء. لقد عاش أورويل عالم الكذب خلال عمله في الصحافة وتغطيته الأحداث والحروب وتغلغله بين التنظيمات الأيديولوجية. فضح أورويل كذبة الحرب عندما قال "لقد رأيت معارك كبيرة يُكتب عنها، عندما لم يكن هناك معارك. وصمتاً كبيراً عندما كان يقتل مئات الرجال. لقد رأيت القوّات التي كانت تحارب بشجاعة تدان بالجبن والخيانة، وآخرين لم يحاربوا قطّ ولم تطلق عليهم طلقة واحدة يَحْيَون كالأبطال في معارك وهميّة". أخافت ظاهرة الكذب هذه أورويل إلى أبعد الحدود، لأنّها كما كتب "تعطيني الشعور بأنّ كل مفهوم الموضوعيّة والحقيقة والصِّدقيّة قد بدأ ينحسر ويغيب عن هذا العالم". يقول الصحافي والناشر رياض نجيب الريس "من هنا بدأت فكرة رواية '1984' تختمر في رأسه. ومنذ ذلك الحين كرّس أورويل كتاباته ضدّ ظاهرة الكذب، فتصدّى للستالينيّة، وتصدّى

ديلدور عمر

للفاشيّة، وتصدّى للرأسماليّة".

و"في عالم جورج أورويل لا نفهم سبب الأحداث، ولا كيفيتها، بل لا نستطيع أن نفعل شيئاً يذكر، وربما لا نستطيع أن نفعل أي شيء، فليس هناك بديل أبداً، افعل الشر بنفسك، هذا هو منطق الشر السائل، وأنت تفعل ذلك، وهم يجعلونك تفعل ذلك بنفسك، حتى تصرخ كما صرخ ونستون سميث بطل الرواية قائلا: 'لا تفعلوا بي ذلك، وإنما بجوليا' وفي النهاية، تحب الأخ الأكبر". وعلى الرّغم من أن سيولة الشر في عالم 1984، تجسدت في السلطة الدكتاتورية المقيتة والمكروهة، غير أنها قدمت نفسها للجماهير بمسمى الأخ الأكبر لكي تحظى بقبولهم وتنال حبهم ورضاهم، لذلك، فمن الطبيعي أن يتقبل النّاس الحرب، في النهاية، على أنها هي السلام، والسلام هو الحرب، وأن الإكراه هو الرعاية الحنونة. ويفرض على المواطنين رقابة صارمة داخل بيوتهم وخارجها، ويفرض رأيه عليهم في شؤون حياتهم كلها، الأفكار والقناعات السياسية، حتى طريقة ممارستهم

للجنس. على أن باومان يرى أن ذلك النموذج بات قديمًا لا يتناسب مع عصر الحداثة السائلة التي نعيش في جنباتها، فقد "أسدل الستار على عصر الارتباط المتبادل الذي شهد المواجهة بين المديرين والخاضعين للإدارة، وأما العرض الجديد فهو دراما جديدة أكثر مراوغة، إذ تنتقل السلطة بسرعة الإشارة الإلكترونية"...

وإذا كان الأخ الأكبر بصورته الروائية بات قديماً، فإنه ما زال ينبعث بأشكال مختلفة. وفي حوار أجراه مع عالم الاجتماع ديفيد ليون، يعرض زيغموند باومان رؤيته هو و"ليون" حول مفهومهما للمراقبة في عصر الحداثة السائلة، وما آلت إليه أساليب المراقبة التي سالت وتسرّبت في أدق تفاصيلنا اليومية، من خلال سبعة فصول، هي على الترتيب: الطائرات من دون طيار ووسائل التواصل الاجتماعي، المراقبة السائلة ومرحلة ما بعد البانوبتيكون، البعد والإبعاد والتحكم الإلكتروني، اللاأمن والمراقبة، النزعة الاستهلاكية والمواقع الإلكترونية والفوز الاجتماعي، المراقبة من منظور أخلاقي، وأخيرا القدرة والأمل.

وينطلق الكتاب من نظرية سجن "البانوبتيكون" عند الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو والذي يجلس فيه المراقب خلف زجاج معتم، داخل برج يتوسط مجموعة دائرية من الزنازين المغلقة، لا يرى فيها أيّ من المساجين زملاءه ولا يرى بالطبع من يراقبه، وهو النموذج الصلب من المراقبة الذي سال داخل سجون الرأسمالية الحديثة التي نسكنها كمستهلكين، ولكننا لا ندخلها كسجناء تحت القمع، وإنما كمترفين ومتمتعين، أو مضطرين لحاجة التواصل مع العالم دون قهر مادي علينا. وحاول باومان في حداثته السائلة أن يدرس ظاهرة الفردية، انطلاقاً من ملاحظته أن مجتمعنا اليوم هو مجتمع خاضع لسيرورة النزعة الفردية، يقول باومان "حداثتنا الغربية نسخة يطغى عليها الطابع الفردي والطابع الخاص.." (الحداثة السائلة)، فالفرد هو الفاعل الوحيد في مرحلة السيولة، فالكل يؤول إلى الفرد وحده، هو فقط من له الحق في تقرير الأشياء ذلك أن الأفراد في عالم الحداثة السائلة ينعمون بحرية الاختيار فأصبح العالم خالياً من ذلك الأخ الأكبر الذي ذكره جورج أورويل، كما أنه أيضا لا يوجد الأخ الأكبر الحنون الذي قد يساعدك ويحنو عليك ويمد يد العون لك في الظروف الصعبة والأوقات الحرجة، ومن هنا أصبح كل ما يتعلق بمصير الفرد في يد "الفرد" ذاته، فالفرد هو الذي يقرر الأشياء التي بمقدوره أن يفعلها، وينمي هذه المقدرة بأقصى المستطاع.

تختلف الآراء حول "الأخ الأكبر" وأفق وجوده. قبل مدة كتبت الباحثة دلال البزري مقالا بعنوان "تجسس الجميع على الجميع" قائلة "لم يَعُد الأمر كما هو عليه في رائعة جورج أورويل، '1984'، ولا كما رسخ طويلاً في أذهاننا، عندما سكنّ فيها 'الأخ الكبير' هذا، واحد أحد، يتجسّس، يتآمر بالتالي علينا جميعاً، من دون أن نتمكّن من كشف حبائل تجسسه ولا من قطعها. لم تَعُد أميركا هي ذاك 'الأخ الأكبر'، محتكر المعلومات التي تبثها آلاتها الجهنمية عبر الأثير، وعبر غيره من المعابر إلى حيواتنا، الخاصة والعامة. انكسر هذا الاحتكار، وانكشفت أميركا على أصدقائها وأعدائها. 'الأخ الأكبر'، لم يعد محصناً في غرفه السرية السوداء، صار عارياً، تحت نظرنا".

وسأل الشاعر الراحل أمجد ناصر هل انتهى زمن "الأخ الأكبر" فعلاً مع انطواء دولة ستالين ورفاقه، في غير بلد أوروبي شرقي (وآسيوي أيضاً)؟ ويجيب كلا! وها هو المجند الأميركي إدوارد سنودن، الذي فضح أكبر عملية تجسس على البشر في التاريخ، لا يزال يذكرنا بالتحولات التي تطرأ على "الأخ الأكبر"، وانبعاثه من رماده... ما أسماه أورويل بالأخ الأكبر، لحركات المواطنين وسكناتهم، لا يرقى إلى ما بلغته الرقابة مع الثورة الرقمية. الواقع أبعد مدى من الخيال. الثورة الرقمية التي سهّلت الاتصال والتواصل، غشيت المجال الخاص للأفراد، فيمكن لما هو سرّ، أو تحت غطاء السريّة، أن ينفلت بنقرة، أو بطاقة صغيرة، تحوي مئات الآلاف من الملفات كما وقع مع ويكيليكس.

في يونيو 2013 نشرت جريدة الغارديان البريطانية في موقعها تسريبات عن الوكالة الأميركية الوطنية، تتضمن معطيات خاصة عن الأشخاص أو ما يسمّى بمراقبة الجماهير، من خلال الإنترنت وشركات الخدمة الكبرى، كان وراء تلك التسريبات إدوارد سنودن.

المعطيات التي أبان عنها، حينها، نُعتت بالعالم الأورولي، نسبة لجورج أورويل. يقول الكاتب والروائي المغربي حسن أوريد كان من المفترض أن يقوم حينها نقاش حول مدى شرعية تغلغل الوكالة في المعطيات الخاصة بالأفراد، ولكن الفقاقيع التي تلت ذلك من استنكار وبعض النقاشات في بعض الدول الغربية، ما لبثت أن خفتت. وسرعان ما أصدر سنودن كتابا بعنوان "سجل دائم"، ومن ثمة طرح موضوع مراقبة الجماهير عبر الإنترنت ومدى شرعية تلك المراقبة. السؤال الذي يطرحه الكتاب، بغض النظر عن السياق المرتبط بالولايات المتحدة، هو إلى أيّ حدّ يمكن للدولة من خلال أجهزتها الأمنية، أن تعتدي على حياة الفرد الخاصة؟ الهاجس الأمني المهين في الولايات المتحدة، وفي العالم، بعد 11 سبتمبر 2001 جعل الأجهزة الأمنية في منأى عن أيّ رقابة ديمقراطية، ولذلك لا تتورع الأجهزة في اقتحام المجالات الخاصة للأفراد، حتى وإن كان في أنظمة غير استبدادية. وبعد 11 سبتمبر بدأت "1984" بالعودة إلى واجهات المكتبات، واستعادت ثيماتها راهنيّة سياسيّة وفلسفيّة تزايدت بعدما كشفت تسريبات ويكيليكس سائر فضائح عالم الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، لكن في كل شخص بات يوجد "الأخ الأكبر".

كاتب لبناني

الْعَارِي لَا يُعَرَّى

انتهاك الحق في الخصوصية والتخلي الطوعي عنه

عبد الرَّحمن بسيسو

سَواءٌ أَضُيِّقَ مَفْهُومُهُ أَمْ وُسِّعَ، فَسَيَكونُ لِمُصْطَلَحِ "الْخُصُوصِيَّةِ" أَنْ يَظَلَّ مَأْهُولاً بِمُدْلُولاتٍ عَمِيقَةٍ تَتَرَكَّزُ فِي مَفْهُومِ "الْحَيِّزِ الْخَاصِ"، وسَيَكُونُ لِلْكَلِمَةِ الاسْمِ: "الْحَيِّزِ" مَعْزُولَةً عنِ الصِّفَةِ "الْخَاص"، أَنْ تُحِيلَ إِلى شَيءٍ مُتَعيَّنٍ في الْوَاقِعِ، أَو مُتَصَوَّرٍ في الْفِكْرِ، وقَدْ يَكُونُ هَذَا الشَّيءُ "مَكَاناً"، أَوْ "نِطَاقاً"، أو "مَجَالاً" أو "فَضَاءً" أو "إِطَاراً" أو "كَنَفاً"، أَو غِيرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَّصِلُ بِهِ، أَو يُرادِفُهُ وَيُمَاثِلُهُ فَيَنْدَرِجُ مَعَهُ في نِطاقِ الدَّلالةِ الْجَامِعَةِ الضَّامَّةِ الَّتي تَضْفُرُ مَعَانِي الْحَيِّزِ في "دَلالةِ الْجَمْعِ والضَّمِّ والتَّحْدِيدِ النِّطَاقِيِّ"؛ أَيْ جَمْعَ وضَمَّ وتَحْدِيدَ نِطَاقِ وُجُودٍ، وتَفَاعُلٍ، وفَاعِليَّة، مُكَوِّناتٍ وعَنَاصِرَ ذَاتِ طَبِيْعَةٍ، أو مَاهِيَّةٍ، واحِدةٍ، أَوْ ذاتِ طَبَائِعَ، أَوْ مَاهِيَّاتٍ، مُتَمَاثِلةٍ عَلى نَحْوٍ يَرُدُّهَا جَمِيْعاً إِلى أَصْلٍ مُشْتَرَكٍ وَاحِدٍ؛ فَيَكُونُ لِهَذَا الضَّفْرِ أَنْ يَشْمُلَ شَتَّى مَدَاراتِ الْوُجُودِ، وَجَمِيْعَ أَحْيَازِ الْأَرْضِ، والْكَونِ، والْفِكْرِ، والْعِلْمِ، والْمَعْرِفَةِ، والأَنْشِطَةِ الإِنْسَانِيَّةِ بِأَسْرِهَا. أَمَّا مَصْدرَيِّ الْفِعلِ الثُّلاثيِّ الْجَذْرِ: "حَازَ" الَّذي مِنْهُ اشْتُقَّ الاسْمُ "الْحَيِّز"، والَّذِينِ هُمَا "الْحَوْزُ" و"الْحِيَازَةُ"، فَسَيأْخُذُنَا إِلى دَلالةِ "الْمُلْكِ" و"الْمِلْكِيَّةِ" مِنْ دُونَ أَنْ يُفَارِقَا مَعْنَى "الجَمْعِ والضَّمِّ والامْتِلاكِ والْحَوزِ والنَّوْلِ"، ومَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ مَعَانٍ ودَلَالَاتْ.

ثُنَائِيَّتَا الْخَاصِّ والْعَام، والْمُغْلَقِ والْمَفْتُوح

وإِذْ تُسَنَدُ إِلى "الْحَيِّزِ "، أَوْ إِلَى غَيرِهِ مِنَ الْكَلِماتِ الدَّالَّة عَلَى النِّطَاقاتِ الْجَامِعَةِ الضَّامَةِ الَّتي أَوردنَا أَبرزَهَا أَعْلاهُ، الْكَلِمَةُ الصِّفَةُ: "الْخَاصُّ"، لِنَكُونَ إِزاءَ الْعِبَارَاتِ الاصْطِلاحِيَّةَ: "الْحَيِّزَ الْخَاصّ"، أَوْ "الْمَجَالِ الْخَاصِّ"، أَوْ الفضَاءِ الْخَاصِّ" أَوْ مَا قَارَبَ ذلكَ مِنْ عِبَاراتٍ تَصِفُ الاسمَ الْمَوْصُوفَ بالْخُصُوصيَّةِ، فَتُحَدِّدَهُ بِهَا، وتَفْصِلَهُ عَنْ كُلِّ حَيِّزٍ، أَو مَجَالٍ، أَو فَضَاءٍ، سِوَاهُ، فَإِنَّ لِهَذَا التَّحْدِيدَ أَنْ يَنطَوِي عَلَى إِدْراكٍ ضِمْنِيٍّ لِثُنَائِيَّةِ "الْخَاصِّ والعَامِّ" وعَلَى فَضْلٍ قَدْ يَبْدُو قَطْعِيّاً ونَاجِزاً بَينَ طَرَفَيْهَا. وإِذْ يَضَعُ هَذَا التَّحْدِيدُ "الْخَاصَّ" فِي مُقَابِلِ "الْعَامِّ"، فَإِنَّهُ يَفْتَحُ الذِّهْنَ عَلَى اسْتِدْعَاءِ ثُنَائِيَّاتٍ مُتَقَابِلَةٍ أُخْرى كَثُنَائِيَّتَيِّ: "الْمُغْلَقِ" و"الْمَفْتُوحِ"، و"الضِّيقِ" و"الْوَاسِعِ"، ومَا قَارَبَ دلالاتِهِمَا مِنْ ثُنَائِيَّاتٍ، كَمَا يَفْتَحُهُ عَلَى تَصَوُّرِ سُلَّمٍ اسْتِبْداليٍّ لَا نِهَائِيٍّ يَضُمُّ كَلِمَاتٍ وَكَيْنُونَاتٍ وأَشْيَاءَ قَابِلَةٍ لِلْوَصْفِ بِأَيٍّ مِنْ هَاتِينِ الصِّفَتَينِ المُتَقَابِلَتَينِ، لِنَكُونَ، فِي خَاتِمَةِ الْمَطَافِ، إِزَاءَ كَوْنَينِ مُتَقَابِلَينِ هُمَا: "الْكَوْنُ الْخَاصُّ"، وَ"الْكَونُ الْعَام" اللَّذَانِ يَحْتَوِيَانِ مُكَوِّناتٍ عديدةٍ ومُتَنَوِّعَةٍ، ولَا يَبْقَى لِأَيٍّ مِنْهُما وُجُودٌ فِعْليٌّ ذُو مَعْنىً إِنِ انْغَلَقَ أَوَّلُهُمَا، طِيْلَةَ الْوَقْتِ، عَنْ ثَانيهِما مُكْتَفِياً بِخُصُوصِيَّتِهِ الْمُغْلَقَةِ عَلَى نَفْسِهَا، أَوْ إِنِ انْفَتَحَ عَلَيْهِ بِتَسَاهُلٍ يُذِيبُ فِي عُمُومِيَّتِهِ خُصُوصِيَّتَهُ. وكَذَلِكَ هُوَ الأَمْرُ إِنْ عَمِدَ ثَانيهِمَا عَلَى اجْتِيَاحِ أَوَّلِهِمَا والشُّروعِ فِي الْتِهَامِهِ عَلَى نَحْوٍ يَسْلِبُهُ، قَهْراً وقَسْراً، حُقُوقَهُ وخَصَائِصَ خُصُوصِيَّتِهِ، فَيَنْفِي، فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ، وُجُودَهُ الْمَاهَوِيَّ، لِيَنْفيَ مَنْ ثَمَّ، إِمكانِيَّةَ وُجُودِ التَّقَابُلِ الَّذي يُحَقِّقُ لِكِلَا الكونيين: المُلْتَهِمِ والْمُلْتَهَمِ، إِمْكَانِيَّةَ إِدْرَاكِ كَيْنُونَتِهِ، ويَمْنَحُهُ دَلالَاتِهِ الْجَوهَرِيَّةَ، ومَغْزَى وُجُودِه، وَمَعْنَاه!

وفِي سِيَاقِ هَذَا الْمَعْنى لَا يَكُونُ لِإِقْدَامِ "الْكَونِ العَامِّ" على الْتِهَامِ مُقَابِلِهِ، أَيْ "الْكَوْنِ الخَاصِّ" المُنَوِّعِ والمُتَعَدِّدِ، مُتَصَوَّراً، عَنْ خَطَإٍ فَادِحٍ، أَنَّهُ بِذلِكَ يُعَزِّزُ كَيْنُونَتَهُ الْعَامَّةَ عَلَى حِسَابِ كَيْنُونَاتِ الأَكْوَانِ الخَاصَّةِ الْفَرْدِيَّةِ والْجَمْعِيَّةِ الحَمِيْمِيَّة، الَّتي إِلَيْهَا، وإِلَيْهَا وحْدَهَا، يَعُودُ فَضْلُ تُعْرِيْفِهِ، وتَحْدِيدِ مَاهِيَّتِهِ، بِتَقَابُلِهِا مَعَهُ، أَنْ يُسْفِرَ عَنْ شَيءٍ سِوَى نَفْيِ الخُصُوصِيَّةِ فِي عُمُومِيَّةٍ رِجْرَاجَةٍ ستَفْقِدُ مَعْ تَمَامِ الأمرِ مَاهِيَّتَها ومَعْنَاهَا الجَوْهَرِيَّ، لِتُحِيلَ "الْكَوْنَ الْعامَّ" نَفْسَهُ إِلى بَيْداءٍ وَمَتَاهَةٍ!

وَبِقَدْرِ مَا يُقَدِّمُ "الكَوْنُ الْخَاصُّ" مِنْ فَضْلٍ فِي إِيْجَادِ آخرِهِ، أَيْ "الْكَونِ الْعَامِّ"، وفِي تَحْدِيدِ مَاهِيَّتِهِ، وتَعريفِه، نَجِدُ أَنَّ "الْكَونِ الْعَام" يُقَدِّمُ الْقَدْرَ نَفْسَهُ مِنْ الْفَضْلِ فِي تَحْقِيقِ الأَمْرِ نَفْسِهِ، وبَالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا، بِالنِّسْبَةِ إِلى "الكَونِ الخَاصِّ" الَّذي يَتَمَايَزُ عَنْهُ، ويُعَرِّفُ بَكَوْنِهِ "الْكَونَ" الَّذِي يُقَابِلُه ويَتَّسِمُ بِخَصَائِصَ جَوْهَرِيَّةٍ، ومُكَوِّنَاتٍ مَاهِيَّةٍ، ثُنَائِيَّةٍ، فِي أَعَمِّهَا الأَغْلَبِ، خَصَائِصَهُ ومُكَوِّنَاتِ مَاهِيَّتِه!

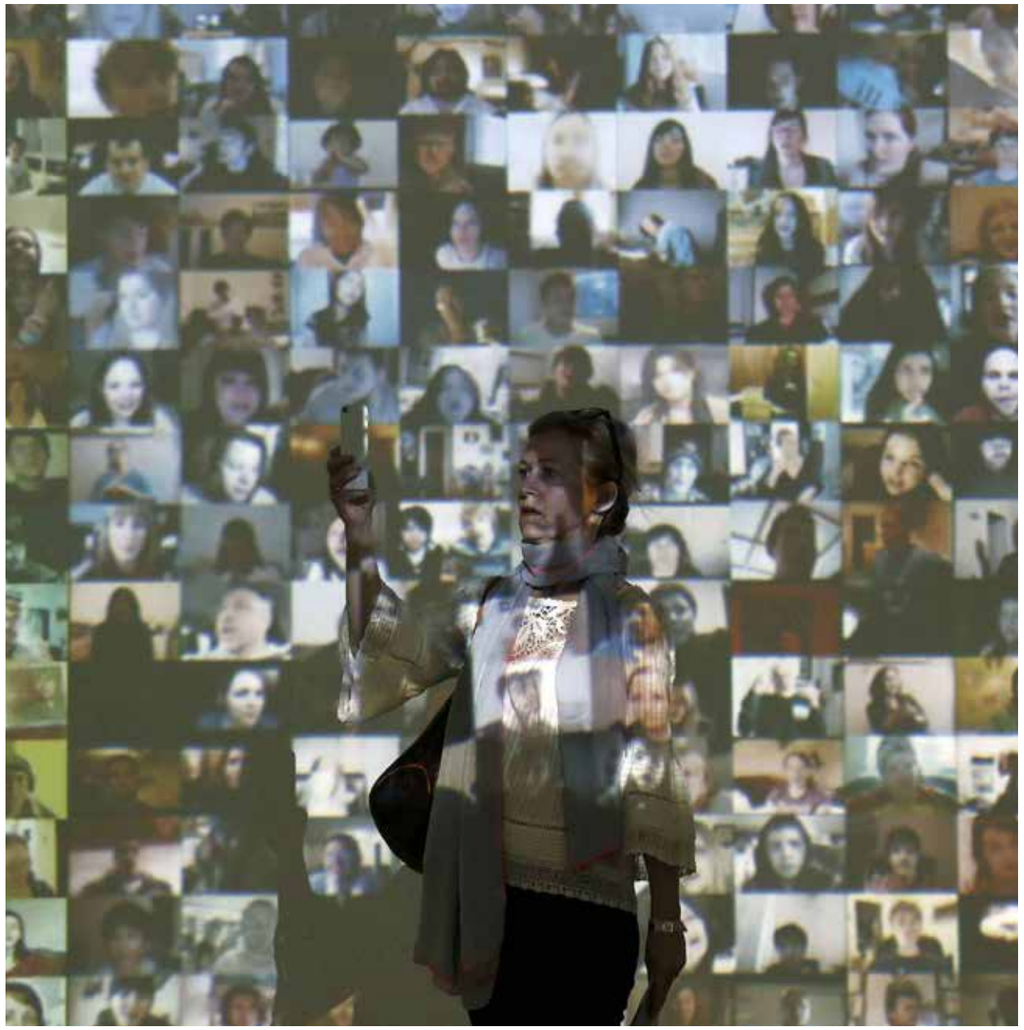

فَلَا غِنَىً لَنَا، إِذَنْ، ولا سِيَّما إِنْ شِئْنَا إِدْرَاكَ وُجُودٍ إِنْسَانِيٍّ حَقِيْقِيٍّ وقَوِيمٍ فِي الْوُجُودِ، عَنِ إِدْرَاكِ إِلْحَاحِيَّةِ حَاجَةِ كُلٍّ مِنَ الْكَوْنَينِ لِآخَرِهِ لِيُوْجَدَ، ولِيُدْرِكَ لِنَفْسِهِ كَيْنُونَةً حَاضِرَةً ومَفْتُوحَةً عَلى صَيرورةِ حَيَاةٍ، وتَحَوُّلاتٍ، ومُسْتَقْبَلِ وُجُودٍ، بِلْ لَا غِنَىً لَنَا، قَبْلَ ذَلِكَ وبَعْدهُ وفِي كُلِّ وَضْعٍ وحالٍ، عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيْقَةِ "الْكَونِ الْخَاصِّ" وأَوْلَوِيَّتِهِ بِوَصْفِهَا حَقِيْقَةً تَأْسِيْسِيَّةً بِالنِّسْبَةِ إِلى "الْكَوْنِ الْحَمِيْمِيِّ الْجَمْعِيِّ الْخَاصِّ" و"الْكَوْنِ الْعَامِّ" عَلَى السَّوَاءِ، فَمَا هَذَينِ الأَخِيْرَيْنِ، مِنْ حَيْثُ بُذُورِ مِيْلادِهِما، ومُؤَسَّسَاتِ انْبِثَاقِهِما، ومَدى شَسَاعَةِ مَجَالِهِمَا، وتَعَدُّدِ نِطَاقَاتِهِمَا الْمُتَشَابِكَةِ الْمُتَفَاعِلَةِ، ووِحْدَةِ كَيْنُونَتِهِمَا، إِلَّا نِتَاجاً لِلْكَوْنِ الأَوَّلِ الْمُتَعَدِّدِ الْكَيْنُونَاتِ الْفَرْدِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِقَدْرِ تَعَدُّدِ الأَفْرَادِ مِنَ النَّاسِ الَّذينَ لا يَتَجَلَّى وُجُودُ أَيٍّ مِنْ "الْكَوْنِ الْجَمْعِيِّ الْحَمِيمِيِّ الْخَاصِّ"، و"الْكَوْنِ الكُلِّي الْعَامِّ"، إِلَّا عبْرَ تَفَاعُلِ ذَوَاتِهِمِ الْفَرْدِيَّةِ الْمُتَمَايِزةِ، وانْفتاحِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ عَلى نَحْوٍ إِرَادِيٍّ مَقْصُودٍ، ومَنْشُودٍ، لِمُوَاجَهَةِ ضَرورَاتٍ، ولِتَلْبِيَةِ حَاجَاتٍ، ولإِشْبَاعِ رَغَائِبَ وغَايَاتٍ، ومُلاقَاةِ آمَالْ.

لَوْلَا انْفِتَاحُ الأَكْوَانِ الْفَرْدِيَّةِ الْخَاصَّةِ عَلَى بَعْضِهَا بَعْضَاً، مُنْذُ بِدْءِ الْبَدْءِ، وعَلَى نَحْوٍ إِرادِيٍّ مُحَفِّزٍ، ابْتِدَاءً، بَالاشْتِهَاءِ الْفِطْرِيِّ وغَرِيْزَةِ الْبَقَاءِ، ثُمَّ بِالْحَاجَةِ إِلى تَلْبِيَةِ نِدَاءَاتِ الْجَسَدِ، ومُوَاجَهَةِ ضَرورَاتٍ طَبِيْعِيَّةٍ ضَاغِطَةٍ، وإِشْبَاعِ حَاجَاتٍ حَيَاتِيَّةٍ وَوُجُودِيَّةٍ لا يُشْبِعُهَا شَيءٌ سِوَى التَّعَارُفِ، والتَّزَاوُجِ الْحَمِيْمِيِّ، والتَّكَاثُرِ، والتَّعَاوُنِ، والعَمَلِ الْمُتَضَافِرِ،

وَالْعَيشِ المُشْتَرَكِ، لَمَّا كَانَ لِلكَونِ الْجَمْعيِّ الْحَمِيْمِيِّ الْخَاصِّ أَنْ يُوْجَدَ، وَأَنْ يَشْرَعَ فِي إِيْجَادِ كَيْنُونَتِهِ وَتَطْوِيرِهَا، وأَنْ يَتَسِمَ بتَوَسُّعِ النِّطَاقِ، وتَعَدُّدِ المَدَارَاتِ، النَّاجِمَيْنِ عَنْ تَفَاعُلِ الأَكْوَانِ الفَرديَّةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تُشَكِّلُهُ، وَلَمَّا كَانَ لَهُ أَنْ يَبْقَى، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ومعِ اسْتِمْرارِ اخْتِفَاظِ كُلِّ كَونٍ فَرديٍّ خَاصٍّ بِخُصُوصِيَّةٍ تُمَيِّزُهُ، كَوْناً حَمِيْمِيّاً جَمْعِيّاً خَاصّاً، مُوَسَّعاً قَلِيْلاً أَو كَثِيراً، وَمُغْلَقاً عَلَى نَفْسِهِ، ولا يَنْفَتِحُ عَلَى آخَرِيهِ مِنْ أَكْوانٍ خَاصَّةٍ، أَفْرَدِيَّةً كَانَتْ أَمْ جَمْعِيَّةً حَمِيْمِيَّةً، أَو مِنْ كَوْنٍ عَامٍّ، أَيّاً مَا بَلَغَ حَجْمُهُ المُتْراوِحُ بِينَ ضَيْقٍ واتِّسَاعٍ، إِلَّا بِإِرَادَتِهِ.

وَكَذَلِكَ أَيْضاً، لَمْ يَكُنْ لِلْكَونِ الْكُلِّيِّ الْعَامِ، عَلَى تَبَايُنِ حُجُومِهِ، وتَعَدُّدِ نِطَاقَاتِهِ، وَتَنَوُّعِ مَجَالَاتِهِ وَأَبْعَادِهِ، أَنْ يَتَجَسَّدَ وُجُوداً حَقِيْقِيّاً يُجَلِّي كَيْنُونَةً اجْتِماعِيَّةً حَيَّةً قَائِمَةً فِي الْوَاقِعِ الْبَشَرِيِّ الْحَضَارِيِّ الْفِعْلِيِّ، لَولَا تَضَافُرِ إِراداتِ أَكْوانٍ فَرديَّةٍ، وأَكْوانٍ جَمْعِيَّةٍ حَمِيْمِيَّةٍ خَاصَّةٍ، انْفَتَحَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وتَفَاعَلَ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ، وعَزَّزَ بَعْضُهَا بَعْضاً، فَتَحَقَّقَ لَهَا، عَبْرَ هَذَا التَّضافُرِ، إِيْجَادُهُ، لِيَكُونَ هُوَ الْمَجَالُ الْمُجْتَمَعِيُّ الْحَيَوِيُّ الْعَامُّ، مُتَبَايِنَ أَمْدِيَةِ الشَّسَاعَةِ، ومُتَغَايِرِ الْحُدودِ والنِّطَاقاتِ، ومُتَعَدِّدِ الْمُكَوِّنَاتِ، وَمُتَنَوِّعَ مَجَالاتِ الأَنْشِطَةِ والأَبْعَادِ، لِتَخْلِيَةِ الْوُجُودِ الْفَرديِّ الذَّاتِيِّ الْمُنْفَتِحِ، وللتَّفَاعُلِ البشريِّ الْخَلَّاقِ بِينَ الذَّوَاتِ الْفَرْدِيَّةِ الْمُنْفَتِحَةِ، وللْعَيْشِ الْمُشْتَرَكِ، ولِبَلورةِ ذَاتٍ جَمَاعِيَّةٍ ضَامَّةٍ وحَامِيَةٍ، وَلِمُتَابَعَةِ السَّعْيِ الْجَمْعِيِّ اللَّاهِبِ لِتَحْقِيقِ الْغَايَاتِ والأَهْدَافِ الْمُشْتَرَكَةِ، ولإِدْراكِ وجُودٍ بَشَرِيٍّ جَمْعِيٍّ يَتَأَسَّسُ عَلَى قَواسِمَ مُشْتَرَكَةٍ، وحَاجَاتٍ مُشتركةٍ، وأَشْوَاقٍ مُشْتَرَكَةٍ تُحَفِّزُ السَّعْيَ الْبَشَرِيِّ، الْفَرديِّ والْجَمْعِيِّ، لإِدْرَاكِ كَمَالٍ إِنْسَانِيٍّ مُحْتَمَلٍ.

مُوَازَةٌ بَينَ عَالَمَيْنِ: واقِعِيٍّ، وافْتِرَاضِيٍّ

ولئِنْ صَحَّ الْقَولُ الَّذِي لَا أَظُنُّه إِلَّا صَحِيحاً، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ مُؤَصَّلاً كَفَرْضِيَّةٍ قابلَةٍ لمزيدٍ مِنَ التَّفَحُّصِ والتَّمْحِيصِ الهادفَيْنِ إِلى تَعْمِيقِهَا وتَأْصِيلِهَا مَعرِفِيّاً؛ لَئِنْ صَحَّ الْقَوْلُ: إِنَّ الْحَيِّزَ الْعَامَّ الْمَفْتُوحَ هُوَ نِتَاجُ تَفَاعُلٍ إِراديٍّ مُحَفِّزٍ بالحَاجَةِ إِلى إِشْبَاعِ حَاجَاتٍ مُلِحَّةٍ ومُواجَهة ضَروراتٍ ضَاغِطَةٍ بينَ كَثْرَةٍ مُتَكَاثِرَةٍ مِنَ الأَحْيَازِ الخَاصَّةِ الْمُنْفَصِلَةِ والمُغْلَقَةِ عَلَى نَفْسِهَا والَّتِي أَلْزَمَتْهَا الحَاجَاتُ الْحَياتِيَّةُ والْوُجودِيَّةُ بِالانْفِتَاحِ عَلَى بَعضِهَا بَعْضاً، عَلَى نَحْوٍ أَفضى، في الْبَدْءِ، إِلَى تَشَكُّلِ الأَحْيَازِ، أو الأَكْوَانِ، الْجَمْعِيَّةِ الْحَمِيْمِيَّةِ الْخَاصَّة؛ أَمْضَيْقَةً كَانَتْ أَمْ مُوسَّعَةً، ومَنْ ثَمَّ، إِلى إِسْهَامِ الأَفْرادِ والْجَمَاعَاتِ، كُلٌّ بِقِسْطِهِ وبِحَسَبِ قُدراتِهِ ومَوارِدِهِ، وفي ضَوءِ دَوافِعِهِ ومُحَفِّزَاتِهِ ومَصالِحِهِ وغَايَاتِهِ، في بَلْورةِ تَشَكُّلِ الْكَونِ العَامِّ، لِيَكونَ هُوَ الْحَيِّزُ الْكُلِّيُّ، أو الْكَوْنُ الْكُلِّيُّ العَامُّ، أَو الْفَضَاءُ الْواسِعُ الشَّاسِعُ مُتَعَدِّدُ الْمَدَاراتِ، والْمَفْتوحُ بِاسْتِمْرارٍ لِتَسْهِيلِ تَوَاصُلِ شَتَّى الأَكْوَانِ الْفَرديَّة، والْجَمْعِيَّة الحميميَّة الْخَاصَّة، الَّتِي شَكَّلَتْهُ، ولاحْتِضَانِ تَفَاعُلِهَا، فَإِنَّنِي لأَحْسَبُ، في هَذَا الضَّوءِ، أَنَّ الْمَوَازاةَ التَّجَاوُبِيَّةَ، أو التَّعَارُضِيَّةَ، أو المُتَحَرِّكَةَ ذَهَابَا وَإِيَابَاً عَلَى الخَطِّ الْمَشْدُودِ بَيْنَ تَجَاوُبٍ وتَعَارُضٍ، بَيْنَ عَالَمَيْنِ هُمَا: عَالَمُ الْوَاقِعِ الْحَقِيْقِيِّ الْواقِعِيِّ الْمُعْطَى طَبِيعِيّاً واجْتِمَاعِيّاً، والْمُدْرِكِ عِلْمِيّاً ومَعْرِفِيّاً، وعَالَمُ الوَاقِعِ الافْتِراضِيِّ المُعْطَى إِلكترونِيّاً والْمُدرِكِ تَقَانِيّاً لِيُغَطِّي مَدَاراتٍ مُتَشَعِّبَةٍ يَتَحَقَّقُ وُجُودُهَا في فَضَاءَاتٍ إِلكْتُرونِيَّةٍ افْتِراضِيَّةٍ تُوازِي الْمدارَاتِ المُتَحَقِّقَةَ في الْوَاقِعِ الْفِعْلِيِّ الْقَائِمِ في شَتَّى أَحْيَازِ كَوكبِ الأَرضِ ومَجَالاتِه، لَيْسَتْ مُوَازاةً قَابِلةً للإِقَامَةِ ومُمْكِنَّةَ الْوجُودِ فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّهَا لَمُوَازاةٌ قَابِلَةٌ، بِقَلِيلٍ، أَو بَكَثِيرٍ، مِنَ خُصُوصِيَّةٍ، ولَهَا قُدْرةُ الانْفِتَاحِ على سِوَاهَا، والانْغِلاقِ عَنْهُ، مَتَى أَرَادَتْ، مَعَ أَنَّهَا محْكُومَةٌ بِالْوُجُودِ، وبِالتَّحَرُّكِ، وبِتَجْلِيَةِ الْوُجُودِ، فَضَائِيّاً وكَونِيّاً أَوَّلاً وَمَنْ ثَمَّ أَرْضِيّاً، في فَضَاءِ كَونٍ شَاسِعٍ هُوَ الْكَونُ الْكُلِّيُّ الأَكْبرُ الَّذي يَحْتَوِيها ويَنْطَوِي في أَعْمَاقِهَا في آنٍ، والَّذي يَبدو أَنَّه ذَاهِبٌ إِلى إِدْراكِ مَزِيدٍ مِنَ الشَّسَاعَةِ والْكُلِّيَّةِ، وَمِنْ تَكْرِيسِ الْهَيْمَنَةِ وتَرْسِيخِهَا، عَلى حِسَابِ استقلاليَّتِهَا كأَكْوانٍ فَرْدِيَّةٍ صُغْرى، أَو جَمْعِيَّةٍ حَمِيْمِيَّةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ من كِيَانَاتٍ وأَكْوانٍ تُوجَدُ في فَضَائِهِ الشَّاسِعِ ويَحْتَوِيهَا.

الْمَعْرِفِيِّ الْعَمِيقِ مِنْ خُطُواتٍ تُؤَسِّسُ لإِعَادةِ بَلْورةِ مَفَاهِيمِ المُصْطَلَحَاتِ المُتَداوَلَةِ بِقَصْدِ تَعْمِيقِ مُنْطَوِيَاتِهَا الْمَفْهُومِيَّةِ، وتَوسِيعِهَا نِطَاقَاتِها عَلَى نَحْوٍ لا يُغْفِلُ تَكْثِيفَ أَيِّ خُلَاصَةٍ يَنطَوِي عليهَا أَيُّ بُعْدٍ مِنْ أَبْعَادِ هَذَا الانْفِجَارِ الْهَائِلِ، والمُتَنَابِعِ، والمُتَسَارِعِ الْخَطْوِ بِلا تَوَقُّفٍ، والَّذي يَتَوالَى سُقُوطُ شَظَايَاهُ اللَّاهِبَةُ، دائِمَةُ الانْشِطَارِ والتَّشَظِّي، عَلَيْهَا!

تَّذوبُ الخُصُوصِيَّة وَإِبْدالُ الْبُوحِ بِالْكُتْمَانِ

عَلَى غِرارِ الْعَالَمَيْنِ: الطَّبِيعِيِّ الْوَاقِعِيِّ المُغْطَى؛ والاجْتِماعِيِّ الحَضَارِيِّ المُشَكَّلِ مِنْ قِبَلِ الْبَشَرِ، والمُدْرَكِ، مَعْرِفِيّاً، من قِبَلِ العَقْلِ الإِنْسانِيِّ اليَقِظِ الوَقَّادِ، وفِي نَوعٍ مِنَ المُحَاكَاةِ شِبْهِ المُحْكَمةِ لِمَا يَرْبُو عَلَى الْحَصْرِ مِنْ مُكَوِّنَاتِ هَذَيْنِ الْعالمين وبُنَاهِمَا، كَوَّنَ الْعَالَمُ التِّقَانِيُّ الإِلكْتُرونِيُّ الافْتِرَاضِيُّ؛ ونُسِجَتْ خُيُوطُ شَبَكَاتِه، وحُدِّدَتْ نِطَاقاتُ أَحْيَازِهَا، ومُكَوِّنَاتِها، ومَدَاراتِهَا، وفُتِحَتْ مَسَاراتُ دَوَرانِهَا حَوْلَ نَفْسِهَا، وأُقِيمَتْ خُطُوطُ ارْتِبَاطِهَا بِبعْضِها بَعْضاً، وأُنْشِئَتْ قَنَواتُ اتِّصَالِهَا الْحَيَوِيِّ بالشَّبَكَةِ الْعَنْكَبُوتِيَّةِ الدَّولِيَّةِ لِلْمَعْلُومَاتِ (الإِنْتَرْنِتْ The Internet) الَّتِي هِيَ الحيِّزُ الْكَونِيُّ الافْتِرَاضِيُّ الَّذي يُمْعِنُ، عَلَى مَدَى الْوَقْتِ، في الاتِّسَاعِ، وربَّما في اللَّاتَنَاهِي؛ فَثَمَّةَ، في هَذَا الْعَالَمِ التِّقَانِيِّ الإِلكْتِرونِيِّ الافْتِراضِيِّ المَفْتُوحِ عَلَى ما لا يَتَنَاهى مِنْ ضُرُوبِ التَّكْوِينِ، وإِتْقَانِ التَّكوينِ، وإِعادةِ التَّكوينِ؛ ثَمَّةَ كَائِنَاتٌ وكِيَانَاتٌ وكَيْنُونَاتٌ وأَكْوانٌ، مُسْتَقِلَّةٌ، مُنْفَصِلَةٌ ومُتَّصِلَةٌ، وذَاتُ خُصُوصِيَّةٍ، ولَهَا قُدْرةُ الانْفِتَاحِ على سِوَاهَا، والانْغِلاقِ عَنْهُ، مَتَى أَرَادَتْ، مَعَ أَنَّهَا محْكُومَةٌ بِالْوُجُودِ، وبِالتَّحَرُّكِ، وبِتَجْلِيَةِ الْوُجُودِ، فَضَائِيّاً وكَونِيّاً أَوَّلاً وَمَنْ ثَمَّ أَرْضِيّاً، في فَضَاءِ كَونٍ شَاسِعٍ هُوَ الْكَونُ الْكُلِّيُّ الأَكْبرُ الَّذي يَحْتَوِيها ويَنْطَوِي في أَعْمَاقِهَا في آنٍ، والَّذي يَبدو أَنَّه ذَاهِبٌ إِلى إِدْراكِ مَزِيدٍ مِنَ الشَّسَاعَةِ والْكُلِّيَّةِ، وَمِنْ تَكْرِيسِ الْهَيْمَنَةِ وتَرْسِيخِهَا، عَلى حِسَابِ استقلاليَّتِهَا كأَكْوانٍ فَرْدِيَّةٍ صُغْرى، أَو جَمْعِيَّةٍ حَمِيْمِيَّةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ من كِيَانَاتٍ وأَكْوانٍ تُوجَدُ في فَضَائِهِ الشَّاسِعِ ويَحْتَوِيهَا.

وفي هَذا الضَّوءِ، وبحسبِ مَا يُسْتَنْبَطُ مِنْ قِرَاءةِ تَارِيخِ التِّقَانَةِ الْحَدِيثَةِ ومُتَابَعَةِ تَطَوُّرِهَا مَتَسَارِعِ الْخَطْوِ، ومِنْ مُعَايَنَةِ وقَائِعِ المُمَارَسَةِ الْعَمَلِيَّةِ الموسُومَةِ بِإِقْبَالٍ هَائِلٍ عَلَى اسْتِخْدامِ الشَّبَكَةِ الْعَنْكَبُوتِيَّةِ الدَّولِيَّةِ لِلمعلُوماتِ للإِفَادةِ مِنْ فَضَائِلِهَا الْحَيَوِيَّةِ، فَإِنَّ تَوْسِيعَ شَسَاعَةِ الْكَونِ الافْتِراضِيِّ الْكُلِّيِّ الأَكْبرِ، وتَكْرِيسَ هيْمَنَتِهِ وترْسِيخَهَا، إِنَّمَا يَتَأَسَّسَانِ عَلَى مَنْظُومَةِ مَبَادئَ تَقَانِيَّةٍ وإِلكْتُرونِيَّةٍ، وأُخْرَى غيرِ تِقَانِيَّةٍ وغَيْرِ إِلكْتُرونِيَّة، تَأَسَّسَ عَلَيْها نُشُوءُهُ في مَسَاراتٍ وسِيَاقاتٍ ومَدَاراتٍ تُؤَسِّسُ، بِدَوْرِهَا، وَتُيَسِّرُ، وَرُبَّمَا تَتَطَلَّبُ، تَذْوِيبَ الْخُصُوصِيَّةِ في الْعُمُومِيَّةِ، وإِبْدالَ الانْفِتَاحِ الذَّاتِيِّ الطَّوعيِّ، أَو شِبْهِ الإِلْزَاميِّ المُمَلى بِأَوامِرَ إِلكْتُرونِيَّةٍ تَطْلُبُ رَفْدَ هَذَا التَّطْبِيقِ أَو ذاكَ بمَعْلُومَاتٍ خَاصَّةٍ وبِسُرْعَةِ بَوحٍ وإِفْضَاءٍ يَسْتَوجِبُهَا الاسْتِمْرارُ في اسْتِخْدَامِهِ والإِفَادةِ مِنْ مَنَافِعِهِ وخَدَمَاتِهِ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَعْرِفُهُ مُسْتَخْدِمُو الإِنْتَرْنِتْ، المُتَمَرْسِنَ وغَيرِ المُتَمَرْسِنَ، بالانْغِلَاقِ النِّسْبِيِّ الإِراديِّ عَلَى الذَّات، وبِالْكُتْمَانِ الَّذِي تَسْتَوجِبهُ الْمُحَافَظَةُ عَلَى الْفَرْدِيَّة والْخُصُوصِيَّةِ، وَحِمَايَتُهمَا مِنْ أَيِّ تَطَفُّلٍ أَو انْتِهاكٍ.

ويَبْدُو أَنَّ لِتَطَوراتِ شبكَةِ "الإِنترنت" الْمُذْهِلَةُ، وللاسْتِجَابَاتِ المُتَسَرِّعَةِ لإِمْلاءَاتِ شَبَكاتِ التَّواصِلِ الاجْتِمَاعِيِّ وأَوامِرِهَا الْعَاجِلَة، وللسَّعْيُ الْمَحْمُومُ لإِدْرَاكِ غَايَاتِهِمَا الْفَتُوحَةِ أَنْ تَتَضَافَرَ جَمِيْعاً مَع عَوامِلَ أُخْرى، لِتَأْخُذَ الْحَمِيْمِيَّةِ، والاسْتِفْلَاقِيَّة، والتَّعَدُّدِيَّة، والتَّنَوُّعِ، والتَّعَايُشِ، والتَّسَامُحِ، والإِخَاءِ، والمُسَاواةِ، والْعَدَالَةِ، ومَا إِلَى ذلِكَ مِنْ قِيَمٍ إِنْسَانِيَّةٍ مُكَرَّسَةٍ حَضَارِيّاً، واجْتِمَاعِيّاً، وإِلَى حَدٍّ بَعِيْدٍ، قَانُونِيّاً، إِلَى مَسَاراتٍ قَدْ تَأْخُذُهَا إِلَى نَقَائِضِهَا الصَّرِيْحَةِ الَّتِي تُجَلِّيهَا "الْعَولَمَةُ الرَّأْسِمَالِيَّةُ الاسْتِعْمارِيَّةُ" الْمُفْلِتَةُ، ذَاتُ الأَذرعِ التِّقَانِيَّةِ الْمُتَدَّدةِ صَوبَ كُلِّ صَوبٍ، والهَائِلَةُ التَّعَدُّدِ والتَّنَوُّعِ والتَّشَعُّبِ والشُّمُولِ، في الأَعَمِّ الأَغْلبِ مِنْ تَجَسُّدَاتِهَا القَائِمَةِ الآنَ في شَتَّى أَرجَاءِ الْكَوكَبِ الأَرْضِيِّ، أَوْ الَّتِي يَتَسَارَعُ إِيْقَاعُ تَحَقُّقِهَا، سَواءٌ في الْعَالَمِ التِّقَانِيِّ الافْتِراضِيِّ، أَوْ في انْعِكَاسِ تَأْثِيرَاتِهِ الهَائِلَةِ عَلَى جَمِيْعِ جَوانِبِ الْعَالَمِ الطَّبِيْعِيِّ الاجْتِمَاعِيِّ الْمَعْهُودِ الَّذِي يَحْسَبُ أَغْلَبُ النَّاسِ، ظَنّاً أَوْ أَمَلاً مَسْكُوناً بالحَنينِ، أَنَّهُ لا يَزالُ قَائِمَاً، في مَكانٍ مَا، كَمَا عَايَنُوهُ وعَاشُوا في رِحَابِهِ، وعَلَى نَحْوِ مَا كَانَ قَائِمَاً قَبْلَ وُقوعِ الانْفِجَارِ التِّقَانِيِّ الْمَعْرِفِيِّ الْعَظيمِ!

أَسْئِلَةُ "الْجَدِيْد" وفَضَاءاتِ التَّبَصُّرِ

فَكيفَ يُمْكِنُنَا، في ضَوءِ الْمَهادِ التَّبَصُّرِيِّ الأَوَّلِيِّ الْمُقْتَرحةُ أَبْرزُ خُلاصَاتِهِ، بُتَكْثِيفٍ وإِيْجَازٍ، أَعْلاهُ، أَنْ نَذْهَبَ إِلى بَلْوَرَةِ إِجَابَةٍ مُحْتَمَلَةٍ عَنْ سُؤالِ مجلَّة "الجَدِيدْ" حَوْلَ تبرُّعِ مُسْتَهْلِكي مَوَاقِعِ التَّواصُلِ الاجْتِمَاعِيِّ بِخُصُوصِيَّتِهم؛ أَيْ تَخَلِّيهِم، طَوْعاً، نَاهيكَ عَنْ تَخَلِّيهِم، سَهْواً أَو غَفْلَةٍ، أَو تحتَ وطْأَةِ إِلْحاحٍ تِقَانِيٍّ يُوجِبُ سُرْعَةَ الاستجابَةِ أَوْ يُمْلِيْهَا، عَنْ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ، وذَلكَ بالإِفْضَاءِ، بِتَسَرُّعٍ لافِتٍ، بِمَعْلُومَاتٍ خَاصَّةٍ، أَوْ بِأُمُورٍ تَتَعَلَّقُ بحَيَواتِهِم الشَّخْصِيَّةِ وعَلَاقَاتِهِم الْحَمِيْمِيَةِ بآخَرِيهم مِن كَائِنَاتٍ، وَكَيْنُونَاتٍ، وأَشْيَاءَ، لِتَطْبِيقَاتِ مَوَاقِعَ التَّواصُلِ الاجْتِمَاعِيِّ، ومِنَصَّاتِهَا، وشَبَكَاتِهَا التَّفَاعُلِيَّةِ المُتَشَابِكَةِ، لِتَكونَ مَبْذولَةً، بِسَخَاءٍ، لاطِّلاعِ الآخَرِينَ مِنَ الأَصْدقاءِ وغَيْرِ الأَصْدِقَاءِ مِنْ قَاطِنِي الْعَالَمِ الافْتِرَاضِيِّ، ولِعَمِيْقِ مَعْرِفَتِهِم إِنْ رَغِبُوا، وكَأَنَّمَا هُمْ يُعَرُّونَ أَنْفُسَهمْ فِيْمَا هُمْ يَتَخَلَّونَ عَنْ مِلْكِيَّتِهِم النَّفْسِيَّة لِمَا يَخُصُّهُم وخدَهُم ولا يَخُصُّ أَحَداً مِنَ النَّاسِ سِوَاهُم؟!

وكيفَ يُمْكِنُنَا، تَأْسِيساً عَلَى الإِجابَةِ الْمُمْكِنَةِ عنْ هَذَا السُّؤَالِ، أَنْ نُبَلْورَ إِجابَةً عَنْ سُؤالِ "الْجَدِيْدِ" المُتَعَلِّقِ بِـ"الْحَقِّ في الْخُصُوصِيَّةِ"، وذَلكَ مِنْ حَيْثُ نَشْأَتِهِ، وتَطَوُّرِه، ومَسَاراتِ قَوْنَنَتِهِ، ومَعايير تَحْدِيدِ نِطاقَاتِهِ، وآلِيَّاتِ حِمَايَتِهِ، وإِجْراءاتِ الْحَيْلولةِ دونَ انْتِهَاكِه مِنْ قِبَلِ أَيٍّ كانَ، ولا سِيَّمَا أَنَّ الْعَالَمَ التِّقَانِيَّ الإِلكْتُرونِيَّ الافْتِرَاضِيَّ ذَا الْفَضَاءاتِ الشَّاسِعَة والطَّاقَاتِ الْمُذْهِلَةِ يَتَوَافَرُ، الآنَ، عَلَى إِمْكَانِيَّاتٍ إِلكْتُرونِيَّةٍ وتِقَانِيَّةٍ هَائِلَةٍ تُمَكِّنُ مُخْتَرِعُوهُ وصُنَّاعُهُ ومُلَّاكِهُ وأَتْبَاعِهِم مِنَ اخْتِراقِ "الأَحْيَازِ الْخَاصَّة" أَيّاً مَا كَانَتْ حُجُومُهَا، ومِنَ التَّسَلُّلِ إِلَيْهَا، والتَّلَصُّصِ عَلَيْهَا، دونَ تَرْكِ بَصَمَاتٍ تَدُلُّ عَلَيْهِمْ؟!

وكيْفَ يُمْكِنُنَا، في ضَوءِ الإِجابَةِ عَنْ كِلَا السُّؤَالَيْنِ السَّابِقَيْنِ وفي السِّيَاقِ نَفْسِهِ، أَنْ نُبَلْورَ إِجابَةً عنْ السُّؤالِ المتعلِّقِ بالآثارِ السَّلْبِيَّةِ النَّاجِمَةِ عَنْ التَّبَرُّعِ، طَوْعاً، بالخُصُوصِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ، وعنِ انْتِهَاكِها، تَعَسُّفاً وقَهْراً وتَسَلُّلاً وتَلَصُّصاً وتجَسُّساً، مِنْ جِهَةٍ ثانِيَةٍ، وذَلكَ مِنْ دونِ أَدْنى تَغَافُلٍ عَنْ قِراءةِ عَلَائِمِ الإِرهَاصَاتِ الَّتِي شَرَعَتْ في التَّبَدِّي لِتُنْبِئَ بِقُرْبِ انْبِثَاقِ تَغَيُّرٍ جَذْرِيٍّ في بُنْيَةِ الْكائنِ الْبَشَرِيِّ، وفي بُنْيَةِ الإِنْسَانِ، النَّفْسِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ، نَاجِمٍ، أَساساً، عنِ الزَّحْزِيلِ الْفَرْدِيِّ الذَّاتِيِّ الدَّائِمِ في فَضَاءَاتِ الْعَالَمِ الافْتِراضِيِّ. ولَعَلَّ إِدْراكَ افْتِراضِ وُجُودِ هَذِهِ الإِرهَاصَاتِ والْعلاماتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَغَيُّرٍ جَذْرِيٍّ مُرتَقَبٍ في الْبُنْيَةِ النَّفْسِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ للكائنِ الْبَشَرِيِّ، وللإِنْسَانِ، هُوَ مَا اسْتَدْعَى انْبِثَاقَ سُؤالِ "الْجَدِيدِ" عَنِ انْتِهَاءِ "أُسْطُورةِ الأَخِ الأَكْبَرِ" بِوصْفِهِ فَسِيْفَاً مِثَالِيّاً، وقَرِيناً نَاصِحاً ومُشِيراً؛ أَوْ بِاغْتِبَارِهِ وَعْياً بَاطِنِيّاً عَمِيْقاً، وقِنَاعاً نَقِيْضاً لِلوجْهِ الاجْتِماعيِّ المُبْذُولِ لِلنَّاسِ عَبْرَ التَّقَنُّعِ؟!

***

سَيَكُونُ لَنَا ثَلاثُ وِقْفَاتٍ تَأَمُّلِيَّةٍ مع هَذِهِ الأَسْئِلَةِ الَّتِي نَبْذُلُ الامْتِنَانَ لِمَجَلَّةِ "الْجَدِيدِ" عَلَى إِطْلاقِهَا في فَضَاءِ التَّبَصُّرِ، وذَلِكَ في مَقَالاتٍ لَاحِقَةٍ سَتَعْمَلُ عَلَى بلْورةِ الإِجَابَاتِ الْمُمْكِنَةِ عَنْهَا، وذَلِكَ مِنْ زَوَايَا تَبَصُّرٍ عَدِيْدةٍ، ومِنْ مَنْظُوراتٍ رُؤْيَوِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وفي أُفُقِ مُعْطَيَاتٍ وخُلَاصَاتٍ مَعْرِفِيَّة مُتَغَايِرَةٍ، ولكنَّهَا، جَمِيْعاً، عَلَى صِلَةٍ عَمِيْقَةٍ، ومُبَاشِرةٍ، وذَاتِ تَشَعُّبٍ، مع مَا نَحنُ بِصَدَدِهِ مِنْ تَبَصُّرٍ في مَسْأَلَةٍ ذاتِ صِلَةٍ عَمِيقةٍ بِمسألةِ الْوُجودِ الإِنْسانِيِّ الحقِّ في الْوُجُودِ، وسَعْيِ الإِنْسَانِ اللَّاهِبِ لإِدراكِ وُجُودٍ إِنْسَانِيٍّ، ذاتِيٍّ وجَمعِيٍّ، أَعْلَى وأَسْمَى!

وإِنِّي لأَحْسَبُ أَنَّ الْفِكرةَ التَّأْسِيسِيَّةَ الَّتي ستنبثِقُ عَنْهَا هَذِهِ، الْمَقَالاتُ مُسْتَضِيئَةً بِها، إِنَّمَا هِيَ فِكْرةٌ فَلْسَفِيَّةٌ، مَنْطِقِيَّةٌ ومُؤَصَّلةٌ،

بِقَدْرِ مَا هيَ فِكْرةٌ يَسْهُلُ إدْرَاكُهَا عَبرَ رُؤيَةِ تَجَلِّيَاتِهَا الْهَائِلةِ فِي فَضَاءاتِ الْواقِعِ التِّقَانيّ الافْتِرَاضِيِّ الذَّاهبِ إلى إبْدالِ نَفْسِهِ بالواقِعِ الْواقِعيِّ الْمَعْلُومِ مِنْ قَبلُ للنَّاسِ، وهِيَ فِكْرةٌ تَقُولُ: إنَّ الْعَاريَ لا يُعَرَّى، وذَلِكِ بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ كَيْفِيَّات حُدُوثِ فِعْلِ التَّعْرِيَةِ، وَعَنْ مُحَفِّزاتِ فَاعِليهِ ودوافِعِهِمْ وغَايَاتِهِم، وعَنِ الأَسَاليبَ والْوَسَائِلِ والآليَّاتِ الْموظَّفَةِ لِتَعْرِيَة الْكَائِنِ الْمُعَرِّيّ، بِإرادَته، نَفْسَهُ، أَو الْمُسْتَهدَفِ بَنَزْعِ أَرْدِيَةِ ملْكِيَّتِهِ النَّفْسِيَّةِ، العَمَلِيَّة، لِكَونهِ الْخَاصِّ، وللْكَونِ الْجَمْعِيِّ الْحَمِيْمِيِّ الَّذي يَنْتمي إِلَيْهِ، والَّذي يُسْهِمُ بِقسْطِه الْوَاجِبِ فِي تَشْكِيْلِهِ، وفِي الْمحافَظَةِ عَلَى خُصُوصيَّتِهِ وحِمَايَتِها، والَّذِي يَفِيْدُ مِمَّا يُوفِّرهُ لَهُ وجُودُهُ الْحَيَوِيُّ الْحُرُّ، والْفَاعِلُ، فِي نِطَاقِهِ، مِنْ مِيْزاتٍ وحُقُوقٍ، ومَا يُشْبِعُهُ مِنْ رَغَائِبَ وأَشْواقٍ، ومَا يُلَبِيهِ مِنْ مُتَطلَّبَاتِ عَيْشٍ حَيَويٍّ، وحَاجَاتٍ ضَروريَّةٍ، مُتَنَوِّعَةٍ، ومَاسَّةٍ، رُبَّما يَعْجزُ الْوَاقِعُ الاجْتِمَاعِيُّ الْفِعْليُّ الْقَائِمُ، بِمعْناهُ الْواسِعُ وبِحَسَبِ الشُّروطِ الَّتي تَحْكُم وُجُودَهُ، وتُحَدِّدُ عَلاقَاتِ مُكَوِّنَاتِهِ، وأَقْطَابِهِ، ودَرَجَاتِ تَرَاتُبِيَّتِهِ، عَنْ إشْبَاعِهَا وتَلْبِيَتِهَا، أو لَعَّلهُ يَكْبَحُهَا، أَصْلاً، أَوْ لَا يَأْذَنُ بِهَا إلَّا وِفْقَ شُرُوطٍ، وبِحَسَبِ قَواعِدَ ومَعَايِيرَ، يَفْتَقِرُ الأَعَمُّ الأَغْلَبُ مِنَ النَّاسِ إلَيْهَا، أَوْ تَكْبَحُهُم أحْوالُ عيشِهِم الْمَحْكُومَةُ بِأَنْظَمةِ الثَّالوثِ التَّابَوِيِّ عَنِ السَّعْيِّ للتَّوافُرِ عَلَيْهَا! فَهَلِ الْعالَمُ التِّقَانيُّ الافْتِرَاضِيُّ هُوَ الَّذِي يَغْزُونا لِيَسْلَخَ جُلُودَنَا، أَوْ ينْتُفَ ريشَنَا، لِيُعَرِّيَنَا، وَيَلْتَهِمنا، أَمْ نَحْنُ مَنْ يَتَعرَّى، مَشْدُوْهَاً، أو رَاضِيَاً ومُطْمَئِناً، عَلَى شَواطِئِ سَواحِلِه، وفِي فَضاءاتِ رحَابِهِ الشَّاسِعَة؟!

ناقد وشاعر فلسطيني مقيم في بريطانيا

ملف

قبائل ثقافية في العصر الرقمي

الخصوصيات المباحة في مواقع التواصل الاجتماعي

طاهر علوان

" في هذه العقود الأخيرة وبعد أن أصبحنا واحداً
قمت بملامسة أشياء رائعة
لكنني اكتشفت فيما بعد أنها أشياء فضيعة "
(الشاعر الإنجليزي جيم ديفيز)

التراكم غير المسبوق للبرمجيات التي قادت إلى نظام متكامل صار على الأفراد والمجتمعات التقيد به والخضوع له وليس العكس. كل تلك الإجراءات اليومية هي نظام رقمي صارم ابتداء من كلمات المرور إلى البريد الإلكتروني إلى أرقام المرور إلى الحسابات إلى رقم المرور إلى المنزل ومن دون ذلك سوف تصبح خارج المنزل اي أنك سوف تبقى خارج النظام.

الفضاء الرقمي صار يمنح كل مفردات الحياة شكلا محددا مختلفا، لكن في المحصلة تلتقي تلك الأشكال والمفردات في سلاسل ضخمة ومتسعة تطوق الأفراد من كل جانب.

الاندلاع المعرفي والقرية الاتصالية الصغيرة التي تنبّأ بها علم الاتصالات مارشال مكلوهان قبل عقود تجاوزتها البشرية إلى القرى الرقمية والسلاسل المعرفية التي تنتظم في أنساق وتسير في مسارات خاصة غير مسبوقة.

هذا الواقع حمل معه الكثير من الإشكاليات والأسئلة والتعقيدات لكن في المقابل حمل معه رضا وتصالحا مع الواقع الجديد والتسليم به على اعتباره أمرا واقعا لا مناص للمرء من الانخراط فيه.

لنحاول خلال ذلك مقاربة ما نعنيه بمعضلة العالم الرقمي في مواجهة السلوك الإنساني، فالأفراد الذين ينتظمون في مجتمعات ضمنوا منذ الطفولة مبدأ الفردانية والخصوصية في العديد من النقاط والقضايا التي يتم فيها امتحان القدرات والضبط الشعوري.

الأفراد مطالبون مبكرا بالدفاع عن قيم ما تنتظم في الغالب في إطار الخصوصيات، السلوك الشخصية والروابط العائلية والقيم العاطفية والأسرار الشخصية كلها تنتظم فيما نقصده بالقضايا التي يدافع عنها الفرد مبكرا وينشأ على عدم المساس بها لكن كيف الحال وهذه كلها يتم الدفاع عنها من طرف الأفراد فيما تتدخل قوى رقمية وتفكك كل هذه المنظومات وتحللها وتختزنها وتفعل بها ما تشاء.

هذه المعطيات مجتمعة سوف تقودنا إلى تحديد المدى الزمني الذي يمكننا من خلاله المضي في هذا النظام الذي يؤطرنا وإلى أيّ مدى وإلى أيّ نتائج ومخرجات سوف يقودنا؟

سؤال من أسئلة عدة قد لا يتوفر عنها جواب واضح ومؤكد وذلك بسبب إطباق النظام الرقمي وتكامله وتغلغله في حياة الأفراد حتى يغدو من الصعب أو المستحيل التكهن بالنتائج والنهايات غير المرئية.

النظام الرقمي يطوّر ذاته والمبرمجون لا يتوقفون عن المجيء بتطبيقات جديدة ليس بالضرورة تلبية لحاجة المجتمع أو حاجة شريحة اجتماعية بعينها بل إن هنالك ضرورة في مثل هذه الحالات وهي أن تلك التطبيقات الجديدة إما أنها تتوالد بناء على حاجة مؤسسات وشركات ومراكز متخصصة ومؤسسات أمنية ومخابراتية.

في المقابل هنالك سوق لا حدود لها تسبح فيها البرامج ويجري نسخها وتطويرها وضخها في سياق نظام تجاري رقمي لا يعرف الحدود؟

هذا هو المقترب الأول الذي نحن بصدده هما والذي يمكن فهمه من خلال منطق مبسط خلاصته: إننا نمنحك امتيازات في مقابل مقايضتها بالخصوصيات.

الخصوصيات الرقمية المحاصرة

أن تعيش في العصر الرقمي معناه أن يكون لديك ملف. الجميع يتم إدخالهم في ملفات ما داموا في تلك الدائرة. العصر الرقمي يوفر لك امتيازات غير مسبوقة في مقابل منح خصوصياتهم.

لا أحد في الواقع مستعد لذلك لكن مجرد انخراط الفرد في النسق والنظام الرقمي سوف يجعل منه مفردة تداولية يتم التفاعل معها وتفعيلها.

النظام الرقمي يوفر لك تسهيلات لا تحصى، يحفظ لك يوميات عملك، يتيح لك التعامل المالي المباشر، تحوّل وتتسلم أموالا، البنك الرقمي سوف يكون بين يديك وسوف يعدك بالمحافظة على معلوماتك الشخصية بل إن هنالك من يقول لك صراحة أنه لن يبيعها لطرف ثالث.

لكن الواقع يقول إن الولوج إلى المعلومات الشخصية لن يكون حكرا على الطرف الثاني بل سيكون هنالك طرف ثالث متربّص وهي قبيلة القراصنة والهاكرز وهؤلاء لا تعرف أين سيهجمون ومتى سيهجمون وماذا يستهدفون.

هذه الظاهرة في تواجد القبائل الرقمية هي حالة أخرى تكمل المشهد إذ لولا وجودها والخوف منها لما تم إنفاق بلايين الدولارات على أنظمة الحماية وجدران الناس وأنظمة مكافحة الفيروسات والإكثار من البوابات وما إلى ذلك.

لقد أوجد النظام الرقمي أيضا ما يعرف بـ"gadgets" ومن خلالها يمكن النفاذ إلى الخصوصيات ومن ذلك منصات التواصل الاجتماعي المختلفة وهي ظاهرة غير محسوسة وبعيدة عن الرصد لأن المستخدمين لن يلحظوا شيئا غريبا بينما تكون تلك الأدوات تفعل فعلها في تتبع الأفراد والجماعات والتوغل في خصوصياتها.

نعم يمكننا القول إنها خصوصيات رقمية محاصرة بأدوات ووسائل ذكية يجري تطويرها بشكل مطّرد.

وإذا مضينا في `ذلك يمكننا تلمس واقع الفرد المحاصر من دون أن يدري ومن ذلك فإن مجرد استخدام شبكة الإنترنت سوف يخلف وراءه عددا من المخلفات التي تدل على شخص المستخدم أو تساعد في الاقتراب من عالمه والتعرف عليه.

التفضيلات في الاستخدام هي أولى العلامات التي تساعد في التوصل إليها أنساق الكوكيز وبالتالي يمكن معرفة المواقع الأكثر تفضيلا لدى المستخدم وتاليا ميوله واتجاهاته.

لم يكن بعيدا عن ذلك ما عرف بـ"فضيحة كامبريدج أناليتيكا" التي اندلعت في العام 2018، هذه الفضيحة هي أسطع دليل ملموس على الخصوصيات المحاصرة بالخوارزميات والكوكيز والجادجيتس وغيرها، عندما تم التسلل إلى الصفحات الشخصية لعشرات ملايين المستخدمين في أكبر حملة عالمية لاستخدام البيانات الشخصية من دون إذن مستخدميها لأغراض تحليلية تتصل باهتمامات الأفراد وخاصة أن الأمر كله ارتبط بحملة الرئيس الأميركي الحالي دونالد ترامب الانتخابية.

المعلومات الشخصية اندرجت في سلة كاملة من أدوات ووسائل التضليل والتشويش على ملايين الناخبين أو المواطنين العاديين وهو ما اعترفت به علانية الشركة البريطانية الشهيرة "أس سي أل" التي تتفاخر بأن بإمكانها الوصول إلى أدق الحقائق الرصينة من خلال شتى الأدوات سواء منها النظيفة أو القذرة.

تؤسس قصة كامبريدج أناليتيكا عهدا جديدا فضائحيا يتم التصالح معه والرضا به من طرف جمهور عريض لم يعد يشغله كثيرا الوصول إلى بياناته الشخصية أو التعرف على أدقّ المعلومات عنه.

إنه في الواقع تشكيل لما بعد محاصرة المجتمعات باستهداف الخصوصيات والبيانات الشخصية إلى مرحلة بديهية تتمثل بقبول الأمر الواقع في مقابل الخدمات.

نحن نجرّب استخدام تطبيقات من دكان غوغل أو دكان أبل وفي كل مرة وما أن ينزل التطبيق في الهاتف ستظهر لك شروط من أهمها أنك تأذن بالولوج إلى قائمة الهاتف الخاصة بك وبما فيها من تتصل بهم، ثم يطلب منك السماح بالدخول إلى ألبومات الصور، ثم السماح بالارتباط بالمايكروفون الخاص بالموبايل وبما يعنيه الإنصات وتسجيل المكالمات.

يعود بنا ذلك إلى فيلم "المخفي" أو "المجهول" للمخرج أندرو نيكول وهو من أفلام الخيال العلمي ويعرض لنا صورة افتراضية لحياة انعدام الخصوصية حيث صار بإمكان كل شخص بوساطة نظام مغروس في داخله استخراج المعلومات الشخصية لأيّ شخص يصادفه في الطريق أو في مكان عام.

تقنية التعرف على الوجوه تصبح بديهية حياتية ولا يخرج عن النظام أيّ أحد فالجميع خاضعون لتقنية التعرف المباشر والبشر يتحولون إلى مجرد أرقام وبيانات في نظام إحصائي وأمني صارم لا يخرج عنه أي أحد وإن خرج فسوف يتم اكتشافه فورا وإعادته إلى الحضيرة الرقمية ولو بالقوة.

الشاشات المتقابلة

تقدم الأنظمة الرقمية فضاء اجتماعيا فريدا من خلال اختصار وتقريب المسافات بين الأفراد وصولا إلى الحميمية والتآلف من خلال التحاور بشكل مباشر.

في المقابل تبرز في وسط إشكالية الخصوصية أن هذا الحوار قادنا إلى شكل جديد من أشكال العلاقات الغريبة، فمع تطور الذكاء الاصطناعي صار نقل الخصوصيات والمعلومات الفردية يكتسب شكلا آخر.

الذكاء الاصطناعي واللوغاريتمات بإمكانهما أن يرسما مسارا سلوكيا وعاطفيا ونفسيا افتراضيا للشخصيات وذلك من خلال التعمق في الخصوصية والتوصل إلى سيرة حياة الشخصية ومواقفها ومفردات حياتها.

يعرض فيلم حديث تحت عنوان "تطبيق" للمخرجة إليسيا فوكساس كيف أن الذكاء الاصطناعي يتوغل إلى قرارة العلاقة بين رجل وامرأة افتراضية تتمكن من تغيير مساره الحياتي بالكامل وربما تدفع بعض الشخصيات التي تعاني من مشكلات شخصية إلى تجربة المخدرات وصولا إلى الانتحار أو ارتكاب جرائم.

الحوار الذي نتحدث عنه هو حوار مفضل في ظل الاغتراب الذي يعانيه الأفراد والعزلة التي يعيشونها بسبب ضغوطات الحياة.

صار الفرد في بعض الأحيان يفضل التحاور مع المجهول والغامض الذي يستمع إليه بدلا من البشر الحقيقيين الذين سرعان ما يسأم من معاشرتهم ليعود إلى قوقعته.

لا شك أن نجاح تلك المقاربة الرقمية يكمن في الزمان والشخصية، فالفرد الذي يشعر بالانعزال ولا جدوى العلاقات الطبيعية ولا جدوى الزواج والإنجاب ولا جدوى الأصدقاء يجد أن البديل الافتراضي قد اعدّ لنفسه مكانا في هذه الحياة.

الزمان المتسارع يتيح متسعا في حياة الأفراد المعزولين إلى المعالِجات الرقمية فائقة السرعة، إذ بإمكان تلك المعالِجات أن تفي باحتياجات الفرد أيّا كانت كما بالإمكان تشكيل روبوت أو كائن افتراضي يماهي حياة الفرد المعزول ويتكامل معها.

في ظل وضع تكاملي كهذا تتبدد الخصوصية ونتحول إلى الفضاء الطارد للخصوصية أو الذي يمحو الخصوصية أصلا وصولا إلى كائنات رقمية - بشرية تسبح في الفضاء الافتراضي في شبه غيبوبة عن الواقع.

لهذا ليس مستغربا أن نشاهد حشودا بشرية ترتدي تلك النظارات الضخمة وكل منهم يسبح في فضائه الخاص ويلتقي مع شخصيات تقف إلى جواره مباشرة من دون أن يدرك ذلك وكأنهم يقيمون في مجرات أو كواكب اخرى.

هنا سوف نعود إلى فكرة اللعب او الطاقة الزائدة التي تكاملت فلسفتها عند شيللر ثم تطورت لدى هيربرت سبنسر، هنا نحن ننطلق من ذات المبادئ الفلسفية العميقة لحقبة مختلفة لكننا سوف نلتقي مع تلك الأرضية الفلسفية من خلال رسم صورة الفرد الذي يصبح عنصرا أساسيا في فضاء اللعب.

شاهد الاستعارات المتعددة للاسم واللون والبلد لأولئك الفتية الذين يمارسون ألعاب الفيديو بينما هم يقيمون في بلدان متعددة.

هذا النوع من فائض الطاقة واللعب يقدم شكلا حواريا رقميا فريدا وغير مسبوق في تشكل مجتمعات اللعب التي تذوب فيها الخصوصيات بشكل كلّي ويتحول فيها الأفراد إلى مجرد لاعبين عابرين ممسوحي الهوية.

الماسح المكاني والفرد الرقمي

يتماهى الفرد مع المكان ويصبح المكان من بين خصوصياته، أين يعيش جغرافيا وفي أيّ بيئة وفي أيّ محيط، لكن الفرد الرقمي سوف يجد نفسه في مواجهة الماسح المكاني الذي بالإمكان أن يجري تفعيله فيتحول الكائن إلى مجرد نقطة في مكان شاسع.

يدرس الباحثون كيث غولدشتاين وواود شيف ودان برازيس ذلك التحول المكاني - الرقمي للكائن البشري من خلال استقصاء نظام الخصوصية التي ما تلبث أن تصبح مباحة تحت بند المحافظة عليها بينما يمكن التفتيش فيها.

مكانيا، سوف يتم إحصاء الأماكن التي كنت قد ذهبت إليها في الماضي وسوف يتم توجيهك للأماكن التي تريد الذهاب إليها في الحاضر وبذلك سوف يكون هنالك بروفايل مكاني للشخصية يكشف عن بعد آخر منها من خلال علاقتها مع المكان والجغرافيا المكانية والأهداف التي من وراء ذلك.

الخوارزميات بإمكانها أن تقدم لك فورا عشرات الأماكن المشابهة إن كنت تبحث عن منزل للإيجار أو للشراء وبذلك سوف يكون العالم الرقمي شريكا في الخصوصية من جهة ومقدّما خدماته المجانية المريحة من جهة أخرى، فإلى أيّ طرف سوف ينحاز الفرد، إلى تشبثه بخصوصياته أو اختصار الوقت والجهد والمال؟

التتبع الرقمي للأفراد واقتفاء أثرهم لم يعد إلاّ مفردة من مفردات الزمن الرقمي إذ أن الضرورات الأمنية مثلا تستدعي ذلك الاقتفاء وملاحقة مطلوبين وبذلك سوف يكون الفرد مجرد نقطة متحركة في بقعة مكانية.

الفرد الغافل عن عملية التتبع هو جزء من نظام كامل يتحدث عنه الباحثون الثلاثة المذكورون آنفا وهم يتحدثون عن استهداف فئات اجتماعية أو شرائح أو إثنيات أو جماعات عرقية وصولا إلى جماعات إجرامية.

على هذا الصعيد المتعلق بذوبان الخصوصية هنالك حتمية لا سبيل لتجاوزها وهي ما أشرنا إليه في البداية من أن النظام المحك صار يفرض أنساقه الخاصة وعلى الفرد أن يتكيف معها بل إن ما هو أبعد من ذلك هو أن تتطور الخوارزميات والذكاء الاصطناعي بصفة عامة إلى وضع نظام أشد صرامة لا سبيل للإنسان الفرد الأعزل أن يتمرد عليه أو أن يرفضه أو أن يجري أيّ تعديل عليه.

في الجدل الثقافي المتعلق بالذات والمجتمع والهوية سوف نكون في مواجهة النظام ليضاف إلى مجمل التحديات.

ليس المقصود بالطبع النظام السياسي بل النظام الرقمي ونظام المدخلات والمخرجات الرقمية ونظام الذكاء الاصطناعي التي تستوجب نمطا مختلفا من المجتمعات الثقافية.

هنا سوف ينحسر الجدل الثقافي تارة في أنساق العزلة وذوبان الفرد أو التخلي عن الخصوصية وصولا إلى الذوبان في مجتمعات رقمية تجمع أفرادا يتشابهون في الاهتمامات والدوافع وفي كل الحالات فإننا نكون قد دخلنا زمنا ثقافيا عوليا قبائليا غريبا وغير مسبوق.

زمن القبائل الثقافية الرقمية ربما يكون هو أقرب، إذ لا يعود المثقف المرتبط بالنخبة والجمهور العريض هو المطلوب والمهم حضوره بل إننا سوف نكون في فضاء ثقافي يفرض تلك القبائلية الثقافية القائمة على فكرة التشابه وعلى ذوبان الخصوصية الفردية وعلى ذلك سوف تولد معايير جديدة للخطاب الثقافي، معايير غير مسبوقة وليس بالضرورة أن تلبّي أو تتماشى مع أهداف اجتماعية عليا شاملة بقدر التماهي مع أهداف الجماعات ذات الأهداف والنوازع المحدودة التي ليست بالضرورة تشمل الجميع بل تشمل أفرادا يعيشون في زمن ذوبان الخصوصية والفردية إلى عزلة فئوية خاصة خالصة يفرضها العصر الرقمي وعصر الذكاء الاصطناعي.

كاتب عراقي مقيم في لندن

ملف

عصر الشركات العملاقة

وجدي الأهدل

لقد انتهى عهد الأخ الأكبر وجاء عهد الأخوة الصغار! وهناك فرق بين العهدين، وكأنه انقلاب تام للمعادلة، فغدا المواطن العادي مُباهياً بأحداثه الشخصية، ويملك التحكم الكامل في نوع المعلومات التي ينتقيها ليخبر العالم عن نفسه.
صار بإمكان الفرد صنع صورته العامة بالطريقة التي تحلو له مكتسباً سلطة لم تكن له في السابق. في الماضي القريب جداً كانت أجهزة المخابرات تضخ إلى المجال العام الصورة التي تريدها عن المعارضين للنظام، وعلى وجه الخصوص المثقفين، وتصويرهم في صور نمطية سلبية منفرة.. إلا أن وسائل التواصل الاجتماعي حطمتْ تماماً هذه الاستراتيجية فلم تعد مجدية، وفقد الأخ الأكبر التقليدي سيطرته على المشهد العام.

طبعاً يمكن لهذه الأجهزة أن تُحدِّث أساليبها، وتنشئ جيوشاً إلكترونية تعمل من داخل وسائل التواصل الاجتماعي، ولكن حتى في هذه الحالة يمكن للمواطن القيام بإجراءات مضادة فعالة للحد من نشاطهم الخبيث.

نحن نعيش في حقبة الشركات العملاقة العابرة للقارات، وهناك وفرة معلوماتية لا يمكن محاصرتها، وعدم نجاح الأجهزة القمعية في محاصرة المعلومات هو دليل على ولادة إرادة جديدة كلياً، تتكون من مجموع إرادة ملايين الأفراد.

توظف الدول العربية قدراً هائلاً من اليد العاملة كـ"مخبرين".. لقد حان الوقت لإرسال هؤلاء إلى المعاهد الفنية ليتعلّموا صنائع مفيدة لشعوبهم وأوطانهم.

يقولون إن الآلة ستحل محل الإنسان في الآلاف من المهن، وهذا ما سيحدث أيضاً بشأن مهنة "المخبر"، إذ ستحل محله وسائل التواصل الاجتماعي!

يُقال إنه في عهد الرئيس العراقي صدام حسين كان الرجل يشك أن زوجته تتجسس عليه، والأب يخشى من ابنه، والأخ يرتاب في إخوته، لأن النظام في ذلك العهد كان يُحكم قبضته على الشعب عن طريق توظيف عدد هائل من المخبرين. وهذه أساليب قبيحة وفظة في إدارة الشعوب، وينبغي التخلص منها ودفنها في مقابر القرون الوسطى.

البديل المتحضّر الآن هو التجسّس عن طريق متابعة حسابات الفرد في وسائل التواصل الاجتماعي. إنه تجسّس مهذب يتم عن بعد، وبأساليب لا تثير الانزعاج.

في السابق كان أجر الحصول على المعلومة يحصل عليه المخبر وحده، ولكن في عصر الشركات العملاقة فإن المواطن يتقاسم مع الشركة المُشغّلة للموقع الاجتماعي ثمن المعلومة، فهو يُزود الشركة بمعلومات شبه يومية عن نفسه، وفي المقابل يحصل على خدماتها مجاناً.

هذه الطريقة الناعمة في إدارة الشعوب تبدو لي أفضل من الأساليب التقليدية الخشنة.. في الماضي كان يمكن لمخبر حاقد تقويض حياة إنسان بسبب تقرير ملفّق، أو قد يستغل لحظة انفلات أعصاب ضحيته التي تفوّهت بكلمات غاضبة عن النظام في أحد المقاهي ويرسل وشايته إلى المخابرات فيتم اعتقاله.

وسائل التواصل الاجتماعي لديها ميزة أنها تعطي المرء فرصة للتروّي والتفكير قبل النشر، وفي حالة انقضاء الانفعال الظرفي يمكن حذف المنشور ومحاصرة تداعياته.

وسائل التواصل الاجتماعي هي "المخبر" الأنيق الذي يتجسس علينا دون استفزاز أو ضغط. وهذا المخبر أكثر رحمة وإنسانية من نماذجه القديمة السيئة السمعة.. ويكفي أنه يتعامل مع المواطنين الذين يجمع عنهم المعلومات كزبائن لا كضحايا، ويمنحهم الحق في التمتّع بمزايا السادة الذين يقضون وقتاً ممتعاً وهم يستجّمون في المنتجعات الفخمة.

روائي يمني

حربٌ من أجل استقلال الذات

محمود الرحبي

كأنّما أصبحت حياتنا الخاصة في صراع من أجل الاستقلال. أتذكر هنا مقالا لأمبرتو إيكو تساءل فيه عن سبب حرص بعض المجرمين على ظهور وجوههم للتلفزيون، بدل الخجل من ذلك. وقد عقّب بأن المتهم أو المجرم أراد أن يستغلّ تلك اللحظة لكي يراه العالم، ظنا منه أن ما اقترف يستحق أن يعرف وعلى أكبر نطاق ممكن. فلم يعد يشعر بالخجل من أحد، والسبب أنه، بلا شك، سيجد ضمن هذا الحشد الذي سيراه معجبين به ومفتخرين بإمكاناته.. وكلنا نتذكر وجه ذلك السفاح الذي قتل المصلّين في "مسجد النور" بكريستن شيرش في نيوزيلندا وكيف كان يظهر بوقاحه، وكأنه طهّر العالم.

مدوّن آخر قام بخطوة مهمة في حياته، أشبه بعملية جراحية صعبة، إذ جرّب أن يحرم نفسه شهرا كاملا من الهاتف الذكي.. ألا يحمل معه هاتفا ذكيا. كان الموضوع مثيرا في بدايته ولكنه يمر بنفق طويل من المصاعب ومحطات ضياع استعان فيها بخبرته الحياتية لتخطّيها، قبل أن يعرف أن له حياة وخبرة لم يكن يلتفت إليها بسبب إكراهات هذا الهاتف الذكي الصغير، الذي كان - ودون شعور - يحمل حياته كاملة ويوجّهها الوجهةَ التي يريد.. ففي البداية عانى من صعوبة في إيجاد حيّز له في محيط الحياة. فلم يستطع أن يتعرّف حتى على الوقت، فقد نسي أن يأخذ معه ساعة يد. فالهاتف الذكي هو الذي كان يتكفل بكل ذلك. ولكنْ بمرور الوقت اكتشف أمورا كثيرة لم يكن يشعر بها إطلاقا بسبب الهاتف الذكي، الذي كان قد أودعه كل حياته تقريبا. ولكنْ بانصرام الأيام شعر بأنه يمتلك نفسه وقراراته دون تدخّل قوة هذا الهاتف؛ وبدأ بعد ذلك يحمل معه الهاتف ولكنْ في أوقات محددة. ثم تمكن، في نهاية المطاف، من السيطرة عليه وتحويله إلى آلة طيّعة، بعد أن كان العكس هو الصحيح، أي أنه كان هو آلية طيعة أو عبدا ضعيفا لنزوات هاتفه الذكي.

في حقيقة الأمر - أو هذا ما كان يُفترَض - لم يكن الهاتف سوى وسيلة ساخنة للتواصل مع الآخرين، لكنْ ما جدوى الآخرين وأنت بعيدٌ عن نفسك؟

نرى في وسائل التواصل الساخنة، وخاصة "فيسبوك"، أمورا قد تبدو عجيبة، من قبيل أن تجد أشخاصا يحرصون على إطْلاع "أصدقائهم" (الافتراضيين) على كل خطوة من خطوات حياتهم والحرص على استلام تعليقات منهم أو إشارات. هناك من يسافر ويبدأ في كل خطوة في سفره بإرسال الصور، أولا بأول، فلا تعرف إن كان بالحق مستمتعا أم شقيا.. يُجسّم نفسه عبء الحرص على إرسال كل خطوة من رحلته للآخرين كي "يشاركوه". وحتى وجبات الطعام، الجلسات التي يُفتَرض أنها حميمية وخاصة ودافئة مع عائلته أو أصدقائه، يحرص على أن ينشرها أمام الملأ. إنه لا يضيع الوقت دون أن يجمع عددا وافرا من اللايكات والتعليقات. لو لم يفعل ذلك لذهب اليوم في رأيه سدًى، وكأنه لم يقم بجولة في ذلك النهار، سيفتقده الآخرون. لن يعرفوا عنه كيف قضى ذلك اليوم. كثيرون كذلك حريصون على أن ينشروا كل تفاصيل يومهم أو رواية وكتاب بدأوا في قراءته. هنا سنقف أمام عنوان الكتاب أولا، فتنهال التعليقات واللايكات المشجّعة. ثم سيمضي الوقت مع إيراد فقرات من هذا الكتاب، الذي لن ينتهي دون مشاركة عبر الأثير من حشد وجمهور من البشر، لا أحد يعرف الوضعية التي كانوا فيها لحظة المشاركة. وربما لم ير صاحب الصفحة أو التعليق وجوههم الحية من قبل.

ولكنْ ثمة أمور مهمّة لم نترك لها وقتا للتأمل، وهي أن وسائط التواصل هذه ليست عيونا تعويضية، لسبب بسيط وواضح، هو أن الجمهور البعيد هنا ليس سوى طرف ثالث. فصاحب العلاقة هو الطرف الأول، والوسيط أو الصفحة هي الطرف الثاني، بينما الجمهور البعيد هو الطرف الثالث. ولكي أوضّح هذه الفكرة دعوني أورد بعض الأمثلة. فمثلا، حين قرأت رواية "بقايا اليوم" لكارو إيشي جيرو، الفائز بجائزة نوبل، في صفحات وصفه الساحر للريف البريطاني، شعرت بقوة الكلمات. ولكنّي حين شاهدت الفيلم تحولت إلى طرف ثالث. فلم تستطيع كاميرا الفيلم أن تنقل إليّ الشعور الذي صوّره الكاتب مباشرة بكلماته. لقد صورتْ ذلك تصويرا خاطفا، بينما الكاتب خصّ كل نأمة أو مشهد بوقفة من الوصف والتأمل. كان في الحقيقة ينقل مشاعره كاملة بصدق شديد ويبثّ الكلمات تفاصيل من وجدانه جعلني أرى عبر الكلمات ما لم أستطع ملامسته عبر صورة الكاميرا. وهكذا بالضبط تفعل الصورة. فذلك الشخص الذي يصور وجبة طعامه ثم يرسلها عبر فيسبوك مثلا، هو من يتذوق وحده الوجبة، هو الوسيط الأول المباشر، بينما أنا البعيد

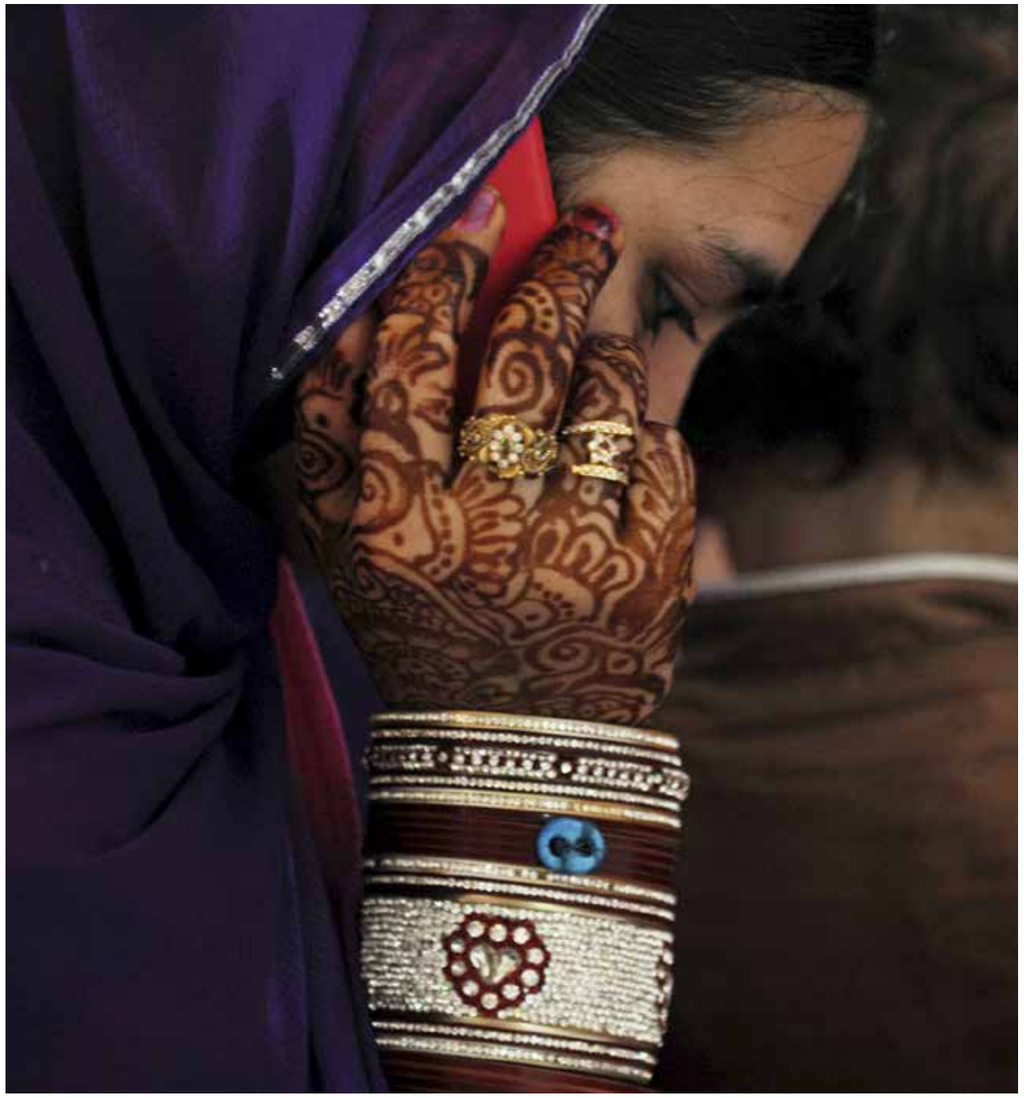

- الطرف الثالث - لن ينالني من نصيب من تلك الوجبة سوى صورتها / صورها الباردة. لا يوجد من يصف لي تفاصيل شعوره. رغم أن الأفلام تحاول، عبر الحوار وأداء الممثل، أن تنقل لنا مشاعر الشخصيات، ومن أجل ذلك يبذل فريق عمل كامل جهودا لإيصال المشاهد إلى هذه الحالة؛ كما حدث مع فيلم "المواطن كين"، الذي أنتج في الأربعينات.

إن الفيلم الناجح في الحقيقة يكتسب نجاحه من مدى قدرته على أن يضع جمهوره في قلب الحقيقة، بنبضها الحار، لذلك أُوجدت الجوائز. فأفضل ممثل هو الذي استطاع أن ينقل لنا بمهارة تصرفات المطرب فريدي ميكروري، كما فعل الممثل المصري رامي مالك، أو انفعالات عيدي أمين، كما فعل الممثل الأميركي فوريست ويتاكر. ولكن الصورة الخاصة في "فيسبوك" لا يمكنها أن تفعل ذلك. في هذه الحالة نعود إلى "انتهاك الخصوصية"، التي يسعى الفرد إلى اقترافها في حق نفسه.

والناجحُ من يستطيع أن ينتصر في "حرب الاستقلال" بأقلّ الخسائر الممكنة.

قاص وكاتب عُماني

ملف

صناعة الاعتراف

الغواية وحرب الرموز

شرف الدين ماجدولين

حين تحدث رجيس دوبريه في كتابه "دروس في الوسائطيات العامة" عن احتمالات الوساطة، بما هي تقنية وأداة، لم يكن يتحدث عن الصحافة والإعلام، في تجلياتهما المأثورة، فقط، بل كان يرمي إلى بيان سبل الانتشار؛ انتشار الذوات والصفات والهويات واللغات، وكيف تخضع لتكييف الأداة الوسائطية وقواعدها في إنتاج الصور السائحة.

لم يكن رجيس دوبريه يفكر لحظتها في الوسائط الاجتماعية، بقدر ما كان يستحضر آليات التواصل السمعي البصري الكلاسيكية، ما قبل البرامج المتصلة بشبكة الإنترنت، لكن مع ذلك يمكن أن تنطبق العديد من القواعد الخاصة باحتمالات الوساطة كما فكر فيها دوبريه على الرغبة المتفاقمة اليوم في تعميم الانتشار، لتنتقل من النخب إلى الشرائح الاجتماعية الواسعة. ومن الخبر المتصل بالشأن العام، إلى الأسرار الخاصة، ومن رجالات الدولة والشخصيات العمومية إلى الأفراد العاديين، ومن الفنون والآداب إلى الخطاب الاجتماعي العام المفتقد لمقومات الانتشار.

ويمكن أن ننطلق في البداية من قاعدة رئيسية ترى وسائط التواصل الاجتماعي اليوم بما هي مراوحة بين "دمقرطة" الانتشار، و"تعويمه" وإفراغه من أبعاده الرمزية، إذ لا يمكن أن نستبعد ما لتلك الوسائط من مزايا تتيح التعبير لمن لم تكن لهم فرص في الصحافة والتلفزيون لإيصال خطاباتهم، وتعميم أخبارهم على نطاق واسع غير خاضع لانتقاء، ومن ثم فقد تمكن اليوتوب والفيسبوك والتويتر والإنستغرام من تقويض مبدأ احتكار التواصل من قبل أقلية أو من قبل السلطة، لاسيما في بلدان الجنوب حيث اقترن الاحتكار مع فرض إرادة سياسية عبر خطابات السلطة والشرائح المناصرة لها.

ولا جرم إذن أن تمكن وسائط التواصل البديلة الأفراد من اقتراح أخبار ومعلومات وتفاصيل مختلفة، وأن تتشكل عبر صفحاتهم في تلك المواقع الافتراضية منابر خطابات المعارضة والإعلام النقيض، حيث تعرّف المتلقون عبر مختلف أرجاء المعمور على أصوات وتحليلات ووثائق وأشرطة وصور غالبا ما كانت تصادرها الرقابة، ويحجبها إعلام السلطة. إنه المبدأ الذي يضع التداول الحر للخطابات والصور بما هو "دمقرطة" لمجتمع الخبر، وتقويض للتحكم والتوجيه. بيد أن هذا المبدأ ذاته ما كان له أن يفلت من آفات الرقابة والاحتكار والاستفراد بإنتاج وترويج الصور في الإعلام التقليدي متمثلة في مصادرة القيمة؛ وإذا كانت في الأول عبر "التحكم"، ففي الثاني عبر "التعويم". ذلك أن من القواعد الأساسية التي ينهض عليها التواصل الاجتماعي قاعدة "التدفق"، والرهان على الصورة الخام بما هي معادل للحقيقة مع السعي للإفضاء بكل شيء، على نحو يفقد الأشياء معناها ومضامينها الإنسانية، وهو ما يكاد ينطبق على كل التفاصيل الخاصة والعامة المنقولة عبر وسائط التواصل من منظور فردي.

وغير بعيد عن مفهومي "الدمقرطة" و"التعويم" المتصلين بمبدأ الانتشار، تنطوي صناعة صفحات شخصية، أو قنوات خاصة، وملئها بمواد شديدة الخصوصية لإطلاع أكبر عدد من المتلقين عليها، على رغبة إثبات الانتساب إلى مجتمع التواصل والخبر وحيازة اعترافه، فإذا كانت الصحافة قائمة في شق منها على ترويج خصوصيات المشاهير فإن قنوات التواصل الاجتماعي قائمة على تداول خصوصيات العوام التي قد تحولهم إلى مشاهير، في نطاق افتراضي، قد يتحول في بعض الحالات إلى شهرة واقعية، إذ أن "الاعتراف" يقترن في الأساس بالوضع الذي يتخذه الشخص صاحب البروفايل ضمن الوسيط التواصلي، وما يبثّه من صور قبل الأخبار والمواقف والانطباعات المكتوبة، صور له في أمكنة وضمن سياقات استثنائية، ومع أشخاص نادرين، وفي أحداث فارقة، إنها الوثيقة التي تثبت انتسابه لمجال كان محجوبا ومحتكرا من أقلية، ويمكن أن نستحضر في هذا الصدد عددا من الأمثلة المتصلة بإدراج الصورة الخاصة جلبا للاعتراف، من مثل صور أداء الشعائر الدينية وصور النضال السياسي وصور السفر والصور المشتركة مع مشاهير الفن والأدب والسياسة.

قبل عقد من الزمان وفي بداية استعمال الفيسبوك درج عدد من مستعمليه على

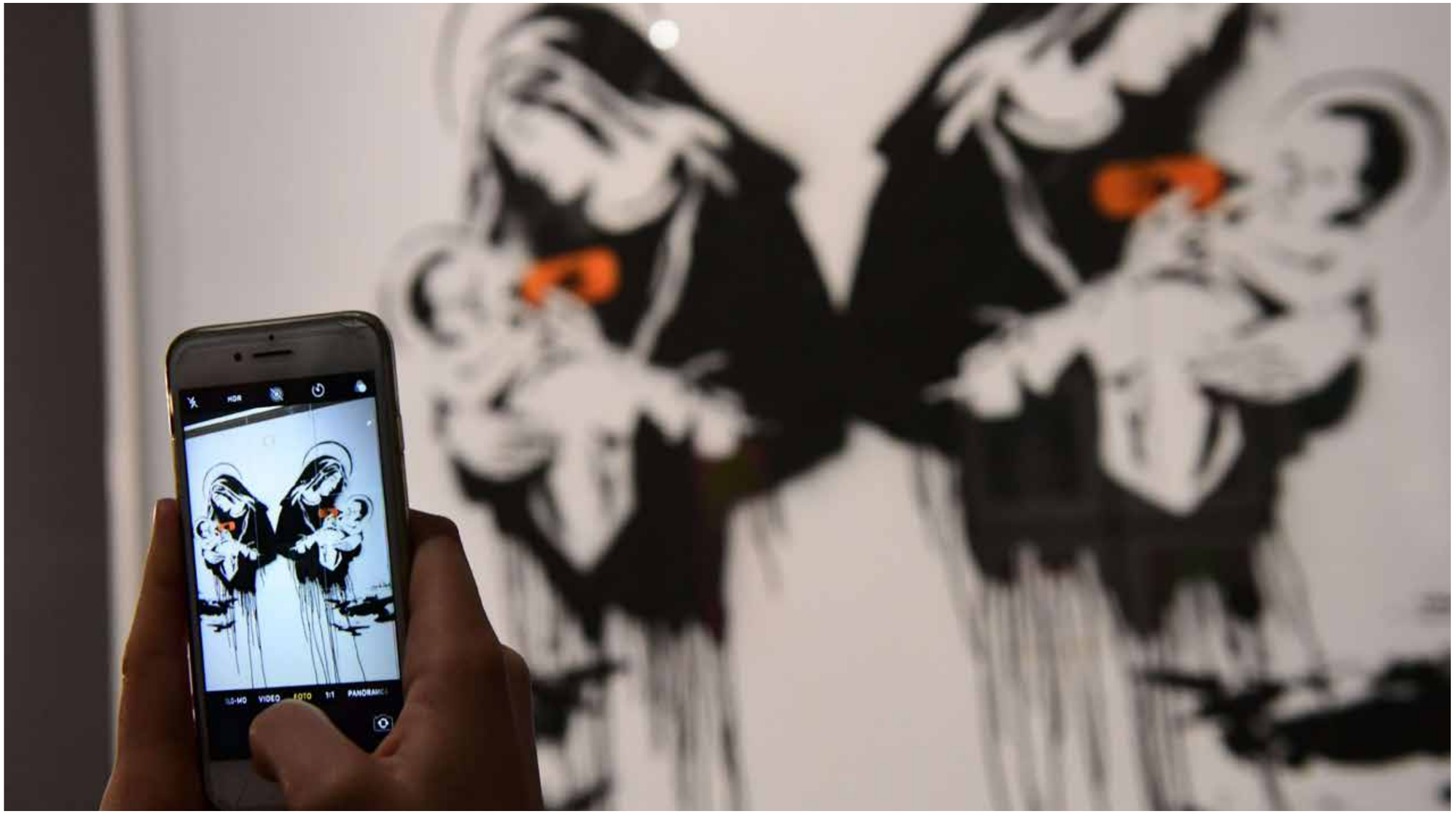

تصوير لحظة أداء مناسك الحج أو العمرة، صور أمام الكعبة وأخرى في مدخل الحرم، في زي الإحرام..، يبدو صاحب الصورة غير معني بالمكان تحديدا، إلا بقدر ضمانه لتصدير صور تجلب إقرارا جماعيا بوجوده هناك، ومن ثم اعترافا له بالفوز بلحظة دينية غير متاحة للجميع، وانتمائه لقلة تستحق التقدير؛ هكذا تتجلى الشعيرة الدينية بما هي مادة إعلامية شخصية قد تهم العائلة والأصدقاء وحتى المدينة، لكنها سرعان ما تتحول إلى مادة خبرية مطروحة لإثبات الوجود، بما أنها غير متاحة إلا لمحظوظين، في زمن بات الحج فيه يقتضي حسابات معقدة.

وفي مقابل صور الحج قد نجد صورا أخرى لمناضلين غير معروفين مدّعين في الغالب، التقطت لهم في ساحات الانتفاضات العربية، أذكر هنا موجة التصوير التي اجتاحت الوسائط في المغرب مع رايات وشعارات حركة عشرين فبراير، في مسيرات لا نعرف عددها، ولأناس لا نعرف هوياتهم، إنه إعلان عن انتماء وسعي لجلب اعتراف، بما أن اللحظة استثنائية، وغير متاحة دوما. والسمة ذاتها تنطبق على صور زيارة مدن ومآثر ومتاحف، حيث تضحى صور الشخص في متحف اللوفر، مثلا، أهم من اكتشاف المتحف نفسه، أستعيد هنا صورة شهيرة لطلبة مدرسة هولاندية في زيارة جماعية لمتحف "رامبرانت" حيث التقطت لهم صورة وهم منهمكون في النظر إلى هواتفهم منصرفين عن اللوحات العبقرية للفنان الشهير. لقد لاح مرة أخرى أن الأهم هو ارتسام الآخرين عن وجودهم هناك، لا الوجود في حد ذاته، الأمر الذي يمكن أن ينطبق على ما لا يحصى من الصور لأصحاب البروفايلات مع نجوم السياسة والفن والأدب، حيث القيمة ليست في المحاورة وإنما في "المجاورة" أي في "الوجود مع"، والإيهام بالانتساب إلى محيط أولئك النجوم، من هنا تبدو استعمالات كلمة "صديق" فاقدة لمعناها الأصلي دالة على الوافد المقبول في حساب تلقي أخبار وصور وادعاءات الصفحة.

بناء على كل ذلك يبدو التعبير الدقيق عن المتدخل في وسائط التواصل الاجتماعي هو "البروفايل" الذي يتكون من "اسم" و"صورة"، ولا يتصل بشخص بالضرورة، أي أن الهوية الافتراضية حاسمة في قياس الوظائف والسلوكات بصرف النظر عن انطباقها على فرد حقيقي أو زائف، وتبقى التجليات المتصلة بالصورة والاسم هي الأساس في قياس الرغبة في الاعتراف. وفي المحصلة من ذلك تتجلى الغواية بوصفها قصدا، ومظهرا جوهريا في لعبة التواصل، وجذب أكبر عدد من المتابعين والمعجبين والمعلقين والمقتسمين لمضامين الخطابات والصور ضمن هذا المجال التواصلي البديل، فلا تبقى للخصوصية مكانتها المرجعية ولا حرمتها وإنما تتحول إلى عتبة من عتبات جلب المتابعة والاستجابة لرغبة الوجود الاجتماعي الانتشار في عوالمه الافتراضية.

صور الشخص وعائلته وأصدقاؤه ومحيطه البيتي وتفاصيل عمله، وتنقلاته، المنتظمة في تدوينات وصور تنزع رداء الشخصي وتتكيف مع موجة الفضفضة المصنوعة والزائفة لإثبات الوجود وانتزاع الاعتراف، من هنا يتجلى في كثير من الأحيان اقتسام الخصوصية بما هو قاعدة في حرب رمزية، تجاه خصوصيات الآخرين المزاحمة، فأن ننشر صورة فليس فقط للتعريف بلحظة، والتباهي بوضع، وإنما لتوجيه رسالة لمنافسين وغرماء، ولطمس انتشار صور أخرى مقابلة، ولهذا تكثر في وسائط التواصل الاجتماعي تلك التدوينات الموجهة لمجهولين من كتاب وفنانين وسياسيين وأناس عاديين تنتقد صورا وكتابات وإعلانات دون نسبتها لأصحابها، وإنما بتضمين إشارات عامة لسلوك يبدو أرعن، وبديهي أن يلتقط المعنيون الإشارة في مجتمع مبني في جزء منه على صراع الإشارات وحرب الرموز.

كاتب وناقد مغربي

ملف

"مَشْيَخة" الميديا الجديدة

وخطاب الكراهية

بومدين بوزيد

تُشكّل الهيمنة التقليدية سُلطَة تنظيمية وأخلاقية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية وظلّت هذه المؤسّسات قائمة إلى اليوم رغم الصّدمة الحَداثيّة مع حمْلة نابليون على مصر واستعمار مجتمعاتنا وظُهور الدّولة الوَطنية المستقلّة التي تغذّت من "الأشكال التقليدية في ممارسة الهيمنة" لكن الانفجار العربي مع 2011 الذي صاحبه ظهور وانتشار الميديا / سوش أحدث خللاً كبيراً في العلاقات التقليدية بدءاً من هتك الحياة الشخصية للأفراد والجماعات، وأكثر عنصر محافظة وهي "المرأة" تعرّض لأن يكون مكشوفاً وممارست المرأة حرية في غُرف الدَّردشة الإلكترونية ولو بأسماء وصُور مُستعارة، إنه "السُّفور الإلكتروني" الذي نعتبره مرحلة ثانية بعد السُّفور الذي دافع عنه قاسم أمين والحركات النَّسوية في مصر ولبنان وتونس مع ظهور الحركات الليبرالية والعلمانية في الوطن العربي، كما أن "الجنس" صار متحررا من عقاله التقليدي ولم يعد يخضع للتنظيم الأسري المعهود، واستطاعت المواقع الإلكترونية أن تَنتهك الحُجب والسّتائر في أقصى الأماكن محافظة وتقليداً، هكذا تمّ اختراق السّلطة التقليدية التي يمثلها شيخ القبيلة أو شيخ الدّين، والأبوّة المهابَة، وتعتبر هذه الصدمة الحداثية الثّانية أكثر تأثيراً على البنية الاجتماعية العربية.

حسب كاستلز (M Castells) في كتابه الشهير (المجتمع الشَّبكي)، فإنّ "الشّبكة هي الرّوح الجديدة لهذا العصر"، تماشياً مع تعبير عالم الاجتماع ماكس فيبر الذي تحدّث عن روح الرأسمالية في نشوئها التاريخي المُرتبط بالبروتستانتية التي كانت تأويلاً جديداً للدّين مكّن من ظهور أفكار العقد الاجتماعي والحرية والديمقراطية.

ويقول أيضاً "في عالم تدفّقات الثّروة والسّلطة والصُّور العالمية يُصبح البحث عن الهُويّة، فردية كانت أم جماعية، مُسندة أم مكتسبة، المصدر الأساسي للمعنى الاجتماعي"، تُصبح الهُويّة المصْدر الأساس، وأحياناً الوحيد للمعنى في فترة تاريخية تتسِم بتدمير شامل للمُنظَّمات، وبنَزع شامل لشرعيّة المؤسّسات، واندثار أهم الحركات الاجتماعية، والتعبيرات الثقافية سريعة الزوال، ما عاد النّاس يؤسّسون المعنى استناداً إلى ما يفعلونه، بل اعتماداً على ما هم عليه، أو ما يظنُّون أنّهم عليه، مجتمعاتنا تتّخذ على نحو متزايد بنية قائمة على تقابل ثنائي بيم الشّبكة والذّات.

نَشهد اليوم تطوراً رقمياً مَهيلاً سيمَكن وسائل "الاتصال الجديدة الذاتية" من زعزعة أساليب الهيمنة التقليدية للدّولة القومية واختطاف مُراهقينا وشبابنا منّا، أي من "قِيمنا الجَماعية" التي تحفظ الانسجام الاجتماعي وتحُول دون تفتت العلاقات العائلية والرّوحية، صدمات التحديث والتطور لم تواجهها أمتنا بالاجتهاد والبحث عن "استراتيجية التبييء" - أي إنبَاتِه في بِيئتنا وتأصيله -، وتكييفه مع واقعنا وخصوصيتنا الحضارية، وحَاصَرتنا الثنائيات وكَبّلت تفكيرنا ونمّطته بين الأصالة والمعاصرة، الماضي والحاضر، التقليد والحداثة، نحن والغرب.. إلخ.

وكنّا أمام تطور في استغلال الصُّورة والتّجنيد للعنف والإرهاب مع جماعة تُقاتل بالفِكرة خارج "الأرض" ومعاني الوطن التقليدية من تحرير ومُقاومة.

إنّ "المجتمع الشّبكي" يعرف تدفقّات وثقافة افتراضية تتجاوز المفهومين التقليديين للمكان والزمان، وهما فضاء الهَيمنة وعَوامِل الصّراع بالنّسبة إلى القُوى المرتبطة بالشّكل المعهود للسّلطة، إذن سَوف نكون أمام نِزاع مرير مع مُقاومين من نوع خاص لمشاريع الدّولة يَنتهجون أسلوب الدّعاية والتحكّم في الصّورة ونشر الخبر بالكيفية التي يريدون ويُنشئون عشرات المدوّنات التي تمسّ بالمعتقدات والمقدّسات والتّاريخ، ويتخذ بعضهم من "السّاحة الزرقاء" ميداناً للتجمع والتظاهر.

الميديا الجديدة وسَلْعَنة العَواطِف

قد تكون العَوالم الافتراضية تعبيراً مكثّفاً دون رَقابة ذاتية ليس فقط للواقع ولكن حتى للخَوالج النّفسية والعواطِف، ويُستثمر فيها الصّورة والأشكال الفنية وقد تعتمد بعض المواقع الشّبكية إلى اللّعب بالعَواطف واستثمارها وتسليعها مثل "العَاطِفة الدّينية" التي استغلّتها بعض المواقع المُنتمية إلى الجماعات القتالية في السّنوات السابقة ومازالت، كما أن التركيب الفنّي لإثارة العواطف الدّينية بالآخرة وعذاب القبر يشكّل حالة الاكتئاب والهروب من الواقع أو التطرف، ويعتقد بعضهم أنّه يقوم "بالدعوة الدّينية"، وقد تكون لها تداعيات نفسية واجتماعية، وهنا يكون التمرد على "المشيخة الدّينية التقليدية" التي تمثلها المؤسسات الدينية أو إمام الحيّ وشيخ الشاشة التقليدية.

ظاهرة "تَسليع العَاطِفة" ترتبط اليوم أساساً بجماعات تخترق حياتنا العائلية والحميميّة ويتمّ تحويلها لصالح "هويّات دينية وأيديولوجية" أو "الهُويّات القَاتِلة" ومنها "الكَراهيّة" التي هي "انتقام الأديان" بتعبير جيل كيبل، وبالتالي مُجابهة الكراهيّة والعُنصرية هو تحدّ أخلاقي وقَيمي أكثر منه قانونيا، فرغم القوانين التي ظَهرت في الغرب منذ السّتينات من القرن الماضي ما زال العالم المتقدّم يعاني من مظاهر كراهية جديدة ومنها "كراهية الأجانب" مع صعود اليمين الجديد في الغرب الأوروبي والأميركي، والأزمات التي تسبّبَ فيها العنف الدّيني، وأيضا يمكن ذكر "الإسلاموفوبيا" التي هي تعبير عن خوف وكراهية وعنصرية، طبعا معالجة التشريع الغربي لهذه القضايا ليس فقط على مستوى قانوني ولكن أيضا بتحقيق العدالة والإنصاف وترسيخ "المواطنة" و"المؤسّسات الدّستورية والقانونية" التي لها استقلاليتها.

خطاب الكراهيّة والعُنصرية ظهر في بلداننا العربية كتعبير سياسي وكل مرحلة أخذت شَكلها، ولا ننسى هنا أنّ ذاكرتنا فيها ألم العنصرية منذ الاستعمار الذي اعتبرنا أهالي ومن الدّرجة الثانية، ونفسية مثل هذه قد تُعالج بطريقة غير سليمة حين تجد نفسها من جديد أمام سُلطة تستمرّ في إذلال المواطن وتقسّم المغَانِم والمناصب على أساس جهوي، وحين احتكرت السّلطة "الشّرعية التّاريخية" كان على المعارضة أن تلجأ إلى شرعيّات تقوم أيضا على الهُويّة الدّينية أو الإثنية ورغم منع بعض الدساتير العربية، مثل دستور الجزائر (1996)، بقيت هذه الثّقافة النَّتِنة تتغذّى منها بعض الأحزاب والجمعيات.

إن "الكَراهيّة" عاطِفة مريضة تشبه "الدَّم المتخثِّر" تكون في حالة كُمون ولكنها تنشط في الأزمات أو في غياب الإنصاف والعدالة أو حين نخفق في الإصلاحات أو تعبث بعواطِفنا جهات تُوجِّه المجتمع نحو العنف واللااستقرار لتتمكّن عُصبٌ من السُّلطة أو الغنيمة، ويمكن القول إن عاملين أساسيين لعبا دوراً في ظُهور ما هو كامن، التّغييرات السّياسية والاجتماعية بعد ما يسمّى "الرّبيع العربي" وأيضا الانفجار الإلكتروني وسُهولة الولوج إلى العالم الافتراضي.

ويمكن القول إنّ من عَوامل صُعود "الكَراهيّة العِرقية" منها ما يعود إلى مؤسّسات الدّولة

وقطاعات خاصّة ارتكبت جُرماً في تشجيع الميل العرقي في التّوظيف والتّرقية، كما حوّلت السّلطة ما هو مشترك من تقاليد اجتماعية في بلدنا إلى تزييفه ونسبته لفئة من المجتمع دون أخرى.

السّلطة أيضا مسؤولة برداءتها السّياسية وغياب البصيرة والرُّؤيَة الاستراتيجية في انتشار الكراهيّة والعنصرية.

ويمكن هنا أن نستشهد بسارتر الذي يقول "يكرَه النّاس بعضهم حين يريدون أن يكونوا كُتلة لا يمكن اختراقها"، أي حسب بعض المفكرين "الكُره انفعال حَزين، مُقاومة لحزن مُعيّن يُهدّدنا من الدّاخل"، وفي ثقافتنا الدّينية والاجتماعية الموروثة ما يَقهر "الكراهيّة" ويجعلها لحظة عابرة أمام قِيم الكَرم والضِّيافة والصّدق، وقد كتب الإمام الغزالي في "إحيائه" الذي أحرقته السّلطة المرابطية بتحريض من بعض الفقهاء عن "رُبع المُهلكات" التي هي "عَواطف التّدمير" ومنها الكُره والضَّغينة والحَسد وكلّها تشترك في إلحاق "الأذَى بالغير".. والأذى الأخطر اليوم هو "تمزيق النّسيج الاجتماعي".

رمزيات "مَشْيَخة" الميديا الجديدة

استبدال "الأخ الأكبر" و"الأبوّة" في الميديا الجديدة صاحبه أيضاً "المشيخة الإلكترونية" كما تحدثنا آنفاً ويمكن هنا الحديث عن التقنيات المستخدمة في هذه المشيخة البديلة. وبالعودة إلى صُور الحسابات الإلكترونية الخاصة بتجنيد الشباب مثلاً نحو العنف نجدها متميّزة بعنصرين أساسين "التلثّم" لِثام يُغطّي الوجه، و"حَمْل السّلاح" وتبيّن من الدُّخول إلى حسابات هؤلاء أنّ التّجنيد السّيكولوجي يعتمد كذلك التذكير بآبائهم وأصدقائهم وإخوانهم الذي قضي عليهم الأمن الجزائري كإرهابيين في مرحلة التسعينات من القرن الماضي، وأعطي هنا المثال الجزائري لاطّلاعي على ملفات هؤلاء.

أما عن المستوى التعليمي عند هؤلاء فأحسنهم لم يتجاوز التّعليم الثانوي، وبعضهم كان يتردّد على حلقات صغيرة في صِغره، تعلّم فيها بعض المبادئ البسيطة في الدّين، ويصطاد هؤلاء تلاميذ المدارس والثانويات، ويتمّ ربطهم بمواقع إلكترونية ومدونات لمشايخ افتراضيين يستخدمون أسماء وكُنى مستعارة، ويدبّجون مواقعهم بأقوال العلماء والفقهاء مبسترة ومنزوعة عن سِياقها العلمي والتاريخي.

وإذا عدنا إلى التحليل السّيميائي للصّورة في الإعلام الجديد فهي تتشكّل من عناصر أساسية تعمل على أسْر المتلقّي وتوجيهه عقلياً ونفسياً وقد تطور هذا التأثير من الإعلام التقليدي إلى الإعلام الجديد الذي وفّر السّرعة وتشابك اللون والصوت والحركة ودمج المتلقّي في الرسالة والتفاعل معه ومع مشاركين مجتمعين في "خلايا دردشية"، ومع اعتماد الكم الهائل من صُور ومشاهد وتعليقات وتبادلها، أصبح التأثير أقوى وأنفذ في عملية التجنيد ويمكن تفصيل عناصر استغلال الرّمز الديني والتاريخي والاجتماعي في النقاط التالية:

• استخدام رمزية الأسماء واستثمار كثافة رأسمال المعنى عند المتلقّي: وبالخصوص أسماء الصّحابة - رضوان الله عليهم - والأبطال التاريخيين مثل صلاح الدين الأيوبي وتسمية دول إسلامية تاريخية قامت في المنطقة مثل حَركة المُرابطين التي نشطت في الساحل الأفريقي واستخدمت هذا الاسم استغلالاً له لأنه يحيل على دولة المرابطين المعروفة في المغرب العربي والأندلس في القرن الخامس الهجري.

• عنصر اللّباس: بحيث يَحضر فيه اللّون المختار سواء من النّاحية الفنيّة أو البعد التاريخي "محاولة تقليد الرّسول عليه السلام في طريقة لبس العمامة، وفي فترة تاريخية نهاية الثمانينات وبداية التسعينات من القرن الماضي سيطَر اللباس الأفغاني بحكم تأثر العائدين من أفغانستان بهذا اللباس.

• شَحن العِبارة بالألفاظ القرآنية الكريمة: للتدليس على المتلقّي أن ذلك من القرآن الكريم، ولكنّه سَجع الكُهّان، وتعمد بعض الجماعات من المتطرفين والإرهابيين إلى استخدام جُمل مُتحايلة في كسب أصوات المنتخبين، مثلاً "صَوتُكم أمَانَةٌ تُسألون عنها يوم القيامة"، فنلاحظ هنا تقليد الجانب المجازي واللغوي في محاولة أن يكون مشابهاً لكلام الله عز وجلّ المتعال قال تعالي: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ" (البقرة: 23 / 24).

• انتقال ذاكرة "التّضحية الدّموية": من فضاء ثقافي له خصوصيته المذهبية والتّاريخية إلى فضاء آخر مختلف، ونقصد بالتضحية الدموية، المذهبية التي تغترف من رواية لحظة استشهاد وإعدام لشخصيات أصبغت حولها هالات أسطورية ومازالت لحظة الإعدام أو القتل تشحن النفوس، فالحركات الإسماعيلية الحشاشية الشيعية كتبها ومنشوراتها قامت على رواية هذه الأحداث والبابية البهائية نفس الشيء، بل المذهب الشيعي يتقوّى إعلامياً اليوم من خلال "سيرة مقتل أئمتهم"، ورغم الخصوصية السنية لبعض المجتمعات الإسلامية إلا أن "البكائية الشيعية" تسربت إليهم مثل المجتمع المصري الذي سيُصبح فيه سجن سيد قطب ولحظة إعدامه إلهاماً وتغذية نفسية لجماعات الهجرة والتكفير، وينال تفسير "في ظلال القرآن الكريم" قداسة عند هؤلاء لأنه كتب في السّجن، ويتحول كتاب "معالم في الطريق" إلى خطّة طريق لتكفير الخصوم والقتل، وتأوّل سورة الفاتحة تأويلاً يحضر فيه مفهومي البراء والولاء بالمعاني الخارجية، وداعش اليوم تعيد تنشيط هذه المخيّلة عبر صور مقتل أفرادها مع التركيز على ترويج الصّور التي تُظهرهم أقوياء في تنفيذ الأحكام والتنكيل بضحاياهم، وهي لحظة مزدوجة للشهادة التي يعتقدونها من جهة وللانتصار على غيرهم.

• التصوير الدّرامي المؤثّر للقتل أو الأسْر من طرف الجماعات القتالية: وأبرز صُورة هي ما قامت به داعش في ليبيا من لحظة تصوير

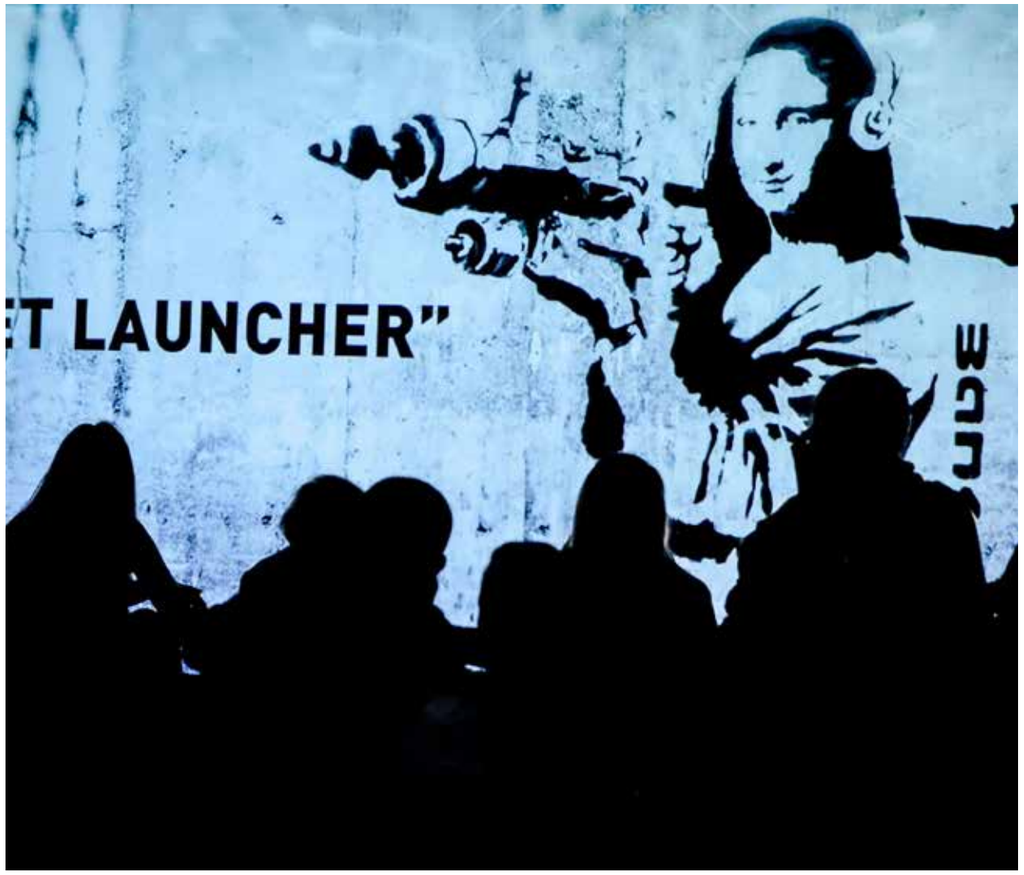

قبل الإعدام لعمال مسيحيين مصريين، هذا التصوير الدّرامي السينمائي يعتمد طبعا اللون والحركة والمكان مع إضافة صورة البحر كبديل عن صورة الجبل النمطية التي سادت في الصور السابقة المرسَلة، والبحر هنا سواحل للنزهة ورمز للسفر والانتقال لأوروبا، وهي تبعث بالتهديد للغرب المسيحي، وتم تداول هذه الصورة في كلّ المواقع وكان عدد زوار المشهد بالملايين.

من مثل هذه الصُّور المنتشرة في الوسائط الجديدة نلحظ عملية التجنيد المفسبكة بما يصاحب ذلك من إخراج فنّي متميز وما يصاحبه من قراءة القرآن الكريم والترغيب في الجنة والحور العين، وهنا نسجل مرحلة جديدة في الاستخدام الإعلامي الجديد للخطاب الديني المتطرف الذي كان منذ أكثر من ثلاثين سنة يلجأ إلى الترغيب والتخويف والحديث عن النار وعذاب الآخرة في التأثير واستقدام أعضاء جدد إلى المزواجة بين الترغيب والترهيب من خلال صُورة مُرعبة تمثل الانتصار عند هؤلاء وهي موجهة أساساً للأعداء - حسب تعبيرهم -، ومُفرحة لمناصريهم وأتباعهم والترغيب في الجنة بأداء نفس السلوك.

ما يجمع تلك العناصر المُتحدّث عنها هو توفير "المتعة" متعة المَشهد الفنّي والسينمائي والوعد بالجنة والحور العين، هذا طبعاً فضلاً عن الإغراءات المادية، فالإعلام الجديد هو عالم مُتعة وهمية وخيال وهمي بتحقيق "الدولة الإسلامية" كما تُصوّرها الجماعات القتالية لشباب في بعض البلدان العربية يَعيش الإخفاق المدرسي والاجتماعي والانسحاب من الحياة، ومن هنا لزم على المؤسّسات الدينية والتربوية والعلمية والأسرية كشْف وهم هذه "المتعة الوهمية" وتحرير الشباب من ثقافة "الانسحاب من الحياة"، والعمل على تطوير الإعلام الأمني بمفهومه الشامل، وتقديم خطاب ديني يراعي هذا التطور الحاصل في المجال الرقمي والتقني، ويستثمره هو كذلك لتحرير الشباب من "فَساد رقمي" يحدق بحياته ومجتمعه، ومن "أيديولوجية الموت" وتقديسها من أجل أوهام تنشرها ثقافة التكفير والكراهية.

باحث وكاتب جزائري

المراقبة وسيلة للتآخي الكوني

أبوبكر العيادي

إن ما يشهده العالم اليوم، في ظل الثورة الرقمية المذهلة، يفوق ما تخيّله جورج أورويل عام 1948، حين صوّر في روايته الاستباقية الديستوبية "1984" مجتمعا خاضعا للمراقبة والمعاقبة في الآن نفسه، أي أنه جمع بين عهدين، عهد الإقطاع والحكم المطلق، وعهد الأنظمة الحديثة. ومنذ صفحات الكتاب الأولى نقف على سلطة قاهرة متمثلة في حزب (هكذا يُطلَق عليه مجرّدًا من أيّ نعت أو إضافة) ينفّذ سياسة الأخ الأكبر، حاكم أوسيانيا الذي لا نعرف عنه إلا صوره المنتشرة في كل مكان، وأخبارا عمّا يتميز به من ثقة وقوة ورصانة، حتى أن البطل ونستون سميث يشك في وجوده.

هذه الرواية، التي كتبت عقب الحرب العالمية الثانية وما خلّفته من دمار، تصوّر عالما شموليا يُحظَر فيه الكلام والتفكير، وتُفرَض فيه لغة موحّدة "نيوسبيك" تتقلص مفرداتها إلى حدود دنيا يستحيل معها فرز الصواب من الخطأ، خصوصا أن الفرد مدعوّ إلى الإيمان بالشيء ونقضيه وتصديقهما معا في الوقت نفسه؛ كما تنعدم الحريات الفردية، حتى الحميم منها، ويُسحَق كل خارج عن الحزب سحقَ الحشرات، فلا حق للفرد في شيء عدا محبّة الحزب. وبطلها "الأخ الأكبر" هو استعارة للشمولية المطلقة، ورمز للرقابة الدائمة، حيث أقام في أوسيانيا - وهي كتلة من عالم مقسّم إلى ثلاث كتل تقف في مواجهة أوراسيا وإستاسيا - نظاما يقسّم الشعب إلى ثلاث طبقات اجتماعية: الحزب الداخلي، ويمثل النخبة الحاكمة التي لا تتعدى نسبتها 2 في المئة، والحزب الخارجي، ويشمل عمَلة الطبقة الوسطى ونسبتها 13 في المئة، والبروليتاريا أو الطبقة الشغّيلة، وهي السواد الأعظم وتعُدّ في المئة. هو نظام يُخضع الناس أجمعين للمراقبة في كل آن عبر كاميرات لا يخلو منها مكان، وبوليس تفكير يتعقب المنفلتين من العقال لإدخالهم عنوة إلى حظيرة الحزب بالتعذيب وغسل الأدمغة، فلا حياة في أوسِيانيا إلا لمن وعى خطاب الحزب وعمل به، ولا بقاء إلا للأخ الأكبر، ولا مجال في أوسِيانيا إلا لمحبة الحزب وقائده الأعلى. فالحزب، كما قال أورويل نفسه، يريد السلطة لذاتها، ولا يهمه إسعاد الآخرين. "هو لا يريد ثراء ولا ترفا ولا طول عمر ولا سعادة. لا يريد إلا السلطة. السلطة الخالصة."

وخلاصة ما توقعه أورويل منذ سنين: انتشار وسائل المراقبة الظاهر منها (كاميرات المراقبة التي لا تخلو منها مدينة من المدن في الدول المصنعة) والمقنّع (الإنترنت والفيسبوك)، التحكم في الجماهير من خلال الميديا، تزوير التاريخ، طغيان لغة عالمية وحيدة (الأنكلو أميركية والرسائل القصيرة عبر الهواتف الجوالة)، انحسار الحريات الفردية، فضلا عن ظهور أنظمة استبدادية مطلقة كما هي الحال اليوم في بلدان العالم الثالث، حيث القائد حاكم بأمره في المصائر والبصائر، وحيث يد السلطة تتوسّل بنشر الفقر وتعميم الجهل للمسك بخناق الشعوب.

ولكن أورويل لم يتوقّع أن تتقبل المجتمعات طوعا وسائل المراقبة "المقنّعة"، وتحرص عليها حرصها على المواد الضرورية التي تؤمّن البقاء، فقد استطاعت العولمة ابتكار مستحدثات تكنولوجية، يعتقد الفرد أنها جُعلت لخدمته، وتيسير حياته، وهو لا يعلم أنها أدوات للسيطرة على إرادته وتوجيه رغباته، لغايات ربحية بالأساس، إذ نجح رأس المال مرة أخرى في خلق نوع من الإحساس بالنقص لدى كل من لم يحز جهازا من الأجهزة المعروضة للاستهلاك. مثلما استطاعت الشركات العالمية العملاقة "غافا" (غوغل، أبل، فيسبوك، أمازون) أن تسيطر على الرقاب دون عنف أو إرغام، عن طريق المواقع الاجتماعية وشبكات التواصل عبر العالم، وأوجدت بذلك ما أسميناه في مقالة سابقة "الرق الإرادي الجديد" أو "العبودية الطوعية" بعبارة إتيان دو لا بويسي.

وكان فوكو قد لاحظ منذ أواسط السبعينات في كتاب "المراقبة والمعاقبة" أن النظام التأديبي لم يعد يكتفي بالمنظومة السجنية، بل تعدّاه إلى مجمل المجتمع ذي الاقتصاد الرأسمالي، الذي استجدت في أعطافه إدارة مخصوصة لتعدّد مظاهر الحيف وتشابكها، وأن التحول من الملكية الاستبدادية إلى الأنظمة الحديثة لم يغيّر سوى آليات الهيمنة، فبعد أن كانت تقوم على القوة المباشرة، أصبحت قائمة على تنظيم العلاقات، كما أنها لم تعد تقنع بكونها القيّمة على القانون، المدافعة عن مجال ترابيّ محدد بوصفها دولة ذات سيادة، بل تعدّته إلى تنظيم حياة السكان وإدارة شؤونهم في شتى مجالات النشاط البشري، كراعٍ يحرس قطيعه في الليل والنهار. ولكن العمر لم يطل بفوكو كي يكتشف هو أيضا أن المراقبة لم تعد محصورة في قطر واحد، بل

أضحت كونية، وأن العلاقات بين البشر باتت تمرّ عبر الوسائل الرقمية التي تديرها شركات بعينها، أكثر مما تمرّ على أرض الواقع، وأن شركات "غافا" تغذي نرجسية الأفراد وحبّ الظهور لديهم عبر مواقع وتطبيقات وبرامج مغرية بشكل صاروا معه يجودون لها طوعا بخصوصياتهم، حتى الحميمة منها، عبر فيسبوك وإنستغرام وواتساب ويوتيوب، وهم لا يدركون أنها مادة تستعملها تلك الشركات لتوجيه رغباتهم، وبيعها لمن يهمه الأمر. وإذا كانت غاية "الأخ الأكبر" إخضاع الأوسيانيين بالحديد والنار وإلغاء التفكير حتى يضمن بقاءه في السلطة، فإن غاية القائمين على وادي السيليكون إخضاع الكون بأسره بوسائل سلمية حتى يوجّهوا سكانه الوجهة التي يريدون.

أمام وضع تلك سماته، يقف إنسان هذا العصر حائرا أيّا من الاستراتيجيات يتّبع. هل يقاطع هذه المستحدثات فيأمن شرورها، أم يغنم منها ما يلبّي حاجته غير عابئ بالجرائر؟ يجد مستخدم هذه الوسائل نفسه أمام أربع

حالات: أولا، أن يكون عارفا بأنه تحت أنظار غوغل وفيسبوك وأمازون، مقتنعا مثل مقاولي الويب بأن عالماً يتواصل فيه الناس فيما بينهم أفضلُ من عالم يجهلون فيه بعضهم بعضا، ولا يهمه أن يعرف أنّ ثمة من يتلصص عليه أو يوجّهه نحو منتوجات تناسب ذوقه، بل يكتفي بالتعبير عن افتتانه بتلك الهندسات الرقمية الضخمة التي تصل ملايين البشر بعضهم ببعض، دون أن يعتريها عطب أو خطأ، وتلك اللوغاريتمات السرية بالغة القوة التي تدار من أميركا. وبذلك يكون متأثرا بوعي أو غير وعي بالفيلسوف الألماني غوتفريد ليبنتز (1646 – 1716) الذي سبق أن نظّر لما يشبه إنترنت اليوم، فقد تخيّل هو أيضا شبكة يتكوّن الواقع فيها من أفراد، أو ذرّات أصلية أسماها مونادة (أي جوهر فردي) مستقلة عن بعضها بعضا، وتشكّل كل واحدة منها عالما بذاته، ولكنها تظل في علاقة دائمة بعضها ببعض. وهو ما يحصل اليوم مع مستخدمي السوشيال ميديا.

ما يعني أنّ كل واحد منا يعكس طريقة لرؤية العالم، وتلك الرؤى الفردية مجتمعة تلتقي لتخلق شبكة مشحونة بالمعلومات، يختزنها منظمو المجموعة. والهدف من هذا التواصل بين كائنات مغلقة، كما يؤكد مارك زوكربيرغ، مؤسس فيسبوك، هو إرساء تفاهم أفضل.

بيد أن عملية التآخي الكوني تلك ثمنُها المراقبة، والاستحواذ على معطياتنا الشخصية، وتهيئتها كما تُهيَّأ الأقراص المضغوطة، ولا بدّ لهذه الهندسة المعقدة من منسّق كبير، هو الله في تصور ليبنتز، الله الذي يتخير أفضل التركيبات بين مختلف الموانئة ليخلق أفضل العوالم المكنة. وهو هنا صاحب فيسبوك الذي يحاول قدر جهده ترتيب هذا الكون الافتراضي وحمايته من الإرهابيين ومروّجي خطب الحقد والعنصرية ومعاداة الآخر.

والمشكل هو: أيّ حرية تتبقى للفرد حين يتحول إلى جزء من هذه الكونية الافتراضية؟ واهم من يظن أنه حرّ في اختياره، لأن الشبكة، التي تعرف أذواقنا وقناعاتنا، تعرض علينا إمكانات تناسبنا، تماما كما يفعل الربّ حسب ليبنتز، حين يهدينا إلى ما نختار، لأنه عالم بنا وبجوارحنا.

ثانيا، أن يكون الفرد عارفا أنه تحت المراقبة، وأن الإعلانات الإشهارية التي يتلقّاها على مقاسه، وأن الأخبار التي تصله منتخبةٌ وفق إبحاره في الشبكة، وأنه لا يرى إلا ما يريده الإنترنت أن يرى. في هذه الحالة، يكون شديد الحذر، فيقرأ شروط الاستعمال، ويتخلّص بانتظام من ملفات تعريف الارتباط "cookies". ويجد في ذلك وضعًا يرضيه شرط أن يناسب اهتمامه ويتيح له هو أيضا إمكانية المساهمة في هذه المراقبة العامة. ما يحيل على موقف الفيلسوف الليبرالي البريطاني جيريمي بنثام (1748 – 1832) الذي أدرك في نهاية عصر الأنوار أنه لم يعد في الإمكان حكم الناس من طرف ملك مطلق، وقانون إلهي، وتراتبية صلبة، فدعا إلى ضرورة وضع تشريع غير مباشر، وسلطة تمارس نفوذها على من يرغبون إذا كان ذلك في صالحهم. فلا خوف عليهم منها إذا علموا أن كاميرات المراقبة والشرائح التي تقتفي التنقلات والتقاط المعطيات الرقمية تخص المنحرفين والمجرمين والإرهابيين وحدهم، فبذلك يجد الفرد في المراقبة حماية، وهي الحجة التي يقدمها أنصار "المدينة الذكية"، المراقَبة بالفيديو، والمرتبطة بالشبكة. والمعلوم أن بنثام كان اقترح على الفرنسيين وشم البشر جميعا لتسهيل إيقاف المنحرفين والوقاية من الجرائم، ووصف ذلك بثقافةٍ رعايةٍ يجد فيها كلُّ مسالم راحته. وتقوم على قاعدة مفادها "إن قبلتَ أن توضع موضع مراقبة، فعليك أيضا بمراقبة الآخرين". وهذا يعرف في اللغة الرقمية بالمطارِد "stalker"، أي أن المرء يقبل أن يعرف غيرُه المكان الذي سيقضي فيه إجازته، ويقبل بما يُنصَح به لقضاء إجازته القادمة، شرط أن يعرف هو أيضًا أين يقضي الآخرون عطلهم.

ثالثا، أن يكون المرء رافضا أن تتجسّس على حركاته وسكناته شركاتٌ تعمد على بيعها لمن يدفع، وهو يعلم أنه سوف ينغلق في بالونة إعلامية ويجازف بألا يعثر بعدها على الجديد، ما يدفعه إلى الأخذ بأسباب التشفير، فيصنع بنفسه حاسوبَه أو يتقاسم برامجه بشكل تعاوني، ويحذو حذو القرصان "hacker" الذي يفهم ما يستعمِل من آلات إلكترونية، فيقرّر العمل بحرية دون أن يسمح للمؤسسات الخاصة وحتى للدول بالمتاجرة بعمل مشترك. وفي هذا يكون قد سار على نهج المفكر دوني ديدرو (1713 – 1784)، الذي اعتمد المنطق نفسه رفقة دالمبير وجمْعٍ من المثقفين لوضع موسوعة ضخمة في أواسط القرن الثامن عشر، بعد أن أدرك أن المعرفة ووسائل ذلك العصر كانت بأيدي السلطة، التي تشكّل كِتابا للدولة لا للشعب، إذ كانت تستأثر بالعلم والمعرفة والآداب والمبتكرات والثروات والفنون وتحرم منها عامة الشعب كي يبقى في ظلمات الجهل. ومن ثَمّ حرص على أن يعيد للعلوم والفنون حريتها، وألا يقصر جهده على المواد الأدبية والفكرية بل يتعداها إلى تفسير طرق اشتغال الآلات، بواسطة الصور التوضيحية المرافقة، حتى يمكّن كافة فئات الشعب من الوصول إلى المعارف واستعمال المبتكرات. أي أن المرء يتحرر من الاحتكار ومن المراقبة حين يمارس سياسة الشفرة المفتوحة المصدر Open Source Code"، التي تسمح لكل واحد باستغلال برمجية وتطويرها، "حتى لا ينفرد طرف واحد بمعرفة كلّ ما يمكن معرفته، ورؤية كل ما يمكن رؤيته، وفهم كلّ ما يمكن فهمه."

أمّا الحالة الرابعة، فعندما ينفر المرء من كل هذه المستحدثات التي تدجّنه وتخنق حريته وتضعه تحت مراقبة دائمة، فيغلق حسابه في مواقع التواصل الاجتماعي، ويقطع صلته بالإنترنت، ويتخلى عن جواله، وبطاقته البنكية، وكل ما يربطه بعالم التكنولوجيا، ويهجر الحضارة ويختار العزلة في مكان ناء. ولكنه سيواجه صعوبات ليس أقلها إعادة التدرب على قراءة خارطة جغرافية توجّه مساره، وتهديه إلى الأماكن التي يريد أن يتزوّد منها بما يحتاج إليه من غذاء مادي وروحي، فضلا عن الحالات الطارئة التي لم يحسب لها حسابا، كالمرض مثلا. كل ذلك ممكن، إذا لم تكن له واجبات عائلية، وروابط صداقة، والتزامات مهنية. وسوف يكون مثل الفيلسوف الأميركي هنري ديفيد ثورو (1817 – 1862) الذي اعتزل العالم، وبنى كوخا عاش فيه وحيدا، وحقق اكتفاء ذاتيا، لأنه كان يرفض الخضوع لشروط المدنية وقيودها. على ضفاف بحيرة والدن بولاية ماساشوست، التحم بالطبيعة واستعاد حريته وبراءته، ولكن بقاءه فيها لم يدم أكثر من سنتين، عاد إثرهما إلى المدينة، ليؤلف كتاب "والدن أو الحياة في الغابة" يروي فيه تجربته، ويدعو إلى ثورة راديكالية ضدّ النظام القائم.

نستخلص من كل ذلك أن الأفراد مختلفون في التعاطي مع السوشيال ميديا، منهم من لا يرى إلا ما طفا من جبل الجليد، غايته أن يغنم من الوسائل المتاحة ما يشبع نرجسيته ويسّر تواصله مع أصدقائه وأقربائه، ويتيح له اكتشاف ما يجهل من أخبار ومواقع وأشرطة وأغانٍ وبضائع... ولا يرى حرجا في نشر خصوصياته، بل قد لا يعلم أصلا أنها منذورة للبيع. ومنهم من يعرف ما وراء تلك الوسائل، ولكنه لا يستطيع أن يستغني عنها، لأن في ذلك انقطاعا عن المحيط والعمل والعالم، وقصارى ما يمكن أن يفعله هو الامتناع عن نشر صوره الشخصية والعائلية وأخباره الخاصة والعامة، والاكتفاء بالجوال للمكالمة، وياهو لإرسال الوثائق أو تلقيها، ويوتيوب لسماع الأغاني ومشاهدة المسرحيات والأفلام، وغوغل الذي ناب عن كل القواميس والموسوعات في توفير المعلومات، أي أنه يظل مرتبطا رغما عنه بالشبكة. ومنهم من يرفض الوسائل الحديثة جملة وتفصيلا، ويفضّل العيش في عصر ما قبل الإنترنت، متمثلا قول إحدى شخصيات "كتاب المساكين" لمصطفى صادق الرافعي "إن أيَّ نعمة لم تَنلْها هي نقمةٌ لم تَنلْك". ولكنه سوف يكون عندئذ خارج التاريخ والجغرافيا معا، لا يستفيد بأيّ حال من الأحوال مما أنتجه العقل البشري، فضلا عن العزلة التي يمكن أن يتردى إليها. أي أن إنسان هذا العصر ليس أمامه إلا أن يكون خاضعا للإنترنت بأي شكل من الأشكال، ويخطئ من يتصور أن الاكتفاء بالجوّال وحده سينجيه من التلصص، لأن المكالمات نفسها تحوّل مباشرة إلى وكالة الأمن القومي "NSA" التابعة لوزارة الدفاع الأميركية، حيث يقوم عدد من الخبراء والتقنيين بفك شفرتها، وتخزينها لاستعمالها عند الحاجة، ولا تستثني الوكالة أحدا، حتى حلفاء الولايات المتحدة من كبار العالم. وسيتواصل استغلال معطيات البشر حيثما كانوا، سواء تبرّعوا أو امتنعوا، في غياب تشريعات تحميهم. والخطر أن تستعمل المعطيات المخزنة في توجيه ميول الناخبين عند الاقتراع، كما حصل في سباق الدورة الأولى لانتخاب مرشح الحزب الجمهوري في الرئاسية الأميركية الأخيرة، حيث استغل فيسبوك معطيات الملايين من الأشخاص كانت بحوزة كمبريدج أناليتكيا للتأثير على الناخبين.

صحيح أن الاتحاد الأوروبي صادق مؤخرا على قانون لحماية المعطيات يحدّ من اقتفاء مستعملي الشبكة والاستيلاء على معطياتهم دون علمهم، ولكن براديغم تبادل المعلومات الشخصية مقابل خدمات مجانية لم يُلْغَ، بل إن بعض المواقع الإلكترونية مثل وي وارد (WeWard) الفرنسية يقترح علنًا على مستخدمي الشبكة مقابلا ماليا عن تنازلهم طوعا عن معطياتهم، باعتبار أن الخدمة المجانية تجعل المستخدم هو المنتوج المروَّج. يقول إيف بنشيمول مؤسس الشركة "حاولنا الاحتذاء بالنماذج الاقتصادية العملاقة كغوغل وفيسبوك اللذين يتأتى دخلهما في معظمه من الإشهار الموجّه، فهما يبيعان أصحابَ الإعلانات ملفات شخصية مأخوذة من المعطيات التي يعرضها المستخدمون للمشاركة، عن وعي أو غير وعي. والاختلاف بيننا وبين تلك الشركات أن المستخدم منتوج لا محالة ولكننا نقدم له وعدا باقتسام المداخيل". هذه الفكرة أغرت الفرنسيين حتى أن 40 في المئة منهم عبّر عن استعداده لبيع معلومات معيّنة للمؤسسات، كموقعه الجغرافي أو سجلّ تصفّحه المواقع على الإنترنت. وقد قوبلت هذه المبادرات بانتقادات شديدة، رأت أن المعطيات الشخصية لا يمكن أن تتحول إلى سلعة، تماما كجسد الإنسان والحريات الأساسية وحق التصويت. ورغم ذلك تنامت عدة مؤسسات أخرى مثل "أوغوري" الفرنسية التي تعرض خدماتها على مستخدمي موقعها إما بمقابل مادي، أو بالتنازل عن المعطيات، و"باتوم" السويسرية التي تقترح بناء هوية رقمية لكل مستخدم، وفتح حساب خاص يستعمله حيثما كان، دون المرور عبر سلطة مركزية، ما يمكّنه من مراقبة معطياته مراقبة تامة.

ولكن ذلك كله لم يمنع فيسبوك وياهو وأمازون مثلا من مواصلة التجسّس على حسابات الأفراد، يكفي أن ينقر المستخدم صورة غلاف كتاب أو اسم تعاونية تأمين أو وكالة أسفار حتى تنهال عليه الإعلانات في المجالات المعنية، من شركات متنوّعة تعرض عليه بضاعتها. ومن يرفض مشاركة معطياته الخاصة يمتنع نظام الإدارة الثرموستاتي عن تحديث برمجياته، فينقطع الربط. ما يعني أن الخدمة لا تتوافر إلا إذا قبلنا الخضوع لمراقبة أحادية، خفية، ليس لها حدود.

لقد كان "الأخ الأكبر" يستعمل الأساليب القمعية في مراقبة شعبه للتمسك بالسلطة، ولا يهمه أن يسعد الشعب أو يشقى، أما شركات "غافا" فهي تراقب العالم كله بأساليب ناعمة كشدو عرائس البحر في الأوديسة، لها من السحر والجاذبية ما يفقد المرء وعيه بالواقع، وبالمخاطر التي قد تنجرّ عن الارتماء في برمجياتها وتطبيقاتها، وتزعم إسعاد الناس أجمعين. وإذا علمنا أن "الأخ الأكبر" شخصية متخيّلة، تمارس هيمنتها في بلاد متخيلة نقف من معاناة أهلها موقفنا من أبطال مسرحية تراجيدية، فإن "غافا" حقيقة، ولوغاريتماتها أداة لفرض الليبرالية الجديدة على سكان المعمورة، وخطرها ليس في استفرادها بتوجيه العالم والتحكم في خياراته فحسب، وإنما أيضا في جعل الاحتساب المعلوماتي بديلا عن المداولة الديمقراطية.

كاتب تونسي مقيم في باريس

التبرع بالخصوصية يعيد رسم مهام الأخ الأكبر

الفرد كتاب مفتوح يمكن التنبؤ بتصرفاته المستقبلية

مصطفى عبيد

خلع التقدم التكنولوجي المتسارع نوافذ المراقبة الموارية، وألغى دورها، وأحالها إلى التقاعد، وقطع الطريق على الأخ الأكبر الذي لم يعد في حاجة للتحري وتتبع الأسرار في ظل علنية التعري المجتمعي وموت الخصوصية لدى الفرد.

قبل خمسة وثلاثين عاما رصد الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو (1926. 1984) في كتابه "المراقبة والعقاب" تطور نظام معاقبة الإنسان من إيذاء الجسد وتعذيبه إلى عقاب حضاري يبدو أكثر لطفا ويتسم بتقييد حرية الإنسان ومراقبته من نافذة صغيرة وحبسه، لكن يبدو أن هذا النظام تقهقر تحت وطأة التبرع الذاتي بالخصوصية. فكل فرد يمتلك حسابا في "تويتر" أو "فيسبوك" أو "لينكد إن" أو غيرها من التطبيقات. صار كتابا مفتوحا، واضح السمات، سهل الإطلاع. والمثير في الأمر أن ذلك لم يعد أمام السلطة وحدها وإنما أمام الجميع، سلطة وأفراداً ومؤسسات وأجهزة وكيانات عملاقة وعالما يسّوق كل شيء.

في القاهرة، عاصمة النمائم والحكايات الخاصة، كان لدينا مثل شعبي شهير يقول "سرك في بير" للتدليل على خصوصية ما يبوح به شخص ما لأحد أصدقائه، فلا يتجاوز البوح كلاهما. أما الآن فصار من النادر أن تسمع هذا المثل، لأنه لم تعد هناك أسرار أو حكايات حصرية يمكن الاحتفاظ بها لوقت طويل. فتطبيقات وتحليلات صفحات التواصل الاجتماعي وما تحتويه من اعترافات وبوح تطوعي أسقطت الحجب، وأزالت الأقنعة، وقدمت تحليلا تفصيليا لكل شخص.

سقوط السرية

تمثل الملفات الشخصية للمستخدمين ثروة كبيرة لمحللي البيانات، فمن خلالها يمكن أن تعرف كل شيء تريد معرفته. وباتت أجهزة استخبارات عالمية تعتمد عليها بشكل كبير، وتخلت عن جزء كبير من المهام المباشرة للحصول على المعلومات، بما وفّر الوقت والجهد والدقة. وهي عملية معقدة تخلط بين العام والخاص، والمعروف والمجهول، ويمكن من خلال تحليل البيانات الحصول على نتائج مذهلة لتحسين الأداء.

قالت دعاء سليط، الخبيرة في شؤون مواقع التواصل الاجتماعي بمصر، لـ"الجديد"، إن تصفح حساب أيّ فرد يمكن أن يساعد كثيرا في التعرف على أمور كافية لعمل ملف كامل عنه، بدءا من ميوله الشخصية، مستوى ثقافته، أفكاره الخاصة، فلسفته في الحياة، معتقده الديني، ومرورا بهواياته واهتماماته وتوجهاته ومواقفه السياسية، حتى موقفه من المرأة ودرجة تقبله للآخر.

يمكن التعرف على محيط علاقاته بأصدقائه وأقاربه ومعارفه، والأماكن التي يرتادها، والألوان التي يحبها، والنادي المفضل له، والمطرب المحبوب، وكاتبه الأول، والأطعمة والمأكولات التي يفضلها، وهكذا لم تعد هناك خصوصية بالمعنى المألوف.

أشارت سليط، إلى أنه على الرغم من تباين مستوى الخصوصية المسموح به في التطبيقات المختلفة، إلا أن جميعها تصب في النهاية

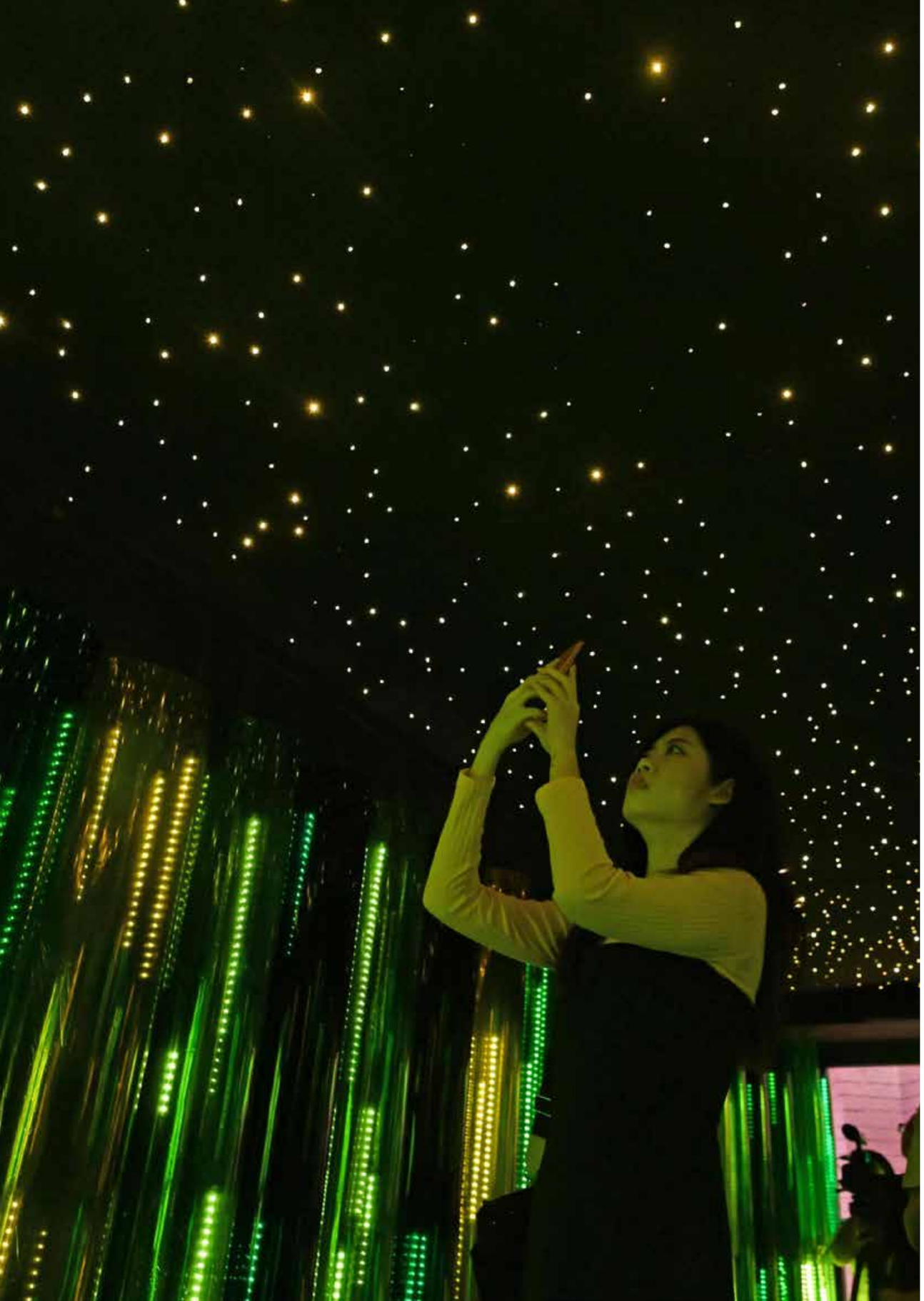

في صناعة رسومات بيانية تصلح كأدلة ذكية لقراءة مجتمع ما. وإذا كان "فيسبوك" يسمح بمستوى خصوصية أكبر عندما يغلق المستخدم حسابه على أيّ شخص خارج محيط أصدقائه المباشرين، فإن مشاركته في بعض الصفحات والمجموعات الخاصة باهتمامات بعينها تكشف جانبا غير مباشر في شخصيته. كذلك فإن ربط تطبيق ما بآخر يؤدي إلى إسقاط جانب من الخصوصية المفترضة.

وأضافت خبيرة مواقع التواصل الاجتماعي، أن خطورة الأمر تكمن في أن التطبيقات لا يقتصر كشفها على الزمن الحاضر والماضي فقط، إنما يمتد الكشف إلى المستقبل القريب منه والبعيد. فمن خلال تحليل حساب شخص ما على التطبيقات الاجتماعية يمكن التنبؤ بتصرفاته وسلوكياته المستقبلية في العمل والأسرة والحياة بشكل عام. ويصل الأمر إلى إمكانية السيطرة على تحركات عدوانية محتملة له، أو بصورة يمكن عبرها دفعه وتحريضه على أعمال عكسية أو توجيهه نحو تصرفات بعينها.

لم يعد غريبا على إدارات الموارد البشرية في الشركات الكبرى أن تعتمد على صفحات التواصل الاجتماعي للعاملين لديها أو المتقدمين للعمل للمفاضلة بينهم من خلال تحليل بيانات الملفات الشخصية في تلك الصفحات. وطبقا لنظرية عالم النفس الأميركي ميشال كوسينسكي، فإن عناصر الملف الشخصي على تويتر وعدد متابعيه، وعدد من يتابعهم المستخدم وعدد وطبيعة التغريدات كافية لتحديد السمات الشخصية للفرد ومعرفة إن كان محبا للتعاون أم لا، وقادرا على الاندماج في فريق عمل أم هو محب للعمل الفردي، لديه الروح الكافية للابتكار ويحب الحلول غير التقليدية أم يفضل التوجهات المحافظة والنمطية. وغالبا ما تتطابق النتائج الفعلية لذلك التحديد بنسبة 90 في المئة. وتبرهن فكرة التنبؤ على صحة العبارة الشهيرة للسياسي البريطاني وينستون تشرشل (1874. 1965) التي تقول "من يرغب في استبيان ما يضمره المستقبل فلا مندوحة له أن ينظر إلى الماضي البعيد."

المقاطعة غير واردة

يطرح التكشف والتعري المجتمعي سؤالا منطقيا، مفاده إن كان الحل هو مقاطعة مواقع التواصل الاجتماعي تماما؟ وبمعنى واضح هل من الأفضل تجاهل العروض المتكررة على الهواتف الذكية للاشتراك والربط بين تطبيق وآخر، أو حتى هل البديل هو عدم التورط في استخدام هواتف ذكية والاكتفاء بالهواتف البدائية التي تقتصر على الاتصالات الهاتفية فقط؟ في الغالب ستكون الإجابة بـ"لا"، على الرغم من أن هناك أشخاصا نادرين حولنا اختاروا ذلك.

يرفض الكثير من الخبراء فكرة المقاطعة كردّ فعل وقائي لاعتبارين. الأول ذلك مستحيل، لأن كل شخص تقريبا مرصود ومستباح وخاضع للعيون والرقابة بمجرد دخوله على شبكة الإنترنت، ومن المستحيل مقاطعة الشبكة العنكبوتية تماما. أما الاعتبار الثاني، فهو أن هناك فوائد ومكاسب عديدة لاستخدام صفحات التواصل الاجتماعي، ويصعب التفريط فيها، فمن خلالها يمكن لكثير من الأشخاص استعادة الأصدقاء القدامى، وهناك حركة تجارة واسعة عبرها.

أكد راجي عامر الكاتب الصحافي والخبير في إدارة صفحات التواصل الاجتماعي لـ"الجديد"، أن الخصوصية تنتهي بمجرد الاتصال بالإنترنت، كذلك فإن محرك البحث الشهير غوغل بجانب التطبيقات والمواقع المختلفة تعلم عنك أكثر مما تعلمه أنت عن نفسك، لأن هذه المواقع تعي جيدًا تفضيلاتك واهتماماتك وردود أفعالك بل أنواع البضائع التي تفضل شراءها أو الأماكن السياحية التي تحلم في المستقبل بزيارتها. وجميع البيانات الرقمية تخضع لمستويات مختلفة من التحليل للاستفادة منها، من هنا يصح القول إن البيانات سلعة ثمينة للغاية يتبرّع بها المستخدم لهذه المواقع.

في تصوّره فإن المقاطعة غير ممكنة، لكن نحن في حاجة إلى المزيد من الانضباط الداخلي عند استخدامنا للمواقع الاجتماعية، حيث يفضل أن نقلل من التعبير عن أنفسنا لأن هويتنا مثلما تتكون من ذات عامة تعيش العالم الاجتماعي الحقيقي فإنها تتكون أيضًا من ذات خاصة تحتاج المزيد من الخصوصية لحماية أفكارنا من التشويش والتلاعب بها.

رد فعل مقاوم

يرى البعض من الخبراء أن فكرة التبرع بالخصوصية جاءت كرد فعل مباشر لاتساع نطاق الرقابة الإلكترونية لكل شيء، ما عبّر عنه الفيلم الشهير "سنودين" والمنتج عام 2016، والذي تناول قصة حقيقية بطلها شاب أميركي يدعى إدوارد سنودن عمل كخبير تقني في وكالة المخابرات الأميركية، رجل المخابرات قبل أن يهرب في صيف 2013 إلى الصين ثم إلى روسيا، ومعه ملفات ضخمة تحتوي على بيانات ومعلومات تفصيلية بشأن كافة الأفراد نتاج علاقات التعاون بين شركات الإنترنت والمخابرات الأميركية.

وكشف وولفغانغ كريغر في كتابه "تاريخ المخابرات من الفراعنة حتى وكالة الأمن الأميركية"، ترجمة عباس عدنان علي، والصادر عن سلسلة عالم المعرفة بالكويت في أبريل 2018، أن القوانين الأميركية للدولة تجيز إكراه الشركات على تمكينها من التجسس على ما تقدم من خدمات وعلى ما تخزّن من معلومات ذات أهمية بالنسبة إلى الأمن القومي.

أوضح كريغر أن ذلك ليس قاصرا على الولايات المتحدة فحسب، فالقوانين السائدة في الدول المشهورة باحترامها للحريات المدنية أيضا تجيز للحكومة مطالبة الشركات الخاصة بتزويدها بمفتاح الاتصالات المشفّرة وبنسخ مسجّلة من الاتصالات الهاتفية. وإذا أخذنا في الاعتبار أن أغلبية وسائل التخزين السحابي للمعلومات أميركية بما في ذلك الإيميلات المرسلة على سبيل المثال من هامبورغ إلى برلين، حيث تمر عبر الأراضي الأميركية، فعندئذ يظهر لنا بوضوح أن لدى وكالة الأمن القومي الأميركية ميزة عظيمة الشأن، مقارنة بما لدى الدول الأخرى.

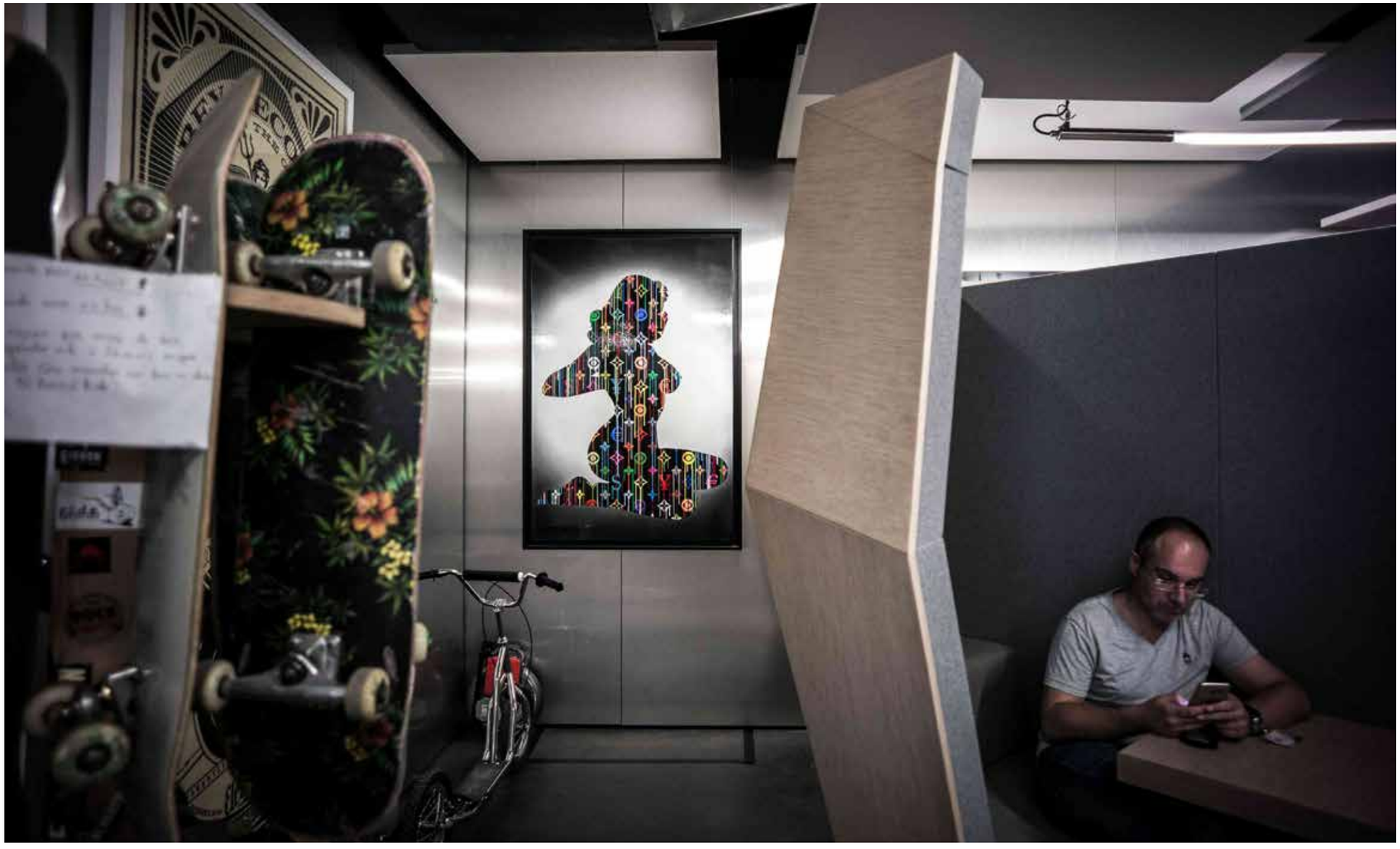

يكفي أن الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما، علق على قضية "سنودن" وقت إعلانها في الصحافة بأن بلاده ستواصل العمل في كل طريق لحماية أمنها القومي، بل وصل الأمر به أن قال في عدم اكتراث بانتهاك خصوصية الأفراد، وإنه لن يعتذر لأحد، لا لشيء إلا لأنهم كانوا أفضل من الآخرين.

هكذا، فإن بناء قناعة ويقين لدى كل فرد في المجتمعات القائمة في العالم بأنه تحت الرقابة دائما، وبأن كل رسالة له، أو حديث، أو مناقشة، أو حتى خاطرة ترد على عقله نتاج متابعة مواقع اخبارية معينة مرصودة ومسجلة، فإن ذلك قد يدفعه دفعا إلى التنازل عن كل خصوصية والتفريط في كل معلومة بلا مبالاة، لأن الأمر لم يعد يختلف، فالرّقابة قائمة مهما حاول الفرار منها. وولّد ذلك شعورا لدى البعض بأن قيامهم بالتعري طواعية أفضل لأنهم يمتلكون حق اختيار إتاحة معلوماته للجميع، ويساوون بين مَن يراقبهم وبين الجميع.

إن الأخ الكبير الذي تنبأ بسطوته الأديب البريطاني جورج أورويل في روايته "1984" التي صدرت نهاية الأربعينات من القرن الماضي، لم تعد له السطوة التي كانت موجودة في الماضي القريب، فالحصول على المعلومة لم يعد صعبا كما كان في الماضي للدرجة التي قد تدفع السلطة أو الجهة المراقبة إلى إيذاء الإنسان أو ممارسة ضغوط بدنية أو نفسية عليه للحصول على تلك المعلومة.

وبحسب قطاع كبير من المهتمين بتكنولوجيا المعلومات، فإن الأخ الكبير الآن تغيرت صورته وأهدافه، وتبدلت أساليبه، ويمكن القول إنه تجاوز نطاق الجهة المحلية التقليدية إلى أخ أكبر عولمي يتجاوز الحدود ويعبر القارات. ويتصوّر هؤلاء أن مهمة هذا الأخ الأكبر لم تعد الرقابة وحدها، كما كان الأمر في الماضي، لأن التبرع بالخصوصية يفي بكشف المعلومات الأساسية دون عناء، لذا فقد امتد دوره إلى توجيه الإنسان وتبديل أفكار المجتمعات والتأثير فيها وتحريكها في اتجاهات تخدم توجهاته.

هناك رأي آخر، يشير إلى أن دور الأخ الأكبر قد يزداد صعوبة مع التبرع بالخصوصية، لأن التدفق اللامحدود في المعلومات يؤدي في بعض الأحيان إلى صور منعكسة، ما يجعل تحليلها أمرا صعبا، وهو ما يتطابق مع مقولة الأديب المصري الراحل جمال الغيطاني الواردة في دفاتر التدوين والتي تقول "القرب بعد، الدنوّ يخفي، النأي يكشف، لا يرى المسافر إلى ما بعد عنه". يرى أصحاب هذا التوجه، أن المعلومات المكثفة قد تتعارض وتتباين بدرجة كبيرة تدفع إلى القراءة الخاطئة للمستخدمين، ما تنتج عنه قرارات خاطئة. وبشكل عام يعتقد البعض أن هناك تباينا في تعاطي الشعوب مع مواقع التواصل الاجتماعي، فهناك شعوب تحولها إلى أصل ثابت في حياتها، وهناك من يستخدمها كمنصة تعبير فقط.

أوضح الدكتور سعيد توفيق، أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، في تصريحات خاصة لـ"الجديد"، أن الإشكالية في المحيط العربي تكمن في أن مواقع وتطبيقات التواصل الاجتماعي صارت جزءا لا يتجزأ من الحياة، فالأغلب من مستخدمي تلك التطبيقات يبيحون كل حيواتهم للآخرين، فيتنازلون عن خصوصياتهم بدرجات تفوق ما تفعله الشعوب الأخرى، والاستخدام الأمثل هو ألا تتجاوز استخدامات السوشيال ميديا حدود التعبير عن الرأي في نطاق عقلاني وهادئ، أو الإشارة إلى نشاط علمي، بعيدا عن الحياة الشخصية إلى الجمهور. وأكد أن هناك مَن يقضون ساعات طويلة كل يوم يطرحون فيها أمورا تافهة وحكايات ساذجة بلا معنى وكأنهم يتنافسون في ذلك، والاستخدام السّيء لصفحات التواصل الاجتماعي ينتج عنه الكثير من العادات المرذولة التي من أهمها تنميط الاستجابات لنداءات أو مطالب بعينها، ما يُرسّخ فكرة سياسة القطيع. كذلك فإنه يكرس صفة النفاق من خلال محاولة البعض انتزاع الإعجاب من أصدقائه على أي شيء كتبه ولو كان كلاما سطحيا تافها، ما يفضي بدوره إلى تدني القيم الحقيقية وتسييل معايير التقييم، فلا تبدو ثمة فوارق بين الحسن والقبيح.

أشار الدكتور وليد رشاد، الباحث في المركز القومي للبحوث الاجتماعية بالقاهرة، لـ"الجديد"، أنّ تلاشي الخصوصية أدى إلى اتساع المشكلات، خاصة أن الفضاء السحابي يموج بكافة أطياف البشر، وأن جانبا كبيرا من الحسابات الموجودة على السوشيال ميديا مزيفة تستهدف مصالح دعائية شخصية، أو أيدولوجية أو سياسية.

وضرب المثال بعدد حسابات السوشيال ميديا في مصر، فالرقم المعلن هو 40 مليون حساب لكن في ظل الأمية الموجودة فمن المستحيل أن يكون عدد مستخدمي التواصل الاجتماعي تمثل 40 في المئة من السكان، ما يعني أن هناك نسبة قد تقترب من نصف هذا العدد تعبّر عن حسابات مزيفة. وثمة مشكلة أخرى تتمثل في تصور الفرد في العالم النامي بأنه لا توجد سلطة تحكمه عبر الفضاء المفتوح، ما يدفعه إلى استخدام ذلك الفضاء في الإساءة لآخرين أو لقيم أو دول أو عقائد، ومن هنا فإن هناك اهتماما عالميا محموما بوضع قوانين رادعة لإساءة الاستخدام.

كاتب صحافي مصري

ظاهرة الشعبوية لم تدرس جيّدا بعد إلا من حيث تصنيف اجتماعي للناخبين الشعبويين الذين تبنوا كل الكتب التي تثير الموضوع، أو مناقشة أعراضها (الاستياء من الديمقراطية، التفاوت المتزايد، تكوين عالم من الخفايا...) أو إعلان النفير تنديدا بتهديد من يمثلها. كتاب "قرن من الشعبوية" لبيير روزفالون يقترح فهمها كأيديولوجيا متناسقة تطرح رؤية جذابة عن الديمقراطية والمجتمع والاقتصاد. ولئن عبّرت عن غضب وحقد فإنها تستمد قوتها من كونها تقدن نفسها كحل لفوضى الحاضر. ولذلك فهي الأيديولوجيا الصاعدة في القرن الحادي والعشرين، في وقت تبدو فيه الكلمات الموروثة عن اليسار ترن وسط الفراغ. والكاتب يقدم عنها نظرية موثقة، ويرسم تاريخها داخل الحداثة الديمقراطية، مع نقد عميق مشفوع بالقرائن، ما يسمح بوضع حدّ للوصم العاجز ورسم الخطوط الكبرى لما يمكن أن يكون بديلا لهذه الشعبوية ■

السؤال الأهم:

من يحكمنا الآن؟

انكشاف الذات في الثقافة الرقمية

ممدوح فرّاج النّابي

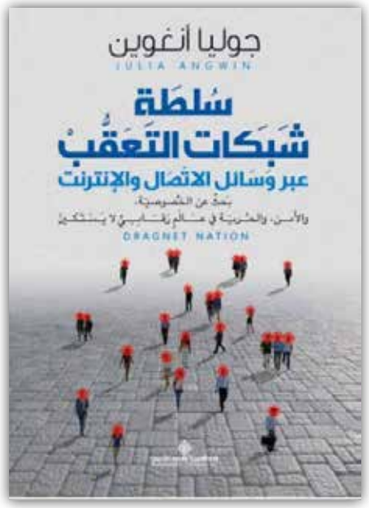

هل يستطع إنسان اليوم في ظلّ عصر السماوات المفتوحة، وانتشار الثقافة الرقميّة، أن يُحافظ (بقدر المستطاع) على خصوصيته؟ أم حان الوقت للكشف عن هذه الخصوصية بالكامل، وأيضًا طواعية وإن كانت ثمة إكراهات غير مُباشرة تلعب الدور الفاعل لأن تجعل ذواتنا مكشوفة أو متاحة في شبكات الإنترنت، دون إهمال شريحة كبيرة من الناس تتعمد إخفاء هوياتهم الشخصيّة على حساباتهم؟ وثمة سؤال محوري آخر مفاده: ما هي وضعية الذات في الثقافة الرقميّة؟ للإجابة عن هذه الأسئلة دارت كتابات عديدة تتبعت صورة الذات وتشكلّها في ضوء المتغيّر الجديد، على نحو ما فعلت الفيلسوفة والمحلّلة النفسانية الفرنسيّة إلزا غودرا في كتاب "أنا أوسيلفي إذا أنا موجود" (نقله إلى العربية الدكتور سعيد بنكراد)، وبالمثل ياسمين إبراهيم، وهي باحثة في الأعمال التجارية الدولية والاتصالات بجامعة كوين ماري في لندن، في كتابها "إنتاج الذات في العصر الرقمي".

هذا الهوس وراء الانسياق خلف هذه الثقافة الرقميّة، التي حلّت مع بدايات عام 2006 بظهور الفيسبوك، وقامت بثورة ربما تفوق الثورة الفلكيّة الكوبيرنيكيّة، وُسِمَتْ باسم "الثورة الرّابعة" على حدّ وصف أستاذ فلسفة وأخلاقيات المعلومات بجامعة أكسفورد "لوتشيانو فلوريدي" في كتاب عنونه بـ«الثورة الرابعة: كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني» (ترجمه لؤي عبدالمجيد السيد)؛ أقول إن الهوس جعل جاك أتالي تُحذِّر من مخاطر هذا الكشف والتعرية، في مقالة لها بعنوان "استبداد الشفافيّة" حيث قالت "إنّ عرض حياتنا في الشبكات الاجتماعيّة يُشير إلى الاختفاء التدريجي للدائرة الحميميّة".

انكشاف الذات

وعلى نفس المنوال يأتي كتاب أندرياس برنارد "انتهاء عصر الخصوصية: انكشاف الذات في الثقافة الرقميّة"، ترجمة الدكتورة سمر منير (دار صفافة للنشر 2020 القاهرة)؛ ساعيًا إلى تأصيل التاريخ المعرفي لهذه الثقافة الرقميّة منذ أن صار الفيسبوك عام 2006، شبكة تفتح أبوابها للجميع. خاصّة بعد

أن فارقت تقنيات تسجيل البيانات، دورها الذي كان مُقتصرًا - من قبل - على السلطات الشرطيّة والعلميّة، من أجل الاستفادة منها في عمليات التحرّي، صارت تُستخدم بمفهوم آخر بمعنى اللهو تارة أو بمفهوم تواصلي تارة ثانية، وكذلك يتم استلهامها اقتصاديًّا أو عاطفيًّا تارة ثالثة. ومن ثم تأتي أهمية هذا الكتاب الذي يتتبع هذه التحولات في مسيرة الثقافة الرقميّة، وكيفية اندماج تقنيات هذه الوسائط الرقميّة في تاريخ العلوم الإنسانيّة.

يتوزّع الكتاب على خمسة أبواب هي: الملف الشخصي.. مسيرة تطوّر ذلك الشكل، الأماكن: نظام "جي بي إس" وجماليات الشك، حالات التفتيش الجسدي: القياس الكمي للذات وقياس الجسم، الخوف من تسجيل البيانات والرغبة في تسجيلها: عمليات إعادة هيكلة صورة الإنسان، وأخيرًا قوة الاستبطان.

يقرُّ المؤلف مبدئيًا بأن المعيار الحقيقي للحكم على شخص، سلوكه أو حتى أداؤه الوظيفي، ارتبط ارتباطًا وثيقًا بوجود ملف شخصي له على الشبكة الدوليّة، أيًّا كان على "موقع فيسبوك، أو تويتر أو موقع لينكد إن". بل يُعدُّ الملف الشخصي، العنصر الذي يلعبُ دورًا محوريًّا في التواصل بين الأفراد داخل نطاق شبكات التواصل الاجتماعي، بل هو على حدّ وصف دانا بويد هو "بمثابة الشكل السّائد لعرض الهوية الشخصية على شبكات الإنترنت"؛ لما أنه "سيرة ذاتية قصيرة وواضحة تحدّد أهم ملامح شخصية أحد الأفراد" حسب ما ورد لتعريف كلمة "Profil" في قاموس "ويبستر" عام 1968. حتى أنه ساد الاحتكام إلى عدم وجود مثل هذه الملفات إلى اتّهام الشخص بأنه غير سويّ، على المقابل فمن يمتلكون مثل هذه الملفات يتمتعون بقدر كبير من الاستقلاليّة، ومَن يصنع لنفسه ملفًا شخصيًّا مثيرًا للاهتمام فسوف يُنشئ علاقات تواصل أكثر.

وهو ما تحقق فعليًّا بعد حوادث الاعتداء التي حدثت في الولايات المتحدة الأميركية عام 2012 بعد إطلاق النار العشوائي في إحدى دور السينما في مدينة دنفر فقد كشفت هذه الحادثة عن احتماليّة وضع حدود بصورة أفضل لمجموعة ممن يُحتمل ارتكابهم لجرائم، والحيلولة في وقت مبكر دون وقوع جريمة. فلقد أثبتت الدراسات إلى جانب الانطواء وعزلة هؤلاء الاجتماعيّة كان ثمّة معيار آخر تمثّل في إحجام القتلة بالإجماع عن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي. أي غياب الملف الشخصي عنهم وهو ما يشير بطرف خفي إلى حالة من الاندهاش.

وقد حدا هذا الوضع إلى اعتماد مديري شؤون العاملين في الشركات الكبرى، آلية جديدة لاختيار المتقدمين للعمل، بالتأكيد على الملفات الشخصيّة على شبكة الإنترنت، فغياب هذه الملفات عندهم صار يثير الشعور بالاندهاش. وهو ما أكدته دراسة أجراها

الطبيب النفسي الكندي ريتشارد بيلونجيه بأن ثمة علاقة وثيقة بين النشاط على شبكة الإنترنت والصحة النفسيّة لدى الشباب، وأن الشباب الذين لا يتواجدون على الإنترنت لساعات عديدة في اليوم، يثيرون الأطباء وعلماء النفس على الشعور بالانزعاج. وهو ما عكس توجُّها معينا في الثقافة الرقميّة، ارتبط بقياس مدى تواجد ملفات للأشخاص على هذه الشبكات، وإشارات إلى وجود أمر يُلفت الانتباه بشكل غريب من الناحية النفسيّة.

الاهتمام الحقيقي مع الملف الشخصي أو كلمة (Profil) يعود لتاريخ قديم مرتبط أولاً، بعلم النفس والطب النفسي، على الرغم من أنها كانت تستخدم من قبل في سياق معماري وجيولوجي، أو المنظر الجانبي للوجه كما ترسّخ في القرن الثامن عشر؛ حيث استخدمت كتوضيح لهوية وسلوك الأفراد المنحرفين لمرجعية تقوم بفحصهم وتقييمهم كما هي عند جريجوري روسوليمو، وكارل بارتش. ولكن مع عام 1930 فقد الملف النفسي الذي شاع عام 1910 عند روسوليمو علاقته بمفهومه الوارد في علم النفس التقني، المرتبط بقياس اختبارات الذكاء، حيث ظهر المفهوم في سياق معرفي جديد أكسبه في أواخر القرن العشرين شعبية واسعة. خاصة بعد التحوّل في طبيعة العلاقة بين الخبراء الجنائيين والمحللين النفسيين، للكشف عن ملابسات القضايا الجنائية نحو الأمام، فبدأ علم النفس الجنائي، يُركّز على الآثار الانفعاليّة وغير المادية، التي يخلّفها الجاني. وقد وصفت هذه الطريقة باسم "ملف ينشئه الطب النفسي" عام 1962 بمقال كتبه المحلّل النفسي لويس جولد عن مشعلي الحرائق ذائعي الصيت. وتطوّر إنشاء ملفات للجناة بدقة ممنهجة مع نهاية السبعينات.

تقرير مصير المعلومات

مع تأسيس الثقافة الرقميّة في الربع القرن الأخير، تمّ إعادة تعريف وتوسيع نطاق استخدام الملف الشخصي، من قياس قدرات الذكاء أو أنه أداة للسيطرة على المذنبين، إلى الإعلان عن هوية الشخص، بفعل النمو المتسارع للشبكة العنكبوتية، ومتصفحات الإنترنت ذات الطابع التجاري مثل متصفح "نتسكيب"؛ إلى اعتباره مجالاً لوصف الذات، وفي المقابل تعد بالنسبة إلى الشركة صاحبة موقع التواصل الاجتماعي، مستودعًا يضمُّ وفرة من البيانات والمعلومات، عن أشخاص حقيقيين ومستهلكين حقيقيين ويدرّ ربحًا. وظهر أيضًا الملف الشخصي الذي ينشئه الفرد بنفسه في مواقع البحث عن شريك على شبكة الإنترنت في النصف الثاني من التسعينات، ثم حدث التحوّل الأهم فيما حققه الملف الشخصي في ثقافة التقدم للوظائف، حتى أنه صار عدم إنشاء ملف شخصي يعد أكبر عامل من عوامل رفض طلبات التوظيف. ومرجع التركيز على الملف الشخصي يعود في المقام الأول إلى حدوث تقني في سوق العمل، في ما يتعلق بمجال وسائل الإعلام وترسيخ فكرة تقديم طلبات التوظيف عبر شبكات الإنترنت. الغريب أن هذه الملفات التي ينشئها الأشخاص، تتقارب مع الملفات الشخصية التي يتمُّ إعدادها في إطار علم النفس التقنيّ، وعلم الأدلة الجنائية. وقد صار الآن الملف الشخصي بعد عشرين عامًا من ظهور وسائل التواصل الاجتماعي، بمثابة صورة من صور التعبير عن الذات، التي لا يختلف عليها أحد، والمنتشرة في كل مكان. وفي نفس الوقت يعدُّ مؤشرًا قويًّا على التمتّع بصحّة جيّدة.

كما تطوّر شكل الملف حتى عُدَّ أداة فعّالة في وصف الآخرين والتحكُّم فيهم. وقد أعقب هذا سجال عن كيفيّة حماية الفرد لبياناته الشخصيّة، بل صدرت أحكام دستورية معقدة بشأن "حق الفرد في تقرير مصير معلوماته"، وهو ما استفاد منه مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي في تصوير شخصياتهم يومًا بعد يوم بصورة ملائمة عبر ملفاتهم الشخصيّة، وكأنهم زودوا الشركات وعملاءها من المعلنين بوفرة من المعلومات على نحو عابر.

وقد ساعدت هذه الملفات الشخصية علماء النفس، الذين أجروا تجارب وفق هذه البيانات المتاحة، من الكشف بنسبة احتمال تقارب الـ90 بالمئة، عمّا إذا كان الشخص المعني له ميول جنسيّة مغايرة أم مثلية، وبنسبة 85 بالمئة عن طريقة تفكير الشخص وتوجهه الانتخابي، في أن يُدلي بصوته إلى الحزب الجمهوري أم الديموقراطي! وهو ما تحقّق فعليًّا في عام 2016، حيث استطاعت إدارة الملفات الشخصية إدارة معركة الانتخابات لصالح الرئيس الأميركي دونالد ترامب، فقد أشارت شركة كامبريدج أناليتكيا، وهي إدارة بريطانية معنية بأمور التواصل للفت الأنظار، فادّعت أنها استطاعت إدارة معركة انتخابات محسومة بدقة للرئيس ترامب، وأثّرت بهذا في النتيجة غير المتوقعة، وذلك استنادًا إلى تحليلات "كوسنسكي" للملفات الشخصية وعن طريق رسائل من موقع فيسبوك، تم فصلها بصورة فردية.

هنا يمكن القول إن الملف الشخصي قد رسّخ في الثقافة الرقميّة شكلاً من أشكال تمثيل الذات، ويمكن اعتباره معارضًا للأشكال المبدئيّة التي تمّ إعدادها لتقديم صور الذّات في مطلع ظهور الإنترنت، وخطابه المُلحّ للذات وإمكانيات تطويرها في الحيز الافتراضي. وهناك مَن رأى أنّ هوية الأشخاص على الإنترنت ليست مركزية وإنما متعددة بصورة لا نهائية، وفريق ثالث نادي بضرورة وجود هوية مستعارة على نحو ما.

سلطة الهاتف

من جملة التطوّرات التي حدثت أن الهاتف المحمول، لم يعد وسيلة الاتصال أو إرسال رسالة نصيّة، أو وسيلة حتى التصفُّح على الشبكة الدولية، وإنما صار لديه القدرة على تحديد موقع مَن يمتلكه، فصار يتجاوز الفضاء المكاني، ويضع له خريطة في اللحظة ذاتها. ويستدعي هذا التطور رصد تاريخ الملاحة عبر الأقمار الصناعية، منذ أن دشّنت وزارة الدفاع الأميركية خدمة جي بي إس (GPS نظام التموضع العالمي)، والتي صارت منذ عام 2000، تستخدم لأغراض مدنيّة، وأيضًا تجاريّة، بعد أن كان صُمِمَتْ لأغراض استراتيجية عسكرية. وقد صارت هذه التقنيّة أحد أشكال التواصل اليوميّ في الثقافة الرقميّة، بعد أن كانت تُستخدم كاستراتيجيّة في أوقات الحروب الباردة، وكأداة لمُراقبة وملاحقة مرتكبي الجرائم، أي كشكل عقابي متمثّل في "قيود القدم الإلكترونية"، وهو أقدم تاريخيًّا من استخدام أجهزة التعقُّب في البحث الجنائي.

قد يصل التطوُّر إلى حدّ الإدهاش عند المقارنة بين أسورة مراقبة المجرمين، وساعة أبل، فالأولى تُحدّد إقامة مرتكبي الجريمة، أما الثانية فتحدّد وضعيته الاجتماعيّة. الغريب كما يشير المؤلف إلى أن تحديد مكان مرتكبي الجرائم، صار أقل تدخُّلاً في حياة الفرد بكثير، من تحديد الفرد لمكانه في الهاتف الذكي، وهو ما يُعطي انطباعًا بأنّ المخاوف الديستوبيّة، التي كانت هناك مخاوف بحدوثها - حتى نهاية القرن العشرين - قد تحققت ولم تتحقق في الوقت نفسه. وبذلك صار تحديد أماكن الأفراد المنحرفين أحد أشكال التواصل في الثقافة الرقميّة. ومع التطورات المتلاحقة في الهواتف المحمولة منذ بلاك بيري، وصولاً إلى جهاز أيفون، ودخول أنظمة أندرويد عام 2008، وإطلاق منصة متجر جوجل بلاي، تحوّل الهاتف الذكي إلى أحد مفردات الحياة اليومية.

دولة المراقبة

يرى المؤلف أن مسألة نشر بينات شخصية، عن النوم والرياضة والجنس والطعام والمزاج والانتباه والإنتاجية والموقع الذي يتواجد فيه الشخص، ساهمت إلى حد كبير في المساعدة على قياس كمي للذات، ومرجع هذا الاهتمام بتتبع الذات، راجع في الأساس إلى التطورات الأخيرة ومن ضمن هذه التطورات الأهمية التي حظيت بها أجهزة الكمبيوتر المحمولة، والأصغر حجمًا في شكل الهاتف الذكي، ووسائل التواصل الاجتماعي بوصفها مكانًا لمشاركة نتائج القياس. ومن المفيد أن نشير كما يقول المؤلف إلى أنّ أجهزة وأساليب القياس الذاتي "تفيد في المعرفة الأفضل بجسم الفرد".

يتحدث المؤلف عن المخاوف التي حاقت بقطاع كبير من الشعب الألماني، عندما بدأت الدولة مشروع التعداد السُّكاني عام 1983، وبدأت حملات مقاطعات لـ"دولة المراقبة"؛ خشية أن يكونوا "مثل دمى مسرح العرائس التي يتحكم فيها أشخاص آخرون"، والسبب كان ماثلاً فيما راج عن المشروع من أن الهدف منه "هو المراقبة الكاملة للجميع وتوجيه السلوك في المستقبل". فقد كان شرط هذا التعداد، هو التسجيل الكامل لكل بيانات الشعب. لكن جاء قرار المحكمة بوقف التعدّاد السُّكاني، وقد انتهى هذا التشكيك الدستوري في صياغة حق جديد أساسي أُطلق عليه "الحق في تقرير المصير المعلوماتي"، والتأكيد على وجود "مساحة داخلية للإنسان في سبيل تنمية الشخصية بحرية" مع وجوب أن تنعم هذه المساحة الداخلية بالحماية.

التخوّف زاد مع دخول أجهزة الكمبيوتر في عملية التعداد، ومن قبل المناهضين للتعداد وصفت هذه العملية بأنها "أشكال استبدادية شمولية للتحول الرقمي"، حتى خُيّل أن عالم 1984 المستقبلي لديستوبيا جورج أورويل، بما يعكسه من مراقبة وإرهاب فكري وبيروقراطية وعالم نفاق، أصبح حقيقة ملموسة، وهو ما يعنى استدعاء مشاعر الخوف من دولة المراقبة، دولة الأخ الكبير كما صوّرها أورويل. ومع دخول الثقافة الرقيمة، صار ما تمّ الاحتجاج عليه من قبل واقعًا، فصار بإمكان أيّ عضو جديد، بمجرد التسجيل على حساب فيسبوك، أن يقوم في الوقت ذاته بتسجيل بيانات شخصية، الفارق أن هذا الفعل لم يعد بمثابة عملية مضايقة أو اضطهاد، وإنما أصبح لأغلب الناس بمثابة فعل إنتاجي، وفضيلة اجتماعيّة من فضائل التواصل. وبالتالي تغيّر مفهوم الإنسان الزجاجي الذي كان دالاً على مراقبة منظمة لفرد أو مجموعة أشخاص، وصار أكثر تداولاً. يشير المؤلف إلى أن أحد أسباب التغير يعود إلى الشرطة التي لعبت دورًا تحفيريًّا على تسجيل البيانات. هذا التحوُّل في قبول تسجيل البيانات، والاعتراض عليها، يعود إلى طبيعة مُرْسِل تسجيل البيانات، فعندما كانت بعض الجهات الحكومية هي التي تطلب، في الثمانينات من القرن العشرين، كان هذا مرادفًا للبوح باللّب الجوهري لشخصيتك، وهو ما يعني افتقادك للكرامة الإنسانيّة. اختلف الأمر تمامًا عندما جاءت هذه الأوامر من "تعليمات حماية البيانات" لشركات مثل "في بوك، وإنستجرام، وسناب شات"، فلم يعد الأمر يثير لدى مسجلي البيانات "جنون الارتياب" المعروف بالبارانويا، بل على العكس تمامًا راح يثير "أحاسيس الانتماء والاندماج". وبذلك لم يعد الفرد مهدّدًا بالهلاك، مثلما يحدث في الدولة الأخطبوطية، وهو ما كان يدفع "المراقبة السائلة" للأمام كما وصفها زيجمونت باومان. فالمفيد حقًّا أن الثقافة الرقميّة أتاحت لمعاصريها - بلا شك - أن يتخذوا قراراتهم، فمع هذه الثقافة على عكس "العالم الذي وصفته أعمال الديستوبيا الأدبية" مارس الناس أو تمتعوا بالحرية في إنشاء ملفات شخصية لهم على مواقع التواصل الاجتماعي، وأيضًا إمكانية أن يوقفوا الخدمات المتعلقة بتحديد المكان "في جهاز الهاتف الذكي".

التطور الحقيقي أن العلاقة بين صاحب البيانات وجامع البيانات أو الظالمين والمظلومين، صارت علاقة تضاد. ومع شيوع الثقافة الرقميّة فقد الوكلاء التقليديون والمرجعيات التقليدية للسلطة السياسيّة في أوروبا وشمال أميركا رؤيتهم. فصارت عملية تسجيل البيانات لا تستنزف الهوية، وإنما تحدّد تشكيلها وتمثيلها.

الوصم وتصميم الذات

التغيرات التي التصقت بالذات لم تقتصر على الملفات الشخصية، وإنما شملت كذلك الوشم الذي كان علامة تُلصق للمجرمين، وترسم جبريًّا كنوع من العقاب المتمثل في الوصم لصاحبها، صارت تُرسم طواعية، وفارقت دلالتها كوصم أو كونها رمزًا مشبعًا بالمعاني، إلى كونه عنصرًا من عناصر تصميم الذات، وأيضًا بإمكانها تحديد هويات

محددة، على نحو ما فعلت شركت "نايكي"، التي طالبت من موظفيها الدائمين، برسم وشم صغير لعلامة سووش في مواضع ظاهرة من أجسادهم، كرمز لتماهي هويتهم مع العلامة التجارية.

المفيد أيضًا أنّ التحولات أكدت أنّ اعتناء الأشخاص بملفاتهم الشخصية أدّى إلى تعزيز من استقلالية الفرد؛ بل صارت تحرره من أيّ قوة وسيطة. الغريب أن ثمة إشارات إلى أن عملية معالجة البيانات الإلكترونية بمثابة وقاية، على نحو استخدام أسورة اللياقة البدنيّة، أو اختبار ذبذبات أجسادهم بالاستعانة بالهاتف الذكي، أو إجراء تحليل الجينات لمعرفة هل هناك أمراض وراثية محتملة، وهذه الأشكال السبرانية والشرطية للوقاية معروفة في الثقافة الرقيمة في إطار الكلمات الرئيسة "تنميط مصغر" وتحليلات تنبؤية".

مع شيوع الثقافة الرقميّة، لم يعد الأمر إكراهاً كما كان سابقًا، أو حتى يعرّض الفرد إلى استباحة بياناته ودخوله تحت مظلة دولة المراقبة، بل صار الأمر الآن طواعية، في تقديم صورة الذات، بل يحرص الأفراد على تطوير ملفاتهم الشخصية بانتظام، وكأننا صرنا مشدودين للأجهزة، ونشعر بما نقدمه من معلومات شخصية بالأمان أو الحماية، وهو ما لا يتحقق عند الاستجواب أو طلب ملف أمني من إحدى الجهات، وهو ما يحتاج إلى إجابة، هل فعلًا لا نشعر بالخوف من تعرية ذواتنا أمام الأجهزة التكنولوجية ونحن نعلم أن هناك مَن يراقبنا ويسجّل حواراتنا وبياناتنا، في حين نشعر بالخوف إلى حدّ الارتياب، إذا تمّ إرسال طلب استدعاء من إحدى الجهات الأمنية، حتى لو لمجرد الاستعلام فقط والتحري؟! لماذا يثق الناس في الوسائط التكنولوجية ولا يثقون في المؤسسات الحكومية؟

ومنه السؤال الأهم: مَن يحكمنا الآن؟

ناقد وأكاديمي مصري مقيم في تركيا

المختصر

كمال بستاني

زوكربرغ والرأسمالية المراقِبة

فيسبوك أضخم شبكة تواصل اجتماعي في العالم، يتجاور فيها نحو مليارين ونصف من المنخرطين، وهي مجموعة لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيلا، حيث تتعدد فيها اللغات والثقافات وتختلط مجالاتها المطروقة اختلاطا عجيبا. ولكن ما لا يعرفه المتهافتون عليه أن هذه الشبكة التي يديرها أكثر من ثلاثين ألف موظف موزّعين عبر العالم، منجم من المعطيات لا يقدّر عمقه ومحتواه، ما انفك يكدّس معاملات مالية قاربت رسملتها في السوق نصف بليار دولار العام الماضي. عن هذا النموذج الاقتصادي الذي يقوم ببساطة على بيع معطيات المستخدمين لشركات الإشهار والمؤسسات التجارية، يتحدث جولين لوبو في كتاب "في رأس مارك زوكربيرغ"، ويحلل المخاطر التي قد تنجرّ عن تبرّع المستخدمين بمعطياتهم الشخصية، مخاطر ليس أقلها استعمالها لتوجيه رغبات الناخبين. ويمضي في رصد شخصية زوكربيرغ، أصغر ملياردير في العالم، ومحاولة تحليل ما أسماه "الرأسمالية المراقِبة"، معربا عن خشيته بأن يكون ذلك الشاب الأميركي قد ابتدع وحشا يعسر التحكم فيه.

ليفيناس المجدّد

بعد "فلسفة السلك السياسي" و"إيثيقا الاعتبار"، صدر كتاب جديد لكورين بيلّوشون، أستاذة الفلسفة بجامعة غوستاف إيفل عنوانه "لكي نفهم ليفيناس". ما من شك أن إمانويل ليفيناس جدد الفلسفة في العمق، سواء من جهة تحديده الذاتية من خلال المسؤولية، والضلوع السياسي لذلك المفهوم، أو من جهة تركيزه على الجسدية بوصفها هشة أو متصلة بفينومينولوجيا العيش على الأغذية. وقد تولّد الكتاب عقب ملتقى ساهمت فيه بيلّوشون، والتقت بطلبة الفلسفة وبأطباء وممرضين، قدّمت لهم مفاتيح لفهم أعمال ليفيناس، وتجربته الفكرية، وبيّنت كيف استوحت منه أعمالها، التي تواصل فرضياته وتناقشها أحيانا، مؤكدة على راهنية هذا الفيلسوف، حتى عندما نتحدث عن مواضيع لم يخض فيها كثيرا كالطب والإيكولوجيا والعلاقة بالحيوان.

الفردوس الأرضي والملكوت

منذ أكثر من ألفي عام، شكل الفردوس الأرضي، أي الجنّات التي غرسها الله في عدن، براديغم العالم الغربي لكل سعادة ممكنة على سطح الأرض، رغم أن هذا المكان كان أيضا في البداية هو الذي طردت إليه الطبيعة الإنسانية إلى الأبد، بعد اقترافها المحظور. فمن ناحية، كل أحلام البشر الثورية يمكن أن ينظر إليها كمحاولة دؤوب للعودة إلى عدن، في تحدّ للحرّاس الذين يمنعون الدخول إليها، ومن ناحية أخرى تظلّ الحديقة نوعا من الصدمة الأولية التي تحكم على كل بحث عن السعادة الأرضية بالفشل. من خلال نقد صارم للمذهب الأوغستيني حول خطيئة البدء وإعادة قراءة لفردوس دانتي، لا ينظر الفيلسوف الإيطالي جورجو أغامبين في كتاب "المملكة والحديقة" كماض مفقود أو مستقبل قادم، بل كصورة لا تزال حاضرة عن الطبيعة البشرية والموطن المناسب للبشر على الأرض. ويرى أن ثمة براديغما سياسيا ميزّ المملكة الألفية هو الذي قدم نموذجا لشتى الطوباويات. إن كانت المملكة وحدها هي التي تفضي إلى الحديقة، فإن الحديقة هي وحدها التي تجعل المملكة موضعا للتفكير.

سبل تجاوز الأزمة الإيكولوجية

"الوفرة والحرية" للمفكر بيير شربونيي، بحث فلسفي وتاريخي يقترح التاريخ البيئي للأفكار السياسية المعاصرة، ولا يطمح عن أصل الفكر الإيكولوجي، وإنما يبين كيف أن تلك الأفكار تولدت عن تصور معين لعلاقة الأرض بالبيئة، سواء تبنت المعنى الأمثل للإيكولوجيا أم لا. بيد أن أهمّ الفئات السياسية للحداثة قامت على فكرة تحسين الطبيعة، والتغلب النهائي على شحّها وتحديد استغلال مواردها الجوفي، فبدا أن المجتمع السياسي للأفراد الأحرار المتساوين المزدهرين يرى نفسه خِلاً من أثقال العالم، خاصة مع تطور الصناعة المقرونة بالتقدم. إلا أن هذا الميثاق بين الديمقراطية والتنمية يعاد النظر فيه اليوم على ضوء التغير المناخي وانخرام التوازنات الإيكولوجية، ما يستوجب إعطاء أفق جديد لتفتّح سياسي ما عاد يستطيع الاستناد إلى وعود توسّع لانهائي للرأسمالية الصناعية. ويوصي المؤلف بأن نهتدي باشتراكية القرن التاسع عشر حين واجهت الأزمة الجغرافية الإيكولوجية الناجمة عن التصنيع، مع حماية المجتمع حمايةً تراعي تضامن المجموعات الاجتماعية مع بيئاتها في عالم متحول بفعل التغير المناخي.

البطء كوسيلة لكسر النسق

تاريخ الحداثة هو بالأساس تاريخ تمييز، إذ جعل السرعة مثالا للفضيلة الاجتماعية، ودفع المجتمعات الحديثة إلى ابتكار رذيلة هي البطء، أي عدم القدرة على مجاراة النسق للعيش على إيقاع العصر. انطلاقا من عنف رمزي ومخيال مجهول يستعرض الباحث لوران فيدال سفر تكوين البشر البطيئين، أولئك الذين استثنتهم أيديولوجيا التطور، بدءا من هندي كسول ومستعمَر خامل زمن الاكتشافات الكبرى إلى العملة غير المنضبطين في القرن التاسع عشر أو العمال الذين يوضعون على هامش الجدوى. والكاتب يكشف لنا كيف تبنّى أولئك الأفراد البطء لتخريب الحداثة، في اتجاه معاكس للنسق الذي فرضته الساعات والمواقيت، إما بالكسل أو بالمخادعة لخلق إيقاعات جديدة تتبدى حتى في بعض ألوان الموسيقى كالجاز والسامبا، وفي استراتيجيات التخريب التي يتبعها العمل النقابي الثوري، وبذلك يقدمون أنماط عمل جديدة، ونظرة أخرى عن التفتح.

فوبيا التأخر

من أمراض هذا العصر أن الأفراد يعانون من فوبيا التأخر. فالخوف من الوصول بعد الموعد المحدد، سواء في العمل، أو في تربية الأطفال، وحتى لقضاء العطل، يجعل الناس يستبقون كل شيء حتى يستبدّ بهم شعور أنهم لا يعيشون لحظتهم، وأن الإحساس بالحياة يهجرهم، أي أنهم يفقدون الإحساس بالزمن، ومعه الإحساس بالوجود. ولكن هيلين لويّي أستاذة الفلسفة والتحليل النفسي بجامعة السوروبون، تبين في كتابها "مديح التأخر" أن استرجاع كل ذلك ممكن. فالوصول متأخرا معناه التغيب عن المدرسة، اتباع الطرق الفرعية، عدم التوجه إلى الهدف مباشرة، إدخال تعديلات طفيفة قد تؤدي إلى انحراف التروس المزيّتة بعناية وحيواتنا الآلية حد الشطط. وذلك كله يعني أن الفرد يعيش حياته بحق. وفي رأيها أن أمام القيم المهينة لمجتمعاتنا الحديثة كالمرونة والسيولة والعجلة والسرعة، والباثولوجيا التي تنتج عنها، يصبح التأخّر حينًا من الوقت يسمح للفرد بتدارك وضعيته الزمنية، وبذلك يغدو استراتيجية مقاومة.

البديل عن الشعبوية

ظاهرة الشعبوية لم تدرس جيّدا بعد إلا من حيث تصنيف اجتماعي للناخبين الشعبويين الذين تبنّوا كل الكتب التي تثير الموضوع، أو مناقشة أعراضها (الاستياء من الديمقراطية، التفاوت المتزايد، تكوين عالم من الخفايا...) أو إعلان النفير تنديدا بتهديد من يمثّلها. كتاب "قرن من الشعبوية" لبيير روزفالون يقترح فهمها كأيديولوجيا متناسقة تطرح رؤية جذابة عن الديمقراطية والمجتمع والاقتصاد. ولئن عبّرت عن غضب وحقد فإنها تستمد قوتها من كونها تقدم نفسها كحل لفوضى الحاضر. ولذلك فهي الأيديولوجيا الصاعدة في القرن الحادي والعشرين، في وقت تبدو فيه الكلمات الموروثة عن اليسار ترن وسط الفراغ. والكاتب يقدّم عنها نظرية موثّقة، ويرسم تاريخها داخل الحداثة الديمقراطية، مع نقد عميق مشفوع بالقرائن، ما يسمح بوضع حدّ للوصم العاجز ورسم الخطوط الكبرى لما يمكن أن يكون بديلا لهذه الشعبوية.

نهاية الطبقة المتوسطة في الغرب

في أكتوبر 1987 صرحت مارغريت ثاتشر قائلة "المجتمع، لا وجود له"، فسمعت قولها كل الطبقات الغربية المهيمنة وعملت به، وكان من نتيجة ذلك انفصال كبير للعالم الفوقي الذي أغرق البلدان الغربية في فوضى المجتمع النسبي، منذ أن تخلّى عن الصالح العام. فكان أن أدى قطع الصلة بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا إلى الانحدار إلى اللامجتمع، ورغم ذلك لم تَزُلْ الطبقات الفقيرة رغم ذلك، وما الثورة التي تجتاح العالم الغربي اليوم، من صناديق الشارع للاقتراع، والقادة الشعبويين في مظاهرات السترات الصفراء إلا الجزء الظاهر من قوّتها الناعمة التي سوف ترغم العالم الفوقي على اتّباع الحركة الحقيقية للمجتمع أو الزوال. ذلك ما يطرحه عالم الجغرافيا الفرنسي كريستوف غويلّي في كتاب جديد عنوانه "نو سوسيتي: نهاية الطبقة المتوسطة الغربية".

عبد الرزاق شبلوط

أنماط العلاقة بالعالم

يعتبر فيليب ديسكولا من كبار علماء الأنثروبولوجيا الفرنسيين في القرن العشرين. استهل اكتشافاته في أمازونيا، حيث عاش كعالم إثنوغرافيا سنوات مع قبيلة جيفاروس أشوار، ولاحظ علاقات أفرادها مع الكائنات الطبيعية. ثم بيّن كعالم إثنولوجيا أن التعارض التقليدي الذي يقام في الغرب بين الطبيعة والثقافة لا توجد عند الأشوار، الذين يضفون على الطبيعة خصائص بشرية. ثم حدّد كعالم أنثروبولوجيا أربعة أنماط من العلاقة بالعالم هي الطوطمية، والإحيائية، والطبيعانية والتماثلية (أي التشابه الجزئي بين عنصرين) تسمح بتبين علاقات الإنسان ببيئته. وهو ما يسرده ديسكولا في كتاب "أيكولوجيا العلاقات" الذي يرسم فيه المحطات الكبرى لمسيرته، ويقود القارئ بلغة واضحة وأسلوب سلس إلى ممارسة الأنثروبولوجيا.

السبيل إلى نمو أفريقي حق

الأرقام التي توحي بنمو أفريقي لافت بعيدة كل البعد عن الواقع، فالثابت كما يؤكد عالم الاقتصاد والمدير الأسبق للفرنكوفونية الاقتصادية والرقمية كاكو نوبوكبو أن البلدان الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى لا تزال هي المنطقة الوحيدة في العالم التي تعاني من الفقر المدقع. في كتابه "حالة الاستعجال الأفريقي. لنغير نمط النموّ" يبين المؤلف أن النمو الذي شهدته القارة السمراء في الأعوام الأخيرة لا يعود بالنفع على شعوبها، وأن الأرقام المتداولة إنما هي دليل على استعمال أفريقيا كمختبر لليبرالية الجديدة بالتواطؤ مع نخبها، ولذلك يحذّر من خطورة الوضع الذي تعيشه قارة باتت فريسة لنهب ثرواتها المنجمية والعقارية، وتهريب أموالها إلى الخارج، فضلا عن منافسة زائدات الإنتاج الفلاحي الأوروبي لإنتاجها المحلي. والحل في نظره يتمثل في استرجاع السيادة كاملة، خاصة السيادة النقدية، والاعتماد على المجتمع المدني، حتى يتسنى تحقيق النمو الحقيقي باستثمار الموارد الأفريقية والاعتماد على حرفية الأفارقة. وهو في رأيه أمر عاجل لا يحتمل التأخير للقضاء على الفقر، وإلا فسوف تكون القارة قنبلة موقوتة قد تنفجر على الجميع.

يهودي ينتقد إسرائيل ويهود فرنسا

يحتل الكاتب والناشر وعالم التحليل النفسي جيرار حداد موقعا متميزا في الحقل الثقافي لليهودية الفرنسية. تونسي الأصل، درس الفلاحة، ثم انتقل إلى التحليل النفسي بعد تعرفه على جاك لاكان، وهو ما سجله في كتابه "يومَ تبنّاني لاكان". تأثر تأثرا عميقا بفكر يشعياهو ليبوفيتش، محرر الموسوعة العبرية الذي اشتهر بنقده اللاذع للسياسة الإسرائيلية، فكان مثله شديد الانتقاد للسياسة الأمنية التي توخاها الكيان الصهيوني، وكذلك للتحول الهووي الذي شهدته اليهودية الفرنسية. في كتابه الجديد "صمت الأنبياء" يسرد حداد مسعاه الفكري والروحي بحثا عن الحقيقة، ويبسط نظرته إلى ديانات التوحيد، ويتحدث عن عودته إلى قراءة اليهودية قراءة مركزة على النص الديني بعيدا عن أيّ أصولية. ويدين ما أسماه "صمت الأصوات اليهودية" إزاء ما يجري، وكذلك تدهور التقاليد التوراتية.

انتكاسة أميركا اللاتينية

شهدت عدة بلدان أميركية لاتينية منذ انتخاب هوغو شافيز "منعرجا نحو اليسار"، وولّد صعوده أملا في تحول اجتماعي وتجارب مناهضة للإمبريالية، تمثل في "الثورة البوليفارية" في فنزويلا، و"الثورة المواطنية" في الإكوادور، و"الدولة متعددة القوميات" في بوليفيا. تميّزت تلك الفترة بالتغيير وبدا أن ليل النيوليبرالية الطويل بصدد الانجلاء، فقد تراجع الفقر والتفاوت، وانحسر نفوذ واشنطن في المنطقة. ولكن بعد عشرين عاما، عادت المنطقة إلى تقلباتها السابقة، حيث اعتماد الأنماط الاقتصادية على تبديد الثروات، وعودة الاستبداد والفساد، والقطيعة مع الحركات الاجتماعية. في موازاة ذلك، شهدت المنطقة إعادة تنظيم قوى اليمين الاجتماعية والسياسية والدينية، وصعود اليمين المتطرف، والهزائم الانتخابية، والانقلابات البرلمانية. في كتاب "نهاية المقابلة؟ أميركا اللاتينية: التجارب التقدمية في طريق مسدود (1998-2018)"، يعتقد فرانك غوديشو أن استخلاص هذه الحصيلة ضروري لفهم راهن تلك القارة خلال الأعوام التي بدأت بالأمل وانتهت إلى العنف.

كاتب لبناني مقيم في ليدز/بريطانيا

جدل فرنسي متجدد في المسألة العرقية

أبو بكر العيادي

عاد الجدل في فرنسا حول "العرقية"، بعد أن تعاقبت في الأعوام الأخيرة أحداث عديدة، كمطالبة بعض النواب بإلغاء عبارة "عرق" من الدستور الفرنسي، وإدانة اجتماعات نقابية تعقد بين البيض وحدهم، وانتقاد أعمال مسرحية وفنية تعيد إنتاج النمطية العرقية، وصدور حكم قضائي ضد تفتيش البوليس الأهالي بحسب لون بشرتهم. ويهمنا هنا أن نتوقف عند نظرة علماء الاجتماع إلى هذه المسألة، التي لا تكاد تُغمَر إلا لتطفو من جديد.

شادي أبو سعدة

اكتسى الجدل عن العِرق طابع سجال حامٍ في وسائل الإعلام ومنابرها التلفزيونية ليكشف عن خلاف دلالي حول عبارتي "العرق" و"العرقية" بحسب الظروف ووجهات النظر، ولّد أحيانا وصم المتناظرين بعضهم بعضا بالعنصرية.

ولكن السجال ما كان ليبلغ ذلك العنف لولا استناده إلى مساءلات سياسية عن جوهر المسألة العرقية في فرنسا، التي تستثير ذاكرة الماضي الكولونيالي، وذاكرة الاسترقاق، وحتى ذاكرة العمالة مع حكومة فيشي، وتطرح سؤال تفرعاتها المعاصرة. فهي تسائل بنية التفاوت الاجتماعي واستمراره حسب مواصفات وترتيبات لا علاقة لها بالجندر وحده ولا بالطبقة فقط، كما تطرح سؤال المسؤولية، فردية كانت أم جماعية أم مؤسساتية، والوسائل القانونية والسياسية واللغوية والفكرية اللازمة لإلغاء الحيف الصارخ في التعامل مع فئات مجتمعية بعينها، سواء في الحصول على السكن أو الشغل أم في استعمال المدرسة كمصعد اجتماعي.

غير أن استقطاب الإعلام لهذا الجدل من زاوية ثنائية متقابلة لا يفي بما في المساجلات العلمية من تعقيد ولا بموقف الباحثين من تلك المواضيع، وهم الذين لم يدّخروا جهدا في تناول هذه المسألة بالدرس والتحليل، يشهد على ذلك تعدد الندوات والدوريات والأعداد الخاصة التي تعالجها من شتى أوجهها.

والسؤال الذي يطرح دائما هو ما المقصود بالعرق بالضبط؟ أما ما يتفرّع عنه فيمكن اختصاره في ما يلي: كيف يمكن استعمال الفئات العرقية في بحوث العلوم الاجتماعية بشكل لا يؤدي إلى تصنيف الظواهر التي تلاحظها؟ وما وضع العرق في علاقته بفئات أخرى من المجتمع؟ وهل العرقية ناتجة عن أفراد سيئي القصد والطوية أم هي تندرج في بنية المجتمع؟ وهل يمكن دراسة العرق بمعزل عن الاعتبارات السياسية والنضالية؟

الملاحظ أن استعمالات عبارة "عرق" في العلوم الاجتماعية تختلف عن مفهومها في الأيديولوجيا العنصرية، فلئن ادّعى النازيون مثلا أن العرق الآري أرقى من بقية الأعراق، ودعموا مزاعمهم ببحوث شبه علمية، فإن منظمة اليونسكو فنّدت ذلك منذ عام 1949 واستندت إلى علماء ومفكرين مثل كلود ليفي ستراوس أثبتوا وحدة جينات الكائن البشري بنسبة 99.9 بالمئة، ولكن العرق كحاجز متخيل بين الجماعات لم يَزُل.

تقول عالمة الاجتماع كوليت غِيّومان "مفهوم العرق هو أداة قتل، وسيلة تقنية للقتل، وفعاليته مشهود بها. فهو وسيلة لعقلنة العنف القاتل وتنظيمه بشكل يخلق هيمنة فئات اجتماعية قوية على فئات اجتماعية أخرى مستضعفة". ومن ثَمّ، فإن العلوم الاجتماعية لا يمكن أن تتجاهل هذا المفهوم، ليس بهدف إجراء تحديد مسبق للأعراق وإنما بغية تلمّس الطريقة التي ينظر بها كل مجتمع إلى "الآخرين"، كالسود والعرب والغجر، ويضفي عليهم سمات متناسقة ومتواصلة تعمل على جوهرتهم. وبسبب انحرافها القاتل، تطوّرت هذه الظاهرة لتأخذ أشكال تعبير مغايرة تجد القبول في الديمقراطيات الغربية. فقد تراجعت القوالب النمطية الفجة التي تزعم دونية العرب والسود جسديا وأخلاقيا، ولكن حلّت محلها عنصرية توصف بال"رمزية" تقوم على الاختلافات

كوليت غيّومان - الأعراق ليست معطى طبيعيا، بل نتاجات اجتماعية، متباينة ومتغيرة

غوانائيل كالفيس - في فرنسا تحفَظٌ عن تناول العرقية باسم كونية القيم الجمهورية

رشيدة إبراهيم - الجرائم العنصرية حتمت علي استعمال فئة العرق

مغالي بيسون - الفئات الاجتماعية معنصَرة، أي موضوعة في موضع تبعية أو حظوة

الثقافية والاجتماعية المزعومة، وصار ينظر إليهم كفئات لا تحترم قيم البلاد التقليدية ويحمّلونها تردي أوضاعهم الاجتماعية. ولئن غابت العنصرية في الخطاب المباشر بحكم القانون، فإنها لا تزال تتبدى في السلوك اليومي، من خلال التضييق في مجالات الشغل والسكن والعلاج، وفي عمليات التفتيش والمراقبة، وحتى في المُرَح ونظرات الاحتقار.

للتمييز بين الـ"عرق" لدى العنصري والـ"عرق" لدى عالم الاجتماع، اقترحت كوليت غيّومان منذ مطلع السبعينات في كتاب "الأيديولوجيا العنصرية" استعمال مصطلح "عَنصرة" (racisation) كوسيلة للتعامل مع العرق بوصفه حصيلة مسعى يضع فئة مجتمعية في خانة غيرية ودونية تُضفى عليها جملة من الخصائص يقال إنها موروثة، فيخلق المجتمع من خلال عملية اشتغاله نفسِها ما تسميه "مُعنصَرين". وبذلك لا تكون الأعراق معطى طبيعيا لا يقبل التغيير، بل نتاجات اجتماعية لها موقعها من التاريخ، متباينة عن بعضها بعضا، ومتحوّلة، ما يجعل فئة "معنصَرة" تغادر وضعها، وأخرى غير "معنصرة" تغدو مع الأيام كذلك. غير أن دراسة مسارات الإنتاج، في ظرف ما، لا تخلو من مخاطر. أول تلك المخاطر مرتبط بشروط تلقي مثل تلك الدراسات، فالحذر المنهجي والمعقَّفات والهوامش أسفل الصفحة لا تظهر في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، ما يعطي انطباعا عكسيا، إذ يوضع العرب والسود في خانة يحاول بعضهم تلطيفها باستعمال مصطلح "غير البيض".

وثاني تلك المخاطر هو التوسل بها لغايات سياسية، كما فعل ساركوزي عندما لجأ إلى باحثين في العلوم الاجتماعية ليضفي على سياسة استقبال المهاجرين أبعادا إثنية عرقية.

وقد بيّن الأنثروبولوجي أري غورديان أن باحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية درسوا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كيف ظهرت، خصوصا في المرحلة الكولونيالية، فكرةٌ مفادها أن الإنسانية ستكون مقسّمة إلى مجموعات ثقافية وبيولوجية متباينة وغير متساوية، وأوضحوا الكيفية التي يعاد بواسطتها إنتاج المعاملات غير المتكافئة والعنف الشامل وأشكال الإقصاء المرتبطة بتلك الفكرة. وقد جُعل صنف العرق ومشتقاته في الغالب بين معقفين لتسمية تلك الظواهر وتحليلها، والغاية لم تكن إعادة الاعتبار للنظريات والأيديولوجيات العنصرية، وإنما تفكيك الفكر العنصري وخطابه، بشرح الميكانيزمات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تهدف إلى الإقصاء عن طريق التحديد العرقي. ولكن حتى عندما يقع تحديد العرق كبنية اجتماعية، فإن العبارة نفسها هي التي لا تزال تستعمل لدى الأكاديميين، برغم تداولها تاريخيا كمبرر لاستعباد مجموعات بشرية والهيمنة عليها وإبادتها. وطالما أن المعنى الذين يطلقه الجامعيون على فئة العرق محدد بوضوح، فإن استعماله مشروع، لأن تحديد المفاهيم جزء لا يتجزأ من مسار الكتابة الأكاديمية.

وإذا كان الجدل لا يخصّ الجامعيين وحدهم، فلأن السياسيين هم الذين يدفعون الباحثين إلى تناول هذه الظواهر الاجتماعية بالدرس.

نفس الموقف تتبناه عالمة الاجتماع رشيدة إبراهيم، إذ تعتبر أن بحثها في الجرائم العنصرية التي طالت المهاجرين المغاربيين وأبناءهم ما بين 1970 و1990 حتّمت عليها استعمال فئة العرق، لأن الضحايا ينتمون إلى مجموعة تتميز بسمات توحّدها، من حيث النوع والطبقة والعرق. ولو أنها تعرّف العرق بكونه ما يسبق وما يتبع مصير الفرد اجتماعيّا دون أن يكون قد تَمثل ذاته بالضرورة وفق هذه المواصفات، وما هي إلا جملة من الملامح البدنية والثقافية أضفيت عليها قيمة سلبية، في عملية وصم تسمح بفرز أفراد تلك المجموعة واستنقاصهم.

ولا مناص في رأيها من استحضار العرق لوضعه في إطار فكري يسمح بإبراز العنف المسلَّط على أجساد تحاول التنقل في أماكن فاقدة للإنسانية بضواحي المدن، وفي الأحياء والمنازل والمصانع ومخافر الشرطة والمراكز الحدودية؛ ومن الاقتناع بأن الفئات الاجتماعية، من تجارة العبيد الأفارقة إلى الهجرات الأحدث عهدا مرورا بتوسع الإمبراطورية الكولونيالية، كانت ولا تزال أحد الوجوه الكبرى للتفرقة الاجتماعية في الفترة الحديثة والمعاصرة. ولا تزال تلك الفئات عرضة للشك في شرعية وجودها، لأن الكشف عنها يناقض صراحة الفكرة الرائجة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بأن الأعراق لا وجود لها. فتكرار هذه المقولة بشكل مملّ لا يكفي لإلغاء بناء الفئات العنصرية، لسبب بسيط وهو أن العرق ليس مرده إلى فكر أيديولوجي فقط، وإنما هو أيضا معيار تصنيف يساهم في إقامة النظام الاجتماعي، من خلاله تُحدّد علاقات النفوذ والتمتعُ بالموارد والسيرورةُ البيوغرافية. وأمام الجدل الصاخب حول المصطلح واستعمالاته، صارت رشيدة إبراهيم تفضل مصطلح "الإثنية"، لأنه يبرز بوضوح عملية الصدّ التي تنبني على المعايير الثقافية والملامح البدنية للأفراد.

أما مغالي بيسون، الأستاذة بمعهد العلوم القانونية والفلسفية التابع للسوربون، فتعتقد أن فئة العرق هي حصيلة نوع خاص من العلاقة السوسيوسياسية والاقتصادية أنتج مجموعات معنصَرة، وأن محتوى الفئة مرهون بالقيمة السياسية التي تُضفى على تلك العلاقة في ظرف محدّد، وهو محتوى متغير في الفضاء والزمن.

وفي رأيها أن التحديد العملي الذي يمكن أن نعطيه للعرق يحيل على مسار بناء علاقات ظرفية أكثر من كونه محتوى جوهريا، فالفئات الاجتماعية، شئنا أم أبينا، معنصَرة، أي موضوعة في موضع تبعية أو حظوة في عدة مجالات اجتماعية وقضائية وسياسية واقتصادية، والفرق أن ذوي الحظوة يمتازون بكونهم لا ينظر إليهم من جهة عرقهم، وينتفعون بالموارد الاجتماعية والسياسية والإبستيمية للعنصرة.

ما يميز هذا المسار عن غيره من ظواهر إنتاج الغُبن أو الحظوة أن المجموعات المعنصَرة تنبني عبر عاملين: استدلال بدني (فالانتماء العرقي يُلاحظ أو يُتخيّل أو يُضفى على الأجساد)؛ وإدراج تلك السمات الجسدية في بنوّة أو إرث قديم بيولوجي أو ثقافي، أي أن الجماعات المعنصرة هي كذلك بسبب تجليها (الواقعي أو المتخيل) وجينالوجياها. ومن ثَمّ، يغدو استعمال فئة العرق مفيدا لأنها تسمح بإبراز بناء هذا الموقف المخصوص ودراسة آلياته وآثاره الاجتماعية.

وأمّا الباحثة غوانائيل كالفيس، أستاذة القانون، فترى أن استعمال مفهوم العرقية المؤسساتية غالبا ما يكون محلّ انتقاد، بدعوى أن القوانين الفرنسية لا تنص على

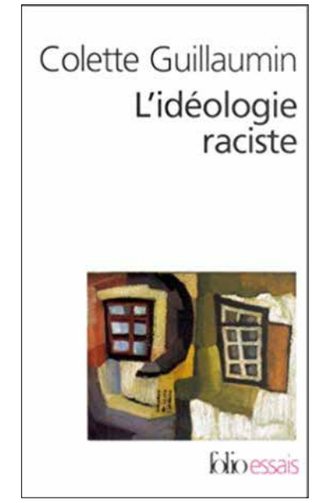

الأيديولوجيا العنصرية

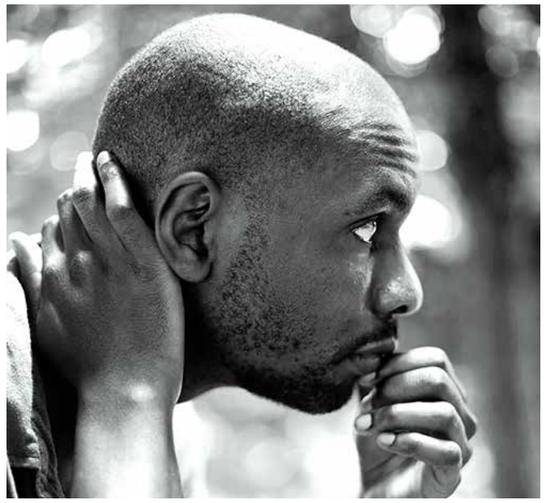

آري غورديان - الغاية ليست إعادة الاعتبار للأيديولوجيات العرقية بل تفكيك خطابها

الإقصاء العرقي، غير أن هذا الانتقاد يتجاهل معنى المفهوم وأصله، فقد نظّر له مناضلو الحركة الراديكالية الأفريقية الأميركية "بلاك باور" في ستينات القرن الماضي، وكانوا يحتجون بأن جملة من السلوكات والعلاقات الاجتماعية تصنع منظومة وتساهم في تعطيل الصعود الاجتماعي للأفارقة الأميركان. وبذلك اكتسبت تلك الظواهر قيمة مؤسساتية في غياب قوانين رادعة. وسواء استعملنا عبارة "عرق" بمعقفين أو من دونهما، أو فضلنا عليها عبارة "إثنية" المقبولة أحيانا، فإننا لا يمكن أن ننسى أن ثمة في فرنسا تحفّظا عن تناول هذه الثيمات باسم كونية القيم الجمهورية، فطالما طُرح الجدل بشكل مختل، تحت زاوية عدم اندماج المهاجرين، كما بيّن عالما الاجتماع الأميركي أليك هارغريفز، والفرنسي ديدي فاسّان، وقد كان للاعتراف بالميز العنصري المسلط على فرنسيين يُنظَر إليهم كأجانب أو من أصول أجنبية أثرٌ كبير في تغير طريقة تناول هذه المسألة منذ التسعينات، سواء من خلال مطالبات الهيئة التمثيلية لجمعيات السود في فرنسا، وأحداث الضواحي عام 2005، وظهور جمعيات مناهضة للعنصرية، أو من خلال التركيز على الإسلام والمسلمين كممثلين لغيريةٍ مهدِّدة عقب الأعمال الإرهابية التي ضربت فرنسا.

إن التفاوت الاجتماعي ناتج عن سيرورة معقدة، لأن المجتمعات المعاصرة تقوم على منظومة تصنيف، وفق معايير كالطبقة والجندر والعرق والدين والميول الجنسية وحتى السنّ، تضع الأفراد في مجموعات لا تتمتع كلها بنفس الحقوق والمنافع والخدمات المتوافرة. والعرق، كسائر المعايير الأخرى، يسمح بإقامة حدود بين الفئات الاجتماعية، وكلما ازدادت معايير الإقصاء لدى فرد ازدادت فرصُ وقوعه ضحيةً للحيف في مختلف مجالات الحياة. ما يؤكد وجود عنصرية بنيوية، أي نظامية ومؤسساتية تساهم في خلق بنية تفاوت في المجتمع. هذه العنصرية يمكن تحديدها كترتيب منهجي، بفضلِه يمكن للمعايير القائمة على الممارسات والتمثلات الثقافية أن تُنتِج الفئات الإثنية والعرقية وتكريسها.

لقد اختارت الدولة الفرنسية تجنب مجابهة المسألة العرقية وإلغاء عبارة "عرق" من ديباجة دستورها، ولكن أيديولوجيا الجمهورية ليست مهددة من قبل هذا الوعي المتنامي بوجود مسألة عرقية أكثر مما هي مهددة بأشكال التفاوت الاجتماعي، فمنذ نهاية المرحلة الاستعمارية، وقع الربط بانتظام بين الأفراد من ذوي الملامح الجسدية والثقافية الخاصة وبين المشاكل الاجتماعية كالسكن والبطالة وانعدام الأمن، وساهم الخطاب السياسي والإعلامي في تثبيت سلسلة من المحددات لتصنيف المسألة العرقية، إما بتهويل مسألة الهجرة، أو بالتأكيد على الفوارق التي لا يمكن طمسها أو تجاوزها بين السود والعرب من جهة، وبين الأوروبيين بعامة والفرنسيين بخاصة. ومن التناقض أن تعترف الدولة بوجود هذا الوعي وتندد في الوقت نفسه بالمطالب الملحة لإقرار العدل والمساواة، تلك المطالب التي ترفعها شريحة من شرائح مجتمعية ما انفكت تشعر بالإقصاء.

كاتب تونسي مقيم في باريس

شادي أبو سعدة

الذات الخارجية أم ثرثرة بصرية

هيثم الزبيدي

هل من الطبيعي أن نسلم معلوماتنا الشخصية إلى العالم الافتراضي؟ تصفح حساباً لصديق على فيسبوك وسترى العجب. يتبرع بكل المعلومات. رقم هاتفه؛ أصدقاؤه؛ صور الطفولة؛ فيديو إلى أين ذهب؛ متى سافر؛ سيل لا ينتهي من صور السيلفي؛ حتى طاولة الطعام لا تنجو من التصوير. ثم الأخبار التي يقرأها؛ الحِكم التي يؤمن بها؛ الكتب التي طالعها؛ إعادة نشر ما يقوله أصدقاؤه.

نتهم الحكومات بانتهاك الخصوصية. تصوّرنا الحكومات "في الرايحة والجاية". في الشارع والمحلات والمطارات ومحطات القطار. نتحدث عن الأخ الأكبر الحكومي بامتعاض. ثم نكتشف أننا أنفسنا "الأخ الأكبر".

هذه نقلة نوعية في النظر إلى الذات. الذات من قبل كانت داخلية. تعبّر عن نفسك بالكتابة والحديث. مجموع الصور التي تجدها لجدك الراحل هو صورتان أو ثلاث، ربما واحدة منها لهويته الشخصية. مجموع الصور العائلية لوالدك ووالدتك تعدّ على أصابع اليدين. خالك له صورة أسود وأبيض يضع "الجيل" على شعره ويسند حنكه على أصابعه، ويبتسم. المشاهير لهم صور قليلة. يجمعون مراسلاتهم مع الآخرين ثم يتركونها في صندوق صغير للورثة، أو ينشرونها قبل رحيلهم في كتاب بحجم متوسط. الذات الداخلية رقيب يرفض الاقتحام حتى من أقرب الناس.

الذات اليوم ذات خارجية. كلّما كنت منفتحا وشفافا، كلّما أحسست بأنك تنتمي إلى العصر. تدلي برأيك في قضية إشكالية وتتجاوز الحذر التقليدي. تصير أنت جزءا من الإشكالية. الذات الخارجية أقوى من حكمة الحذر الذي يمارسه الإنسان مع خصوصياته. تكتب تعليقات وتنشر صوراً. الرأي يرتدي وجها الآن.

ربما الوصف الذي يصلح هنا هو الثرثرة البصرية. الصورة هي المقياس الآن. الثرثار أيام زمان يثرثر بالكلام. ثرثار هذا الزمان هو من يثرثر بصوره أو صور الآخرين. وإذا كان ثرثار زمان يسعى لأن يستمع إليه الناس، في البيت أو الباص أو المقهى، فإن ثرثار هذا الزمان يريد أن يراه الناس كلما فتحوا صفحاتهم على فيسبوك. المهم هو التفاعل الذي يبديه الأصدقاء مع الصور. المهم هو "اللايك".

لا عيب في كل هذا. هذا هو العصر وعليه يجب التأقلم معه. إذا كان رئيس الولايات المتحدة لا يتوقف عن الثرثرة على حسابه في تويتر، فكيف بشاب في العشرين يمشي ويندهش ويكتب ويصوّر ويردّ؟ إذا كان رئيس وزراء بريطانيا شعبوياً، فهل تلوم فناناً في الشرق الأوسط يريد أن يلفت إليه الأنظار أو شاعراً استبعدته المسابقات الشعرية؟

التأطير الثقافي لهذا الواقع الجديد هو المشكلة. كما بدأت بالقول، فنحن ننتقد نفس الشيء الذي نمارسه. الفرق هو أنها حكومة وهذا أنا. ما هو تعريف الخصوصية هنا؟ بالأصل، هل بقيت خصوصية لكي نحاول تعريفها؟

أعتقد أن الأهم من الركض خلف تعريف الخصوصية هو التأكد من تعريف الذات الخارجية. لا خصوصية وأنت تشارك صفحتك على فيسبوك مع مئة صديق. ولكن بالتأكيد تحتاج أن توصّف الذات الخارجية لكي يدرك الأصدقاء، الحقيقيون منهم أو المتطفلون، أين هي حدودهم مع هذه الذات الخارجية.

عندما يمرّ أحدهم من جانب بيت يضع صاحبه كل صوره على السياج الخارجي، فإن الجار أو المار المستطرق سيتوقف يتفرج، وسيعلق أو يترك دائرتين على عيني واحدة من صورك تشبه النظارات للسخرية. لعلّ الطبيعي أن تضع لافتة "عدم اللمس" أو "بلا تعليق" أو "للفرجة فقط". هكذا تحمي "خصوصيتك" المستباحة لو قرّرت ذاتيا أن تستبيحها. هذا في عالم الأمس. أما في عالم اليوم، فإن الوقوف أمام السياج الافتراضي للصور الشخصية والأفكار والتعليقات على صفحات فيسبوك أو إنستغرام يعادل بوستات الرد أو التعليق أو الصور الأخرى أو التجاوز اللفظي أو "اللايك". ما هو المكافئ الافتراضي لحماية "خصوصية" الذات الخارجية؟ هل الحجب مثلا لمن يسيء الأدب؟ أم المعاقبة بالتجاهل؟

كل هذه مفردات في عالمنا المتغيّر لا نزال عاجزين عن الإتيان بصيغة توفيقية لها. صيغة توفيقية بين الأجيال. هل تسمح لابنك أن يلتقط لك صورة ويضعها فورا على إنستغرام؟ هذا هو الطبيعي بالنسبة إليه. أنت يجب أن تفكّر وتتمعّن. وصيغة توفيقية بين المسموح والمقبول أو المرفوض والمستهجن. هل تتقبّل التعليقات مهما كانت ومن أين جاءت؟ هنا، ما هي عتبة الحساسيات التي يجب عدم تجاوزها؟ لا ردّ لديّ ■

كاتب عراقي مقيم في لندن

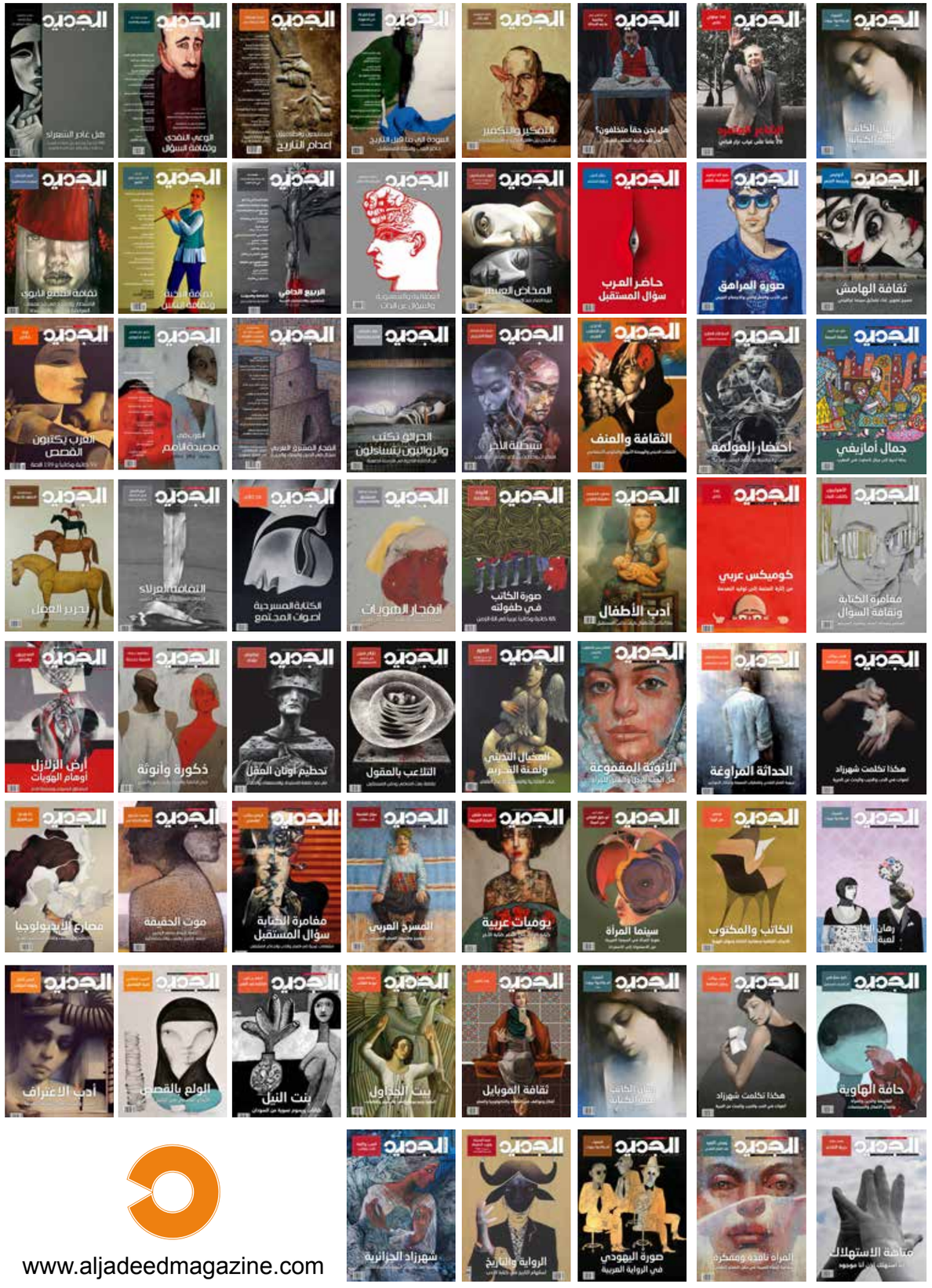

www.aljadeedmagazine.com

أبوبكر العيادي
إحسان المدني
أحمد برقاوي
أحمد بلخيري
أحمد ضياء
بهاء إيعالي
بهاء درويش
بومدين بوزيد
حميد زناز
خيري الذهبي
رشيد حمليل
سما حسين
سميّة عزّام
شرف الدين ماجدولين
صالح رحيم
طاهر علوان
عبد الرَّحمن بسيسو
علي سرمد
علي ضياء
عمار يزلي
عواد علي
غيضان السيد علي
فاطمة غندور
فخري صالح
مبارك حسني
محمد الحجيري
محمد حيّاوي
محمد صابر عبيد
محمود الرحبي
مريم حمود
مصطفى عبيد
ممدوح فرّاج النّابي
منار المدني
نور درويش
نور مهند
نوري الجراح
هيثم الزبيدي
وائل سلطان
وجدي الأهدل
وسام الموسوي
وليد علاءالدين

فكر حر وإبداع جديد

www.aljadeedmagazine.com